

علم الغيب في العالم القديم

وضعه
شيشرون
فيلسوف الرومان وخطيبهم

ترجمه وشرحہ وعلاق علیہ

الدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر : مكتبة الآداب بالجمايز ت ٤٢٧٧٧

فهرس الكتاب

مقدمة المترجمة العربية

ص ٥ تعريف بالكتاب — ٦ شيء من سيرة المؤلف — ٧ شيء عن حياته العلمية والفلسفية — ٩ مكان شيشرون في مجال الفكر — ١٠ منهجه في البحث — ١١ أخوه كوتتوس — ١٢ منطق البحث في هذا الكتاب — ٩ المصادفة عند كوتتوس — ١٤ موقف شيشرون من تأييد المصادفة — ١٨ هذا الكتاب ورسالة الدكتوراه — ١٨ تاريخ الكتاب وأصوله — ١٩ أم طبعاته — ٢٠ كلمة في ترجمته .

٢٢ مقدمة للأستاذ الجليل محمد شفيق غربال بك المستشار الفني لوزارة المعارف العمومية :

الكتاب الأول

أدلة كوتتوس في تأييد التكهن بالغيب

٣٥ قدم الاعتقاد في التنبؤ --- شيوع التنبؤ في العالم القديم — ٣٧ أساليب الرومان في التنبؤ بالغيب — صنعية وطبيعية — ٤٠ موقف الفلاسفة من التكهن — ٤٤ تردد شيشرون في التسليم بالتكهن — بدء المناقشة بين شيشرون وأخيه في موضوع التكهن — ٤٧ ضرورة الاقتناع بالتنبؤ رغم غموض أسبابه — ٥١ دحض الاحتجاج بالمصادفة في تفسير التنبؤ — ٥٢ مناقشة الاحتجاج بكذب النبوءات أحيانا — ٥٤ التكهن قبل شيشرون وفي أيامه — ٥٧ في تاريخ الكهانة — ٦٠ تأييد التكهن بنوعيه : الطبيعي والصنعى — ٦٣ تأييد التنبؤ الطبيعي — (١) التنبؤ عن طريق الوحي (في داني) — ٦٤ تأييد التنبؤ عن طريق الرؤيا — ٦٦ الأحلام عند غير الرومان — ٧٠ أحلام الفلاسفة — ١٧٢ الأحلام في المصادر الرومانية — ٧٦ نشأة الرؤيا المصادفة وحالات المس في رأى الفلاسفة — ٧٦ رأى أفلاطون — ٧٨ رأى الفيثاغوريين — ٧٩ الموتى وإدراك الغيب — الطبيعة البشرية والهجس — ٨٢ صدق التنبؤ رغم أخطائه — ٨٣ تأييد التنبؤ الصنعى : منهجه وأساليبه — ٨٦ مغبة الاستخفاف بنذر الزجر — ٨٩ في تأييد التنبؤ الطبيعي والصنعى : إلهام الشعراء والحطباء عند ديمقريطس وأفلاطون — ٩١ تنبؤ المرضى عند أرسطو — أدلة الرواقية على قيام التكهن بالغيب — ٩٢ مبررات الاعتقاد في التكهن مع غموض أسبابه — ٩٨ البيئة تحدد نوع التكهن — ٩٩ أثر التكهن في توجيه الحكومات والشعوب قديما — ١٠٤ المأل والطيرة عند الفيثاغوريين وغيرهم — ١٠٥ تأييد فن العيافة مع غموض أسبابه — تأييد التنبؤ الطبيعي — استبعاد التدليل العقلي من مجال التكهن — ١١٠ — التفسير العقلي للتنبؤ بالمس (الجنة) — ١١١ التفسير العقلي للتنبؤ عن طريق الرؤيا — ١١٢ نظرية أنتيفون في تفسير الرؤيا — مبررات تفسير الرؤيا : غموضها — ١١٣ العناية الإلهية بأفراد الشعب — ١١٤ موقف الآلهة من التكهن الصنعى — ١١٦ الوحي الإلهي عند سقراط يؤيد التكهن الطبيعي — ١١٨ مصادر التكهن — القضاء والقدر في مجال التكهن — ١٢٠ طبيعة النفس الانسانية كمصدر للتكهن — ١٢٢ مهاجمة البجاليين والمرترقة من مدعى الكهانة .

الكتاب الثاني

رد شيشرون على أدلة كوتوس في تفنيد الاعتقاد بفنون التكهن

- ١٢٧ مؤلفات شيشرون الفلسفية — ١٢٨ مكانة الفلسفة عند شيشرون : اتصاها
بتهديب النفوس — ١٢٩ أسباب اشتغاله بالفلسفة — ١٣٠ منهج شيشرون — أي
الأكاديمية الجديدة — في مباحثه — ١٣١ التكهن لا يستقيم في مجال العلم والفن والفلسفة
— ١٣٥ تفنيد معنى المصادفة في التعريف : مناقشة تعريف التكهن عند كوتوس —
١٣٧ اقتراض المصادفة يمنع من تعقل الإدراك الغيبي — ١٣٩ اقتراض القدر يمنع من الانتفاع
بالتكهن — ١٤٠ مضار العلم بالغيب — ١٤٣ مهاجمة أساليب التنبؤ : صناعية وطبيعية —
١٤٤ مناقشة أساليب التنبؤ الصناعي : أسباب العرافة — ١٤٥ (١) مناقشة التكهن
بالنظر في الأحشاء — موقف ديمقريطس من النظر في الأحشاء — ١٤٧ هذا التكهن
لا يستند إلى قواعد طبيعية — ١٤٨ دحض الاحتجاج بالارادة الالهية — ١٤٩ السخرية
من استشهادات الرواقين — ١٥١ ليثار رأي الأبيقوريين على رأي الرواقين — ١٥٢
(ب) مهاجمة التنبؤ عن طريق البرق — ١٥٤ وصف الصواعق المنذرة عند الرواقية
ومناقشته — مناقشة استشهادات الرواقية والأصرار على تعليلها — ١٥٧ لإقرار المصادفة في
مجال التكهن ١٥٨ (ج) مهاجمة التكهن بنذر الزجر . الجهل بالعلة مثار الاعتقاد بالغيب
— ١٥٩ نشأة علم العرافة ومناقشتها — ١٦١ الاعتقاد في النذر لا يستقيم مع المنطق —
١٦٣ التفسير المنطقي لاستشهادات الرواقية كقيل بدحضها — ١٦٥ دحض التدرية كمنذير
زاجر — ١٧٠ (د) مهاجمة التكهن باستنباء الطيور . استخفاف شيشرون بالعيافه مع
إقرارها — ١٧١ اجراءات الحكماء في معرفة الطالع — ١٧٢ اضمحلال العيافه —
١٧٤ مهاجمة العيافه عند غير الرومان — ١٧٥ التكهن بأدوات القتال — ١٧٦ مناقشة
استشهادات الرواقية — ١٨٠ مهاجمة التكهن بالأنصبه — ١٨١ نشأة الاعتقاد بالأنصبه
— ١٨٢ (هـ) مهاجمة علم أحكام النجوم : موقف خصومه من الفلاسفه — ١٨٣
أصل التنجيم ومناقشته — ١٨٩ مهاجمة التكهن الطبيعي — مذهب الرواقية في صلة
التنبؤ بالآله — ١٩١ مناقشة المذهب الرواق — ١٩٦ (١) مهاجمة التنبؤ في حالة الجذب
: مناقشة نبوءات سيبايل المجذوبة — ١٩٨ مناقشة شاهد رواقى — ١٩٩ غموض
النبوءات وكثرة الاحتمالات في تفسيرها — ٢٠١ مناقشة نبوءات دلفى — ٢٠٢ (ب)
مهاجمة الرؤيا الصادقة : مناقشة آراء الفلاسفه — ٢٠٣ الرؤيا الصادقة واتفاق المصادفات
٢٠٤ الشك في منفعه الاحلام — ٢٠٥ استبعاد الوحي الإلهي من مجال الرؤيا — ٢٠٨
لإرجاع الأحلام إلى طبيعه النفس — ٢٠٩ مناقشة قيام فن التعبير — ٢١١ مناقشة
استشهادات الرواقية — ٢١٢ إرجاع الأحلام إلى مكنونات النفس — ٢١٦ الشك في
قيام علاقة طبعيه بين نبوءات الرؤيا وحقائق الأشياء — ٢١٩ الشك في قيام
التعبير على المشاهدة العملية — ٢٢٠ قيام التعبير على الحدس يبرر الشك في نتائجه —
٢٢١ دحض التسليم بأساليب التكهن باعتبارها خرافة — ٢٢٤ كتب المترجم .

مقدمة الترجمة العربية

تعريف بالكتاب :

هذا كتاب وضعه « شيشرون » فيلسوف الرومان وخطيبهم منذ عشرين قرنا من الزمان ، وقد فصل فيه أساليب التنبؤ بالغيب في مختلف فنونه ، وتحرى في علاجه - تمسّيا مع منهج الأكاديمية الجديدة التي كان يتزعمها - أن يحشد أدلة الذين تشيعوا لهذه الفنون وذاذوا عنها ، وحجج خصومها الذين ضاقوا بها وهاجموا أهلها .. !! وبهذا عمد المؤلف - وهو خصيم عنيد للتنبؤ في مختلف فنونه - الى أن يعرض في نزاهة تدعو إلى الإعجاب مذاهب الذين انتصروا للتنبؤ من فلاسفة اليونان والرومان ، من رواقين - على وجه أخص - وفيثاغورين وسقراطيين وأفلاطونيين ومشائين وغير هؤلاء من دعاة هذه الفنون ، منذ فجر الفلسفة في القرن السادس ، حتى عصر المؤلف - في القرن الأول قبل الميلاد - بل تضمن استشهادات استقاها المؤلف عن عقائد دان بها القدامى من شعوب الأرض ، من أشوريين وكلدانيين ومصريين ويونانيين ورومانيين وغيرهم ، مع فيض من الأمثلة تحدر عن تاريخ الأمم القديمة ، وتجارب الكثيرين من أهلها . بهذه النزاهة العلمية أرخ شيشرون في النصف الأول من كتابه مذاهب المؤيدين لفنون التنبؤ ، توطئة للتعقيب عليها في النصف الثاني من كتابه ، بتفنيدها ومعالجة دحضها والكشف عن وجوه الضعف والمغالطة في تأييدها ، مستعينا بمذاهب الأبيقوريين وغيرهم من الفلاسفة الذين اضطلعوا بمقاومة التمكن بالغيب في شتى فنونه ، مستنديين في موقفهم إلى منطق العقل في تحليله للآراء التي حشدت لتأييد هذه الفنون ، وتفهم قوانين الطبيعة وسنن الكون ، والتعرف الى طبيعة الظواهر والكشف عن عللها وأسرارها ، دون الالتجاء إلى العقائد الدينية والزج بالآلهة في مواطن الدفاع عن هذه القضية - كما كان يفعل دعاة التنبؤ في تلك العصور .

شئ من سيرة المؤلف :

أما عن صاحب هذا الكتاب «ماركوس شيشرون» فحسبنا أن نقول عنه - بالإضافة إلى البيانات الطيبة التي وردت عنه في المقدمة القيمة التالية : أنه ولد في مستهل العام السادس بعد المائة قبل ميلاد المسيح ، فنشأ في جو يضطرم اضطراباً وفتناً وحروباً حتى سماه المؤرخون : عصر الثورات ، وكان يعدّ منذ صغره للحياة في هذا الجو ، فقضى المرحلة الأولى من حياته في مدارس روما ، ثم رحل في طلب العلم خارج وطنه ، جرياً على سنة أبناء أرقى الطبقات في روما ، وأصاب حظاً وافراً من ثقافة اليونان والرومان معا ، وحذق اليونانية حتى كان يخاطب بها فيشير كوامن الإعجاب في سامعيه ، وتكفل لسانه بأذاعة اسمه طويلاً وعرضاً ، حتى طمست شهرته في الخطابة اسمه في مجال الفلسفة ، واشتغل بالمحاماة فتولى الذود عن المتهمين من أشرف البلاد وأهل المناصب الكبرى فيها ، وكان دفاعه في الكثير منها روائع أدبية خالدة ، كما كان كفاحه في مجال السياسة سبياً في مصادرة أملاكه وإحراق بعضها ونفيه ، والانهاء بقتله . . . وقد ارتفع في مجال المناصب حتى شغل القنصلية وهي أكبر مناصب الدولة كلها يومذاك .

وكان للتيارات السياسية وانشغاله بمقاومتها أو توجيهها أثر بّين في فلة إنتاجه ، ذلك أنه قضى في حكم سيليسيا عام خمسين قبل الميلاد ، انصرف فيه إلى شئون السياسة ، فلما عاد عقب ذلك إلى إيطاليا كانت نيران الحرب الأهلية توشك أن تندلع ، فحاول إخمادها فلم يوفق ، وكره أن ينتصر لقيصر وهو في رأيه زعيم عصابة من الثوار ، وأغراه نبل خصمه (بومبي) بالانضمام إليه ، فأزره آخر الأمر رغم ضعفه وجشعه ، ولكنه بعد معركة فارسالوس Pharsallus التي وقعت في أغسطس من عام ٤٨ ق . م وانهمزم فيها بومبي ، رأى أن من العبث الاستمرار في مقاومة قيصر ، ففضى في أكتوبر إلى

برنديزيوم Brundisium ولبت فيها سجيناً حتى شهر سبتمبر من العام السابع والأربعين ، واعتزل أثناء هذه الفترة الشئون السياسية ، ورغم ما لقيه شيشرون من حسن معاملة قيصر وصحبه ، فإنه قد قرر في كبرياء وأنفة أن يظل في عزله ، وألا يساهم في حكومة يعتبرها رمز الطغيان والعدوان حتى أعلن قيصر العفو عنه بغير شرط ولا قيد .

ولما قتل قيصر وتعقب صديقه أتوني قاتليه ، وهم بتخليد ذكرى صديقه في جو تسوده الفوضى والفساد ، وقف شيشرون يندد بأعمال أتوني ، ويحقر من شأن السياسة التي اختطها ، ويتكهن بأنها منتهية بالبلاد إلى الدمار ، ويتعرض للحديث عن شرف زوجته ، فقضى أتوني بإعدامه ، وتمكن عيونه من اللحاق به والإجماز عليه ، ثم حملوا إلى الطاغية رأسه ويديه ، فأخذت زوجته الرأس ووضعت في حجرها ، وصبت عليه جام غضبها ، ثم انتزعت من فم لسانه الذي عرض بها ، وراحت توخره بدبوس كان في شعرها ، حتى إذا شفت غليلها ، ألقت به بعيداً عنها ، وعندئذ حملوا الرأس واليدان وسمروهما في نفس المكان الذي كان يلقي فيه أروع خطبه . . . ! وهكذا كان مصرع رجل أخلص لوطنه وضميره وعقله ، في عصر كاد يختفي فيه الإخلاص للمبدأ .

سقى عن حياة العظمة والفلسفة :

كان كلفا بالعلم والفلسفة ، فلما بلغ السادسة عشرة من عمره عام تسعين قبل الميلاد ، قدمه والده إلى سكايفولا Quintus Mucius Scaevola أحد المشتغلين بفن العيافة ليتلقى على يده القانون الروماني ، ويفيد من ثقافته الغزيرة^(١) وولع بدراسة الفلسفة منذ صغره فتلقاها على يد أساتذة من الأبيقوريين والرواقيين وأتباع الأكاديمية الجديدة ، وأحبها ووقف عليها

(١) . ص ١٠٣ ، ١٠٤ من مقدمه الصداقة (طبعة لويب)

حياته حتى تفوق فيها ، وكان إذا شغلته الشئون العامة وضرب في زحمة السياسة أخذ يجلس من وقته لحظات يتفرغ فيها للقراءة والاجتماع باهل العلم والفلسفة من معاصريه ، فاذا قذفت به تيارات السياسة بعيدا عن محيطها ، ألقى بنفسه في أحضان الكتب والتمس منها السلوى والعزاء ، واعتبر التبشير بالفلسفة أجل خدمة يؤديها لوطنه^(١) لأنها تثقف العقل وتهذب النفس ، وتغرى بالتزام الفضيلة ، وتقى المرء شر الغي والضلال^(٢) وهذا تمكن في عام ٥٥ ق . م من أن يضع : De Oratore وفي العام التالي نشر : De Republica وأذاع بعد ذلك بعامين : De Legibus ، واشتغاله بالأدب كان مرده إلى أسباب سياسية^(٣) .

ولما مكّن قصر لسيادته على مجلس الشيوخ في روما ، استبعد شيشرون من مجال الأعمال التي قضى فيها ثلاثين عاما حافلة بالمجد والجد معا ، ولكن نشاط عقله وجسمه كان لا يكل أبدا ، فكان لا بد من أن يجد مخرجا ينصرف إليه ، ولا سيما وقد أمضته الألام لسقوط الجمهورية وأضناه القلق من جراء ديونه ، وأخرجت صدره تلك المتاعب العائلية التي كان يزرع تحت نيرها ، فانطلق إلى الفلسفة وألقى في عباها همومه ، فهي عنده خير ملاذ يتقى به الضيق من متاعبه ، وأعظم أداة لخدمة الوطن . فترك روما ليتعد عن جلبتها ووضوئها عام ٤٦ ق . م وتمكن في هذا العام من أن ينشر Paradoxa و Partitones Oratoriae و Orator و De Claris oratoribus ، ومن المحتمل أن يكون قد وضع في نفس العام Hortensius .

وفي فبراير من العام التالي (٤٥ ق . م) اختطفت المنية أخته الوحيدة وكانت معقد حبه ومثار عطفه ، فأنقضت الأحزان ظهره ، وأدركه جنون

(١) الفقرة الأولى والثانية من الكتاب الثاني

(٢) الفقرة الثانية من الكتاب الثاني .

(٣) س ٢ مقدمة الشيوخوخة (طبعة لويب)

الكتابة عسى أن تصرفه عن التفكير في آلامه ، فأخرج في وقت قصير جداً (في عامي ٤٥ ، ٤٤ ق . م) هذه الكتب كلها *Tusculanae Disputationes* و *de Finibus* و *Consolatio* و *Cato Maior* و *De Divinatione* (الذي بين يدي القاري) و *De Fato* و *De Gloria* و *De Amicitia*^(١) و *Topica* و *De Officiis* ، وقد فرغ من هذا الكتاب الأخير في نوفمبر ، واختتم به حياته العلمية^(٢) .

وإذا عرضنا إلى مؤلفاته الفلسفية كما عرضها هو نفسه في الفقرة الثانية من الجزء الثاني في هذا الكتاب ، لاحظنا أثر حالته النفسية في بعض مؤلفاته في هذا العهد ، ولا سيما ما تحدث فيه عن الاستخفاف بالموت واحتمال الألم وتخفيف الأحزان وسائر الاضطرابات النفسية ، وهكذا تبدو آثار حياته الخاصة في فلسفته واتجاهات فكره .

ذلك إنتاج شيشرون في أوقات الفراغ التي ابتعد فيها عن مجال السياسة ، أما الفترات التي كانت السياسة تغمره فيها بفيضها ، فكانت أقل مراحل حياته إنتاجاً .

مطالمة شيشرون في مجال الفكر :

ولكن من الإنصاف أن نقول إن مؤرخي الفكر الروماني يرون في شيشرون مفكراً واسع الاطلاع غزير المادة متزن العقل نفاذ النظر ، يحسن عرض الآراء ويجيد تصنيفها ويستطيع في براعة نادرة المثال مناقشتها والتغلغل بفكره النفاذ إلى أنوارها والكشف عن مبلغ صدقها أو بطلانها ، ولكنه مع هذا كله لا يعتبر عبقرى الإنتاج ، وإن كان هذا لا يقلل من قيمة مؤلفاته

(١) لم يشر شيشرون إلى هذا الكتاب حين أخذ يعدد كتبه الفلسفية في مستهل كتابه الثاني كما يقول Falconer. في مقدمة الصداقة ص ١٠٣ . ويلوح لنا أن السبب في هذا أن كتاب

الصداقة قد صدر بعد كتاب علم الغيب .

(٢) ص ٣ من مقدمة الشيوخة .

من حيث وجه النقع لقراءتها ، بما تحمل في ثناياها من سعة العلم وعبقري الإنتاج ، وما تثير في أذهانهم من وجوه النظر ، وذلك بالإضافة إلى قدمها واشتمالها في الكثير من الحالات على مذاهب وآراء لا يعرف لها تاريخ الفكر سجلاً باقياً إلى يومنا الحاضر ، إلا كتب شيشرون ، ومن أمثلة هذا كتابنا في علم الغيب فإنه يرتد فيه إلى مصادر إغريقية فيها الإنتاج العبقري وقد ضاع الكثير منها ، ولكنه لا يكتفى بالنقل عنها ، بل يهذب هذا فيما يقول : Falconer بطريقته التي لاتجاري ، ويؤيده بفيض من تجاربه الواسعة ومعلوماته الفياضة .

منهج في البحث :

ويقف من هذه الآراء كلها موقف العالم الأمين ، يحسن اختيار ما يعرضه منها في نزاهة ولو لم يتفق مع وجهات نظره ، ويناقشه ملتزماً في ذلك منهج الأكاديمية الجديدة التي كان يتزعمها ، وقد أحسن التعبير عنه حين قال : إنه يبدأ فلسفته بالشك^(١) ، ويقصد بالشك ما يقيه خطر الاعتقاد أو الإيمان ، في مجال البحث عن الحقيقة ، ولهذا فهو يخضع للجدل والمناقشة كل رأى يصادفه ، وأن من زعم أمراً وقاله على سبيل اليقين ، كان قد مثل دور الكاهن الذي يتنبأ بالغيب^(٢) ، وهو أمين حتى على غير ما يعتقد من آراء ، فإذا أراد أن يدحض فكرة عرض في أمانة ونزاهة كل ما يقال في تأييدها وإنكارها ، ثم عقب بعد هذا بمناقشتها ، فإذا ناقشها أبى أن يقدم للناس رأياً قاطعاً ، وإنما قارن الأدلة بعضها ببعض وناقشها في صراحة وحرية وأمانة ، وقبل منها ما يلوح له أدنى إلى الصواب ، ثم يترك للسامع مطلق الحرية في إبداء رأيه وإصدار حكمه . وقد ورثت الأكاديمية الجديدة هذا الاتجاه العقلي عن

(١) الفقرة الثانية عشر من الكتاب الثاني وهامشها

(٢) الفقرة الثالثة من الكتاب الثاني وهامشها

سقراط^(١) وقارى. كتابه الذى بين يدينا الآن ، إن تغافل عن الأسلوب الخطأبى الذى عالج به موضوعه ، واستلزم الجزم الحماسى فى بعض الأحيان ، فإنه لا يملك إلا الاعتراف بأن هذا هو المنهج العلمى الذى التزمه شيشرون فى مناقشة الموضوع وعرضه ، أقبل فى تأييده ومهاجمته منذ أيام اكسانونان الأيلى فى القرن السادس إلى عصر كراتيبوس الذى عاصر المؤلف (فى القرن الأول قبل الميلاد) . وقد كانت الروح الى تشيع فى بحثه من بدايته إلى نهايته روحاً فلسفية لادينية^(٢) ، وإن كان قد نبه إلى أنه لا يقصد بحملته الإساءة إلى الدين والتقاليد لأنه يحمل لها كل احترام وتقدير .

كوتوس شيشرون :

أما عن أخيه الذى تولى الدفاع — طوال الكتاب الأول — عن فنون التكهن فقد ولد حول العام الثانى بعد المائة قبل ميلاد المسيح ، ولما شب تلقى علمه فى خير ما عرف فى روما واليونان من مدارس ، وقد كلف بالقراءة والدراسة ووقف الكثير من أوقات فراغه على الكتابة ، فنشر أثناء إقامته فى بلاد الغال أربع مأس Tragedies ضاعت كلها ، ويعزى إليه كتاب Commentariolum Petitionis وكان من أتباع الرواقية الرومانية^(٣) ولهذا أجرى شيشرون حججهم على لسانه ، ولكن حياته السياسية قد طغت فيما يلوح على حياته العلمية ، فقد كان فى عام ٦٥ ق . م حاكماً فى روما (Aedile) منوطاً بالمنشآت العامة والألعاب والأسواق والشرطة ونحوها ، ثم كان فى عام ٦٢ حاكماً بلى القنصل فى المرتبة : Praetor ثم تولى حكم آسيا من مارس عام ٦١ إلى إبريل ٥٨ ق . م وكان قائداً : Legatus تحت إمرة بومبي فى سردينيا بعد ذلك بعامين ، وتحت قيادة قيصر فى بلاد الغال عام ٥٤ و ٥٣ وتحت إمرة

(١) الفقرة الثانية والسبعون من الكتاب الثانى .

(٢) ص ٢١٦ من مقدمه علم الغيب .

(٣) ديمارىه ص ١٠ ويضح هذا فى الكثير من نصوص الكتاب نفسه .

أخيه ماركوس (شيشرون) في سيليسيا من يوليه ٥١ لمدة عام ، أما في الحرب الأهلية فقد انضم إلى بومبي أول الأمر ، فلما انهزم بومبي قدم كوتوس خدماته إلى قيصر ، ومات في نفس العام الذي مات فيه أخوه الأكبر شيشرون - وكان موته في ديسمبر عام ٤٣ ق . م عند انتهاء حكومة الثلاثة أكتافيوس وماركوس وأنطونيوس (١) .

منطق البحث :

تناول هذا الكتاب البحث في موضوع شغل بال الناس منذ أقدم العصور ، ولعل أظهر ما في البحث هذا الجدل العقلي الذي يكشف عن سعة علم ودقة ملاحظة ورصانة منطق ، وتبدو هذه المميزات جلية في تأييد التكهن وإنكاره معاً ، حتى ليحار القارئ أي الاتجاهين أدنى إلى الصواب . ! ومن أجل هذا رأينا أن نعرض نموذجاً للجانب المنطقي في هذا البحث عند كوتوس الذي تولى الدفاع عن أساليب التكهن ، وشيشرون الذي تولى إنكاره ودحضه . وتخبرنا المصادقة، التي يردّ إليها منكر والتكهن صدق النبوءات ، لأن عناصر البحث فيها قد ذهبت أشتاتاً في فقرات الكتاب ، وهي من أكبر نواحي الموضوع خطراً ، كانت كذلك في الماضي السحيق ، ولا تزال كذلك حتى يومنا الراهن ، ولهذا رأينا أن نجمع شتاتها ، ونبين عن حجج كليهما في تفنيدها أو تأييدها ، وبذلك تبين مبلغ العمق في منطق كل منهما :

المصادقة عند كوتوس ، صاحب الدفاع عن التكهن : إن العين وحدها أداة الإبصار ، وقد تعجز عن أداء وظيفتها أحياناً ، فلا يكون هذا دليلاً قاطعاً على أنها كفت وفقدت ملكة النظر ، فإن أحسنت رؤية الأشياء ولو مرة واحدة ، ثبتت قدرتها على النظر ، وكذلك الحال في ملكة التكهن ، قد يخطئ صاحبها فلا يشهد هذا بأنه دجال ، ولكنه إن صدق مرة واحدة كان صدقه

(١) اقتبسنا الترجمة عن Falconer ص ٢١٥ من مقدمة علم النيب في طبعة لويب .

شاهد عدل على أنه أوتى ملكة التكهّن بالغيب^(١) . على أنا إذا فرضنا بأن الشيء قد يقع مرة على سبيل المصادفة فانا ندعّن للتسليم بأن وقوعه مئات المرات إنما يكون مصادفة واتفاقاً ، فلاعب الزرد قد يصيب مرة كل بضعة مرات ، ولكنه إذا أصاب مائة مرة في كل مائة رمية لم يكن هذا على سبيل المصادفة أبداً ، وكذلك الحال في التكهّن .

ثم إن الإصابة التي تقع اتفاقاً لا يمكن أن تبلغ من الدقه حدّاً يتصل بتفاصيل النبوءة ، فان من الممكن أن تنتثر الألوان عفواً على قطعة خيش فتألف من انتشارها سهلة صورة وجه ما ، ولكنها لا تستطيع أن تنشئ صورة فنية دقيقة ، وقد انشقت صخرة مرة فظهر من ذلك رأس الإله Pan ولا يمكن أن يكون التشابه الدقيق وليد المصادفة^(٢) .

وإذا كانت نبوءات الكهان لا تصدق أحياناً ، فان ذلك لا يطعن في فن الكهانة ، فما من فن إلا وحده أهله عرضة للكذب . فاذا أخطأ الطبيب في حدسه فان ذلك لا يطعن في فن الطب ، وكذلك يقال في الحدس عند أهل الملاحة والسياسة والزراعة وغيرها من فنون وحرف^(٣) .

وإذا عز علينا إقناعك ، لم يكن هذا دليلاً على فساد رأينا ، فان العقل قد يعجز عن تفسير الظواهر ووردها إلى عللها ، ولكنه مع ذلك يضطر للتسليم بوجودها . فن الخير أن نهتم بنتائج التكهّنات دون أن نجهد أنفسنا في البحث عن عللها وأسبابها ، فان بعض الأعشاب يستخدم في علاج الكثير من أمراضنا رغم أن العقل لم يفسر لنا قوتها وطبيعتها دإني أرى ما لهذه الأشياء من قوة وحسبي ما أرى^(٤) فقد يكون هذا سرّاً من أسرار الطبيعة الخفية ، ولم يشأ الله أن يطلعني على أسبابه ، ولهذا فان أهل التكهّن قد أصابوا حين

(١) الفقرة الثلاثون من الكتاب الأول
(٢) الفقرة الثانية عشرة من الكتاب الأول .
(٣) الفقرة الثالثة عشرة من الكتاب الأول .
(٤) الفقرة السابعة إلى الثانية عشرة من الكتاب الأول .

أقاموا نبوءاتهم على الخوارق التي لا تبدو على اتفاق مع ما ألفناه ، وما ينبغي أن نسخر من عراف ينذر الأمة بالشر لأن البغلة — وهي حيوان عقيم بطبعه — قد ولدت فلوا . . . (١) إن الذين لا يقتنعون بشهادة حسهم ، والتأنيح التي تبدو أمامهم لأنهم يحملون حقيقتها ، ولا يعرفون عللها وأسبابها ، سينكرون لهذا السبب نفسه قوة المغناطيس على جذب الحديد وفعل العقاقير في شفاء الأمراض . وليس مصادفة واتفاقاً أن تلد البغلة وهي حيوان عقيم ، أو أن يفيض نهر أرانوس Aratus دماً وتتصبب تماثيل الآلهة عرفاً ، أو يظهر تاح من الحشيش فجأة على تمثال إله ، أو تختفي النجوم الذهبية من معابد الآلهة فجأة . وإنما هذا كله نذير شر لاعماله ، وللكهان أن يؤولوه باعتبارهم زجراً لنا عما نقبل عليه من مشروعات ، فهم الذين يعرفون كيف يفسرون التغير الذي يطرأ بإرادة الآلهة على أحشاء الضحية عند ذبحها .

حسبنا هذا عن حديث كوتوس عن المصادفة ، ولنعرض إلى مناقشة شيشرون لأدلته :

موقف شيشرون من تأييد المصادفة في مجال التكهن :

يعرض شيشرون لمناقشة المقارنة التي عقدها كوتوس بين ملكة الإبصار وملكة التكهن ، فيقول له إنى لا أعرف وجه التشابه بينهما ، فإن العيون تستخدم في الإبصار حساً منحه الطبيعة للناس ، أما ملكة التكهن فإنها إن أدركت الغيب في مس أو رؤيا جاء إدراكها مصادفة واتفاقاً أجل فإنك إن زعمت أن الكثير من النبوءات يصدق ، وجدت ما لا يصدق أكبر مما يصدق كماً ، وهذا دليل على أنها مسألة حظ واتفاق . وإذا كنت تؤمن بالتكهن لأن نبوءة واحدة قد صدقت — كما تؤمن بقدرة العين على الإبصار لأنها أحسنت رؤية الأشياء ولو مرة واحدة — فإن هذا يتطلب منك التسليم بضروب التكهن الصنعى ، فليس من بينها ضرب واحد إلا وقد

(١) الفقرة السابعة عشرة من الكتاب الأول .

صدقته فيه نبوءة واحدة على أقل تقدير . . فكيف رفضت التسليم بالتكهن
الصنعي إن كان هذا قوام إيمانك . . . (١)

ثم يعرض للمشكلة التي ساقها كوتتوس فيقول له : لماذا يستحيل أن تصيب
رمية النرد مرات متواليات مصادفة واتفاقا . . ؟ ولماذا لا يمكن أن يرجع
التشابه الدقيق إلى محض المصادفات . . ؟ فليس في ظهور رأس الإله بان Pan
من صخرة تنشق أى مثار للدهشة ، فإن الروائع الفنية يسفر عنها نحت الرخام
دون أن يضيف الفنان شيئا غير جهوده الفنية في الصقل والإعداد ، إن الأثر
الفني يكون كامنا في قطعة الرخام ، متخفيا في ثناياها ، فلماذا نستبعد أن تنشق
صخرة فيتكشف انشقاقها عن شبيه برأس الإله بان Pan — على سبيل الاتفاق
والمصادفة . . ؟ ثم ألم تلاحظ السحب وهي تأخذ صورة الأسد حينما والقنطورس
حينما آخر . . ؟ على أن قصه انشقاق الصخر ربما كانت من نسيج الخيال (٢) .

ثم إنك اعتبرت ولادة البغلة نذير سوء لأن هذا شيء نادر لا يتفق مع
المألوف من تجاربنا ، ولكنى أرى أن الظواهر كلها تلتبس عليها في الطبيعة ،
حتى ولو لم تتفق مع خبرتنا في الحياة . ومن واجبنا أن نكتشف العلة في كل
شيء يثير دهشتنا ، فاذا عز الاهتمام إلى معرفة العلة وجب أن نكون على يقين
بأن لها رغم ذلك علة ترر وجودها ، إن مبادئ الفلسفة كفيلة بأن تبعد عن
نفوسنا المخاوف التي تساورها من جراء شيء نادر لم نألف ظهوره من قبل ،
بذلك يهدأ روعك ويسكن اضطرابك من وقوع الزلزال وانشقاق السماء
وسقوط الكواكب وولادة البغلة ونحوها بما تعتبره نذيرا زاجرا . فكن على
يقين يا صاحبي بأن ليس ثمة معلول بغير علة ، ولا شيء يمكن أن يحدث وكان
حدوثه أمرا مستحيلا ، ومتى وقع أمر كان من الممكن أن يقع فإنه لا يعتبر
نذيرا زاجرا ، فليس ثمة شيء اسمه نذير سوء ، وإن كنت تصر على اعتبار
الشيء النادر نذير شر ، فاعتبر ظهور الرجل الحكيم نذير سوء يهدد بالشر

(١) الفقرة الثالثة والخمسون في الكتاب الثاني .
(٢) الفقرة الحادية والعشرون من الكتاب الثاني .

وينذر بالويل المقبل ، لأن ولادة البغلة العقيم أدنى إلى العقل من تكشف الطبيعة عن رجل حكيم . . . ١١ (١)

ولماذا نستبعد المصادفات في صدق نبوءات يقف بعض الناس حياتهم على الاشتغال بها . . . ؟ منذا الذى يسدد المرمى طوال يومه ولا تحالفه المصادفة في إصابته . . . ؟ لا شيء يجرى عفوا على غير وتيرة واحدة كرمية الترد ، ومع ذلك فليس ثمة لاعب يقضى في لعبتها وقته ، إلا ويصيب في بعض الأحيان مرتين أو ثلاث مرات متعاقبات (٢) ويقول له إملك تقول إن نهر أراتوس قد فاض دما ، وتصيبت تماثيل الآلهة عرقا . . . إن الدم والعرق يا صاحبي لا يصدران على وجه التحقيق إلا عن أجسام حية ، وقد يسفر امتزاج الماء ببعض أنواع التراب عن شيء بالغ الشبه في لونه بالدم ، والملاحظ أن الندى الذى يتكون على ظاهر الأشياء يبدو شبيها بالعرق . . . (٣)

وتقول إن تاجا من الحشيش قد ظهر على تمثال ليزاندر Lysander في دلفي ، وكان ظهوره فجائيا . . . فهل تظن إن من الممكن أن يظهر الحشيش بغير بذور . . . ؟ أليس الأحرى أن تقول إن الحشيش قد نبت من بذور حملتها الطيور ولم تغرسها يد بشرية . . . ثم لا ينبغي أن نفسى أن الخيال يصور للمرء كل ما يعلو الرأس في صورة تاج (٤) .

وتقول إن النجوم الذهبية في معبد كاستور Castor وبولوكس Pullux قد اختفت فجأة ولم يعثر عليها أحد . . . أليس الأحرى أن نقول إن هذا عمل لصوص وليس عمل آلهة . . . (٥) ثم كيف تتغير أحشاء الضحية في نفس

(١) الفقرة الثامنة والعشرون من الكتاب الثانى .

(٢) الفقرة التاسعة والخمسون من الكتاب الثانى .

(٣) الفقرة الثانية والأربعون فى الكتاب الأول والسابعة والعشرون فى الثانى .

(٤) و (٥) الفقرتان الثالثة والثلاثون فى الكتاب الأول والثانية والثلاثون فى

الكتاب الثانى .

اللحظة التي تقدم فيها قربانا . . كيف يكون عدم بعد وجود ووجود بعد عدم، فجأة وبغير مقدمات تبرر هذا التغير . أليس الأخرى أن يقال في اختفاء القلب إنه قد تقلص وضمر بعد مرض اعتراه حتى فقد تشابهه بالقلب . . . ؟ إن من المستحيل أن تعيش الضحية بغير قلب، أو أن يختفى القلب فجأة عند ذبحها . . . الخ (١)

حسبنا هذا من مناقشة شيشرون لأدلة كوتوس وأمثله، ولعل منطقة غلاب، ولاسيما في تنفيذ هذه الأمثلة التي استمدها كوتوس مما يجري على ألسنة الناس، أو من الأساطير والكتب الشعبية، وإن كان من الأنصاف أن نقول إن دحض المثال لا ينهض دليلا على بطلان الحججة التي قبل المثال في تأييدها .

على أنا نرى أن لكل حق وجها من الباطل، ولكل باطل وجها من الحق، ومن هنا كانت مهارة المجادل اللبق أن يغلب الجانب الذي يؤيده ولو كان أضعف الجانبين . وكما يقول شيشرون في معرض حديثه عن الحدس في مجال التكهن: إن المدعى قد يستند في دعوى قضائية على استدلال ما، ويستند المحامي في دفاعه إلى استدلال آخر، وربما صدر الاستدلالان عن حقائق واحدة، ومع هذا فقد يتفق أن يصدق الاستدلالان معا . . ولهذا فرما تردد بعض قراء هذا الكتاب في القطع بأي الاتجاهين أدنى إلى الصواب . . .

(١) الفقرة الخامسة عشرة وما بعدها من الكتاب الثاني .

هذا الكتاب ورسالة الدكتوراه :

وقد شرعت في ترجمة هذا النص القديم إعجاباً به وتقديراً لمنهج بحثه ، وكنت في ذلك الحين أقوم بوضع رسالتي للدكتوراه ، وقد كانت دراسة مقارنة في موضوع الأحلام عند مفكرى الإسلام ، ثم لاحظت فجأة أن بين موضوعها وموضوع هذا الكتاب علاقة عموم وخصوص ... ! فخطر لي أن ألحق الترجمة مع التعليق عليها برسالة الدكتوراه (١) .

تاريخ الكتاب وأصوله :

وضع شيشرون هذا الكتاب في مسقط رأسه « توسكولوم » *Tusculum* — تقع على بعد عشرة أميال من روما — وكان الغرض من تأليفه مناقشة التكهن بالغيب في مختلف أساليبه تأييداً وتفنيدياً ، عسى أن يكون في هذا تدعيم لوجهات النظر التي ذهب إليها في كتابه « طبيعة الآلهة » — الذي يحتمل أن يكون قد فرغ منه في أغسطس من عام ٤٥ ق.م — وقد ذهب الأستاذ « ديوران » *René Durand* الى أن كتاب التكهن قد وضع قبل مصرع قيصر ، وإن أدركته بعد ذلك تعديلات واضافات ، ثم روجع ونشر بعد هذا الحدث الجلل الرهيب ، وقد أذعن لهذا الرأي جمهرة مؤرخيه ، ولكن الأستاذ « فالكونر » *Falconer* قد أبى التسليم بهذا الرأي بعد دراسة دقيقة للموضوع ، ورأى أن الجزء الأخير في الكتاب الأول ، وكل ما تضمنه الكتاب الثاني قد وضع بعد ١٥ مارس عام ٤٤ ق م (٢)

وقد أشرنا عند البحث عن مكانة شيشرون في مجال الفكر إلى أنه كان يعرف مواطن الأدلة الناضجة التي يمكن استغلالها في مباحثه ، فيهبط عليها ويأخذ منها ما تروقه ، وأنه قد سلك هذا المسلك في كتابنا الراهن ، فاستعان في تأييد التكهن ومهاجمته بالإغريق ، وإن غذى أفكارهم بمنطقه وتجاربه ، فمن

(١) جازت الرسالة وملحقها امتحان الدكتوراه بمرتبة الصرف الممتازة في مايو ١٩٤٣

(٢) ص ٢١٤ من مقدمة علم الغيب في طبعة لويب .

ذلك أنه اعتمد في الكتاب الأول في تأييد التكهن على كتابات بوسيدونيوس Posidonius الرواقى ، بينما استند في الكتاب الثانى الذى هاجم فيه تلك الأدلة إلى آراء كارنيادس — مؤسس الاكاديمية الجديدة — التى تولى شيشرون زعامتها — والشائع أنه قضى دون أن يترك وراه تعاليم مكتوبة ، ولهذا كان مصدر شيشرون المباشر أحد من تلمذوا على يد كارنيادس ، ولعله كليتوماكوس Clithomachus الذى خلفه فى رئاسة الاكاديمية واضطلع بنشر نظرياته أما مناقشة حجج الكلدانيين كما وردت فى الكتاب الثانى فقد استمدتها من الفيلسوف الرواقى بانياتيوس : Panaetius (١)

والمظنون أن كتاب شيشرون أدق وثيقة حفظت لنا هذه الآراء القديمة التى لا تعرف مكان وجودها .

أهم طبعاته :

وقد أدى إعجاب المفكرين بموضوع الكتاب ، ومنهج بحثه ، ودقة منطقته وغزارة مادته ، إلى الإكثار من ترجمته فى مختلف اللغات ، وأشهر طبعاته الانجليزية :

١ — طبعة لويب Loeb وقد نهض فيها بنقله من اللاتينية W. A. Falconer

٣ — ترجمة C. D. Yonge طبعة 1848 Bohn's Series
وأشهر الطبعات الفرنسية :

١ — طبعة Garnier وقد اضطلع بترجمته فيها شارل أبون Charles Appuhn
وذيها بنيف وثلاثمائة تعليق . . . ١

٢ — طبعة Budé وهى مذيلة بتعليقات قيمة

٣ — ترجمة ديماريه R. Desmarais وقد نشرت فى العام الثالث للجمهورية

٤ — ترجمة M. de la Pilogerie (فى الجزء الرابع من المجموعة الكاملة
لمؤلفات شيشرون) .

وخير الطبعات الألمانية :

Ralph Kühner, Berlin, Langenscheidt.

(١) س ٢١٧ من مقدمة علم التيب فى طبعة لويب .

كلمة في ترجمته :

من وازن بين ترجمات هذا الكتاب في مختلف اللغات ، أدرك وعمورة هذا النص ومشقة فهمه ونقله معا ، وقد توخيت أن أنقله عن طبعة لوبب الانجليزية ، أدق الطباعات فيما يقول الطيب الذكر الأستاذ وادل Waddell الرئيس السابق لقسم الدراسات القديمة بكلية الآداب واستعنت بطبعة جأرنيه Garnier الفرنسية وأفدت كثيرا من مئات التعليقات التي ذيلت بها ، ورجعت في كثير من الحالات إلى الأصل اللاتيني مستعينا في ذلك بزميل الدكتور محمد سليم سالم لإخصائي الدراسات القديمة بكلية الآداب .

ومقارنة ترجمات هذا النص تؤكد أنها لا تخلو من وجود التفاوت الناعم ..! ومردّ هذا إلى أسباب أظهرها أن النصوص تحتمل معاني تتفاوت بتفاوت العقول وقدرتها على الفهم والتعبير معا ، وإذا كان شراح الشاعر الواحد يختلفون في فهمه وهم من أهل عصره ولغته وبيئته ، فأحر بالترجمين أن يتفاوتوا في فهم هذه النصوص القديمة والكشف عن نوايا أصحابها ..!

وقد حرصت على أن أستعين في الاطمئنان على دقة الترجمة بصديقي وزميلي بكلية الآداب الأستاذ علي أحمد عيسى الذي أبدى من الرغبة الصادقة في التعاون العلمي ، وقدم من الملاحظات الطيبة ما يستحق كل تقدير ، كما ألتجاني غموض بعض الفقرات الى الاستعانة بصديقي الدكتور رجب عبد السلام المدرس بكلية الطب بالقاهرة ، وأضفت عند الطبع الملاحظات القيمة التي أثارها أثناء مناقشة الرسالة أستاذنا الجليل د شفيق غربال . فلحضراتهم جميعا أجمل آيات الشكر والتقدير .

وقد تضمن الكتاب بضع صفحات شعرا ، وكان لنا موقف إزاء هذا الشعر يحسن أن أبين عنه :

لم يكن « شيشرون » شاعرا مطبوعا ، وقد نقل خير أشعاره عن الممتازين من الشعراء من أمثال هوميروس وديموستينيس ، ولكنه كان يحسن السبك ويجيد الصياغة مع مقدرة فائقة في سرعة النظم ، وكان يضيق كلما أحس

باستخفاف الناس بشعره ، ويطمع في أن يكون شعره من عوامل خلوده ،
ومن أجل هذا راح - في أواخر حياته - يفحم الكثير من أشعاره في
كتبه ، وبغير مناسبة أحيانا . ويعترف بذلك معذراً عنه . وفي كتابنا
هذا ما يشهد بذلك ، فقد عرضنا - بين قوسين - بضع نماذج من هذه
الأشعار مترجماً أو ملخصاً ليعذرنا القارئ في إهمال بعضها الآخر ، وهي
- لحسن الحظ - لا تتجاوز في نصها الأصلي بضع صفحات .

وقد كان الكتاب في أصله اللاتيني وترجمته التي عثرنا عليها ، خلوا من
العنوانات التي تدل على ميادين البحث التي تناولها ، وإن كان ديماريه قد حاول
هذا فأساء فيما فعل ، وقد حاولنا نحن أن نسد هذا النقص .

أما في تعريب الأسماء ، وما أكثرها في هذا الكتاب ، فقد حاولت على
قدر الاستطاعة أن ألزم في تعريبها القرارات التي وضعها بشأنها مجمع فؤاد
للغة العربية - كما نشرت في مجلته (١) وأبقيت الأسماء المألوفة في اللسان العربي
وفيها اسم المؤلف على ما هي عليه ، واستعنت في ذلك بزميل الأستاذ الدكتور
إبراهيم نصحي أستاذ التاريخ القديم المساعد بجامعة فؤاد .
وأخيراً :

فإن التمكن بالغييب المحجب مثار اقتتان الناس في كل زمان ومكان ،
ومردّ الرغبة فيه الى طبيعة البشر النزاعة بفطرتها إلى معرفة المجهول ، أما عن
موقفنا إزاءه ، وبيان وجه الحق أو الباطل في فئونه ، فقد أبتنا عنه في كتابنا
الذي عاجلنا فيه هذا الموضوع نفسه عند مفكرى الإسلام (٢) وخير ما نختتم
به تمهيدنا لهذا الجهد ، أن نعترف بأن العمل الكامل لم يتمهياً لأحد من البشر
بعد ، وحسب الإنسان أن يكلف نفسه وسعها ، والعصمة له أولاً وآخراً .

توفيق الطويل

الإسكندرية في
أول ١٣٦٥ هـ
أكتوبر ١٩٤٦ م

(١) ج ٤ ص ١٨ - ٢١ عام ١٣٧

(٢) التنبؤ بالغييب عند مفكرى الاسلام ص ١٥٧ - ١٧٠ طبعه أول

تقدمة

لأستاذ الجليل محمد صفيح غربال بك

المستشار الفني لوزارة المعارف

عرض الدكتور توفيق الطويل لدراسة موضوع « الأحلام » وما يتصل بها من ظواهر ، وكانت الرسالة الشهيرة التي وضعها شيشرون في موضوع الاستدلال على المحجبات ، من المراجع الأساسية التي رجع إليها أثناء دراسته ، وقد أدرك الدكتور الطويل أن ذلك الأثر الأدبي الفلسفي بقي بمحاجات الباحثين في تاريخ ذلك الموضوع كل الوفاء ، إذ يعرض فيه شيشرون آراء الأقدمين من المفكرين ، وما انتقل إلى عصره من تجارب الأمم وقصصها على أسنة الشعراء والرواة حول الطوالع والدلائل ، ومبلغ الاعتماد عليها والوثوق بها . ولما تبين الدكتور الطويل هذه المزايا ، آثر أن ينقل الرسالة للغة العربية عن نصها اللاتيني وترجماته ، وقدمها سنداً من أسانيد رسالته الأصلية لدرجة الدكتوراه في الآداب في جامعة فؤاد الأول . وها هو اليوم ينشر بين قراء العربية أثراً أدبياً فلسفياً من آثار الرجل الذي سبك النثر اللاتيني والأساليب اللاتينية سبكا لازمهما منذ أيامه حتى يومنا الراهن ، وكان أول من استطاع أن يتخذ من ذلك النثر أداة للتعبير عن أدق الأفكار وأشد المعاني غموضاً .

ولما كنت أثناء مناقشة الدكتور الطويل في رسالته للدكتوراه ، قد خصصت عنايتي بما نقله عن شيشرون ، فقد طلب إلى أن أتولى تقديم ترجمته لهذه الرسالة بمقدمة تاريخية ، أتناول فيها مؤلفها « شيشرون » . ويسرني أن أقرر في استهلالها أن هذه أول رسالة في الفلسفة القديمة نقلت للغة العربية عن اللاتينية ، وأنها تسجل للجامعيين المصريين عدم تهيب استخدام المراجع الأصلية ، وأن حاملي الإجازات العالية الجامعية لا يقتصرون على المراجع الثانوية ونحوها ، كما تسجل لهم أيضاً الانهماك في البحث العلمي المجرد عما

يشوبه ، فاذا ما رجعوا لليونان والرومان ، لم يكن ذلك الرجوع لاصطناع حجج وأدوات يتراشق بها المتراشقون في المجادلات الدينية والسياسية ، بل يرجعون لها طلباً للحقيقة الصافية .

و «توفيق الطويل» في الطليعة من هؤلاء الجامعيين ، فبعد أن تتلمذ لشيوخ الجامعة الأجلاء في قسمي الفلسفة واللغة العربية ، تولى تدريس الفلسفة في جامعة فؤاد ثم في جامعة فاروق الأول بالإسكندرية ، حيث اتصلت عناصر الحكمة المشرقية بالمذاهب اليونانية ، وتألف منها المذهب الإسكندراني الذائع الصيت ، ومن يدري ؟ فلعل مدرستنا الحديثة بالإسكندرية تجدد ما اندرس وتصل ما انقطع ، وتقديما قال هوراس: *Series Juncturaque Pollet* (إن الاستمرار والاتصال هما اللذان يهمان) .

إن صح هذا القول ، ففضل شيشرون في تاريخ الفكر الأوروبي عظيم ، إذ كان لتدوينه مسائل الفلسفة القديمة وعرضها عرضاً أدبياً رائعاً ، الفضل الأكبر في تعريفها لمواطنيه أولاً ، ثم لرجال العصور الوسطى في أوروبا الغربية ، ثم لمن أتى بعدهم من أهل الفكر . ولم يكن شيشرون فيلسوفاً بالمعنى المصطلح عليه ، ولم يتخذ لنفسه مدرسة ولا تلاميذ ، فهو رجل قانون ورجل سياسة ، حصل على يد مؤدبيه وبنفسه كل ما استطاع أن يحصل من آداب قومه وآداب اليونان ، ليعد نفسه للاشتغال بالسياسة في روما حيث تتطلب أنظمة المدينة القضائية والسياسية من السياسيين أن يكونوا خطباء فصحاء ، ومن أصحاب المناصب سعة الاطلاع والإحاطة بشئون الدولة وعلاقاتها بغيرها من الدول ، ومن صفوة المواطنين أن يتجملوا بصفات الحر المثقف المهذب أو — في كلمة واحدة — صفات الرجل المتحضر ، ابن المدينة بمعناها القديم الصحيح . وكان شيشرون بطبعه رجلاً ألوفاً ودوداً ، يشرك إخوانه في أفراحه وأتراحه ، في تأملاته النفسية ، وفي تعليقاته على حوادث أيامه ، وها هي رسائله لأخصائه

وغيرهم تبلغ المثات عدأ ، وتصور لنا الرجل في نزعة الاجتماعية وفي شتى حالات النفس وتقلبات الأيام أصدق تصوير ، وقد رفعت تلك الرسائل شيشرون إلى أسمى مكان بين أصحاب ذلك الفن في الآداب الأوربية - فن الرسائل . وآثار شيشرون في الشيخوخة أو في الصداقة أو في الواجب أو في طبيعة الألهة أو في الاستدلال على المحجبات أو في غير ذلك ، تلك الآثار التي كتبها في الساعات التي اختلسها من مهام حياته العامة ، أو في الفترات التي شاء القدر أو أراد خصومه أن يقصوه فيها عن تلك الحياة ، كانت نوعا آخر من أنواع الاتصال الفكرى بين شيشرون وصفوة قومه ، فلا ينطبق عليه ما ينطبق على العلماء ومن إليهم من أصحاب المذاهب ، في نشر مؤلفاتهم في أيامنا مثلا .

وكان من حظ شيشرون وحظ العالم أن حفظت الأيام ما خلف ، وجعلت من آثاره العنصر الأساسى في تكوين الثقافة الكلاسيكية التي غذت العقل الأوروبى حتى العصر الحديث . ويخطئ خصوم الدراسات الكلاسيكية عند ما يحكمون عليها بأنها « كلام في كلام » أو عند ما يصفون شيشرون بالثرثرة المملة . حقا لقد استتقل ظله بعض الشيء مثل الروح الفرنسى خاله الذكر « موتنانى » في إحدى مقالاته . وعاب طريقته في الاسترسال الكاتب الإنجليزى الساخر « لينون ستراشى » ، في معرض كلامه مع المترسل الإنجليزى الشهير « ما كولاى » ، قائلا إن شيشرون وما كولاى كلاهما لا يرحم القارىء ، فلا بد له من أن يسمع كل شيء وإن كان يعرفه آتم معرفة . ولكن ما ذنب شيشرون أن وعت الأجيال المتعاقبة من التلاميذ الأورويين رسائله وخطبه حفظاً ، وأن قتلوا أجمل عباراته تحليلا وإعرابا وتصريفا ، أو مستخوها ترجمة للغاتهم الوطنية ، أو حاكوها في مناظراتهم ومساجلاتهم تحت نظر مؤدبين طويلي الأيدى مرهنى الحس سريعى الغضب ؟ وما ذنبه أيضا أن كانت كتبه مادة لا تنضب لشواهد النحويين ، أو كانت خطبه نماذج للمتحدثين والمتفهمين

من رجال الكنيسة أو المحاماة ؟ ولكننا نعرف - إلى جانب هؤلاء - مقلدين لشيثرون من طراز آخر ، فعندما دوى صوت الحرية في أوروبا في آخر القرن الثامن عشر ، وأذنت شمس الجمهورية الفرنسية بالإشراق ، ذكر أنصارها والمبشرون بها بطل الجمهورية الرومانية في دور احتضارها ، فها هو ميرابو يهاجم البلاد في خطبة احتذى فيها خطبة شيثرون الثانية ضد كاتيلين ، وها هو رويسبير يفند مزاعم لوفيه بأسلوب شيثرون ، وجملة القول أن الثقافة الكلاسيكية - بما فيها آثار شيثرون - مكنت العقل الأوروبي من عدم الاقتصار على الآداب الدينية ، وأكسب تفاعل العنصرين الكلاسيكي والديني وتأثير كل منهما في الآخر ، ذلك العقل غذاء روحيا قويا وإن شئنا أن نبحت عن ظاهرة تشبه هذه في تاريخ الحضارات غير الأوربية ، فانا لا نجد لها في الواقع إلا في حضارة الصين .

ويجد القارىء في آثار شيثرون الأدبية - وبخاصة في رسائله - صورة رائعة للحياة في روما في أواخر أيام الجمهورية ، ولا يصعب على من يعنى بدرسها استخراج العوامل في فساد أنظمة المدينة ، وفي تهيئة أسباب التحول إلى الأمبراطورية ، وهي بعد المرجع الأساسى لدراسة موقف شيثرون بإزاء أحداث ذلك العصر العصيب .

وقد لقي شيثرون - الرجل السياسى - من مؤرخى تلك الحقبة العنت الكثير ، لقي ذلك العنت أولا لأن المؤرخين (ولنقل الحق) لا يحبون الرجال الفاشلين ، وثانيا لأنهم استهوتهم بطولة قيصر وجرأة مساعيه وعظم همته ، وازدراؤه تزمت الدستوريين والقانونيين ، وقطعه العقد بحد السيف بدلا من حلها ، ثم استهواهم بعد قيصر مكر خليفته الحدث أجسطوس وسعة حيلته وبرود طبعه ، وثالثا لأنهم يرون موت الجمهورية أمرا محتوما ، فرتبوا حوادث الرواية الترتيب الذى ينتهى بها نحو الخاتمة التى بدأ بها تفكيرهم

وانتهى إليها عرضهم . ويتصدر هؤلاء المؤرخين الألماني الكبير « مسمن » . ولا عجب في ذلك ، فقد كتب مسمن في عصر بسمارك ، عصر الدم والحديد ، مما دفع أحد المؤرخين الإنجليز إلى القول القامى : « لو سجل التاريخ لشيثرون إعداد مذبحه عامة لخصومه السياسيين ، لفاز بإعجاب المدرسة الألمانية التاريخية » . ومهما يكن فان شيثرون قدم لخصومه وأنصاره من دارسى التاريخ ، المادة التى استخدمها الخصوم فى تعداد مثالبه والغض من شأنه ، واستعان بها الأنصار فى التماس الأعذار له وإثارة العطف عليه فى محتته ومحتة الجمهورية . وخير من متابعة أولئك وهؤلاء ، أن يستصحب طالب المتعة العقلية العليا ، الرسائل نفسها ، وأن يسترشد فى استصحابه لها بالصفحات الإنسانية الرشيقة التى كرسها « بواسيه » ، لشيثرون وأصدقائه . وهى وما إليها من مؤلفات « بواسيه » من مفاخر المدرسة التاريخية الفرنسية .

كانت الأزمة التى تعانىها روما فى عصر شيثرون ، أزمة قديمة مستعصية متعددة النواحي . ومنشؤها فى الواقع أن روما — إحدى مدائن شبه جزيرة إيطاليا — قد بسطت حكمها على غيرها من تلك الدائرة ، ثم قهرت قرطاجنة قهراً تاماً ، وفتحت لسلطانها ولنفوذها حوض البحر المتوسط الشرقى وحوضه الغربى ، واتخذ السلطان الرومانى طرق الاستغلال والنهب والغصب ، وكانت المشكلة فى جوهرها مشكلة تحوير أنظمة المدينة تحويراً يجمع بين صيانة حقوق أصحاب الولايات الرومانية ، وبقى أهلها جشع العمال والمالين الرومان ، وبين المحافظة على الحقوق والحريات الرومانية ، ولا سبيل إلى الزعم بأن ذلك التحوير كان أمراً مستحيلاً ، فقديما أثبت الرومان قدرتهم عليه ، فبقت أنظمة المدينة تحت عصف النزاع العنيف بين ذوى الأنساب والأخلاق من أهلها ، ولم تتداع تحت الضغط الهائلى الكبير ، واجتازت المدينة أزمات الحروب الإيطالية والحرب الاجتماعية بسلام ، وأظهر قادتتها فى كل هذه المواقف حنكة ولبقاقة واعتدالاً وحسن تقدير جديرين بكل إعجاب ، إلا

أن أطماع الرجال وفساد الحالة الاقتصادية بالنسبة للفقراء من الأحرار ، وازدياد قوة رجال المال ، وتدفق العبيد بعد الفتوح الخارجية ، وتحول الجندية من كونها الواجب الأول للمواطن ، إلى حرفة تحمكر ولاء الجندى ورعايته ، ويجد فيها العيشة الكاملة ، وتصرفه عن واجبات المواطن ، كل هذه العوامل عقدت الأزيمة تعقيدا شديدا ، ولكننا - في الواقع - لم نتل حقا من عناية السياسيين في آخر عهد الجمهورية ، فلم تنفصل واضحة في برامج الزعماء أو الأحزاب ، بل انقسم الزعماء ما بين مؤيدين لخيار الناس أو سراهم Optimates ، ومشايخين للعامة populares فكان هذا تضليلا وسترا للكفاح الحقيقي بينهم : حول اغتصاب الحكم .

وقد أخلص شيشرون لمكرة الجمهورية كل الإخلاص ، وآلمه أن القدر قدر له أن يعيش في وسط هذه العواصف ، وتتمنى لو عاش في أيام المجد ، مجد الجمهورية عندما اجتازت عواصف الحروب الفييقية ، عندما وصف زائر يوناني السناتور الروماني « بأنه مجلس ملوك » .

ولم يقبل شيشرون القول بأن الأنظمة التي كانت أداة روما في اكتساب هذا المجد ، قد أفلست ، فجاهد للاحتفاظ بها وخر صريعا على يد أعدائه وأعدائها .

ثبت شيشرون على مبدئه ثباتا تاما ، ولكنه كان رجلا سياسيا ، مرت عليه ما تقضى به الضرورات الوقتية من مواقف المداراة أحيانا ، أو اصطناع خدام نافعين للجمهورية من ذوى الأطماع ، كما مرت عليه فترات مما يمر على كل الرجال من فتور العزيمة أو الوهن أو الممل أو خطأ التقدير أو سوء إدراك للموقف ، أو الاندفاع أو الاغترار بأن ما قدمه للجمهورية شفيح دائم يقيه مكائد الأعداء أو أذى أتباعهم بين الدهماء ، فلا بدع أن تردد أحيانا أو ضعف جانبه أحيانا أخرى فتملق القوة ، ولا بدع أن تملكته الخيلاء أحيانا ، ولا بدع أن طوحت به الفصاحة وذلاقة اللسان وسيولة

القلم أحيانا إلى مهاوى الفشل - وأخيرا - إلى الهلاك .
نشأ شيشرون في مدينة إيطالية صغيرة (أرينوم) ، ولم يكن من ذوى
الأنساب ، بل شق طريقة نحو - القنصلية - أعلى مناصب الدولة (وكلها
انتخابية) بفضل واهبه عامة ، وقدرته الخطابية الرائعة خاصة ، فكان أبدا
- على حد التعبير اللاتيني - من الرجال الجدد أو المحدثين - وقدر له أن
ينقذ الدستور والمجتمع الروماني عندما أفسد على « كاتيلين » وجماعته مادبروه
من دسيئة لقلب الدستور والقيام بحركة نهب عامة ، وكانت خطته لسكى يحتفظ
بالدستور الجمهورى أن يخلق له سياجا من تحالف الأرستقراطية المحتضنة في
السناتو ، وطائفة الفرسان الرومان أصحاب المال ، إلا أن الأرستقراطية لم
تنس أبدا أنه لم يكن منها ، فلم تسلم له قيادها ، ولم يستطع هو أن يجتذب
لإنقاذ الجمهورية قائدا من قواد الجند ، يضع تحت قدميها مخلصا يجد اسمه
وولاء جنوده ، على الرغم مما علل به النفس أحيانا نحو « بومبيوس » ، أو نحو
قيصر أو نحو أجسطوس ، فكان القدر أقوى منه .

إلا أنه على الرغم من هذا ، كان شيشرون أول رجل وصل إلى أكبر
مناصب الدولة الحرة ، دون أن يكون رجل نسب أو صاحب سيف أو منشىء
دعوة ، فهو أول أولئك السياسيين من أصحاب العقول والمواهب الكتابية
والخطابية الذين ازدانت بهم الحياة السياسية الأوروبية ، وعرفهم التاريخ
قادة ورؤساء ووزراء ، فلئن كان شيشرون قد خر في الكفاح ضد القيصرية ،
فقد أسس أسرة من قادة الأمم أبقى على الدهر من القياصرة ، ولئن فاته
إنقاذ الجمهورية الرومانية ، فقد كان من بناء جمهورية الفكر الإنساني .

وليست جمهورية الفكر إلا جانبا من فكرة وحدة العالم ، التي تصورها
شيشرون فيما كتبه في موضوعات الفلسفة السياسية ، وقد أقامها على أساس ارتباط
بنى الإنسان جميعا برابطة العمل ، وتخيل لها قانونا يعولوا القرازين الوضعية ، إذ
هو لا يرتبط بزمان ما ، أو بمكان ما ، أو بشعب بعينه .

وشيشرون واحدمن أربعة رجال أفاضوا القول في تلك الوحدة الكبرى :
والثلاثة الآخرون هم سنكا وإيكتوتوس وماركوس أوريليوس . أما هو فقد
عاش في عصر تم فيه الجزء الأكبر من اتساع السلطان الروماني حول البحر
المتوسط ، فكان كأن روحا قد حققت فعلا للمجتمع اليوناني (بمعناه الشامل)
دولته العامة ، وكان كأن روما قد رسمت صورة يتعكس فيها لون من الوحدة
الكبرى المثالية ، وهي صورة بشرية معينة لما هو إلهي كامل ، ولكنها قابلة للكامل ،
قابلة لأن تتأثر أنظمتها القانونية وأوضاعها القضائية بالقانون الأسمى ،
بالقانون الطبيعي . وأما سنكا وماركوس أوريليوس . فسكان من نصيهما تولى
الحكم (وكان ثانيهما امبراطورا) واستمد كلاهما من فكرة الوحدة الكبرى
الثورة والمدد لتحمل أعباء الحياة العامة ونكباتها القاسية ، وكان من جرائها
- كما نعلم - أن فقد سنكا حياته وماركوس سعادته . أما الثالث
- إيكتوتوس - العبد الأعرج ، فيمثل إيمانه بالوحدة ، قوة الفكرة التي
دعا إليها امبراطور ورجلان في طليعة الحكام .

وبعد فإن تلك الدعوة تفيد الابتعاد عن فلسفة المدينة اليونانية ، عن
أفلاطون وأرسطو . ولقد أعجب شيشرون بأفلاطون اعجابا كبيرا ، بل
اعتبر نفسه متمذبا بمذهب الأكاديمية الجديدة ، بل وحاكي في كتبه أسماء
الكتب التي خلفها أفلاطون ، ولكن الواقع أن الفلسفة اليونانية التي
استقبلتها روما في العصر السابق لعصر شيشرون مباشرة ، كانت شيئا آخر
غير فلسفة أفلاطون أو أرسطو ، بل تلبذ الرومان للرواقيين وللأبيقوريين .
ولا عجب في ذلك فإن المدينة - بيئة الأفلاطونية أو الأرسطاطالية
الطبيعية - قد اكتسحتها الفتوح الاسكندرية . وقامت الملكيات المطلقة
عند ما تجزأت دولة الأسكندر ، وبدأ عصر امتزاج الشعوب والثقافات ،
فكان من المعقول أن تدخل الفلسفة اليونانية في طور آخر أكثر ملاءمة
لظروف المجتمع اليوناني الجديدة ، وهنا ينبغي علينا أن نلاحظ أمرا جديرا
بالاعتبار ، هو داه أن شيشرون في عمله السيامي بقي محافظا رومانيا قليل

التأثر بالنزعات الجديدة ، على عكس قيصر وأنطونيوس وأجسطوس ، فالأول — فيما يذهب إليه بعض من ترجموا له — كان يرمى إلى إقامة نوع جديد من أنظمة الحكم ، يجمع بين عناصر مستمدة من أنظمة الملكيات الشرقية اليونانية (وبخاصة المصرية البطليموسية) ومن أنظمة الجمهورية الرومانية . أما الآخرون فقد رمى أكتافيوس فيما يقال إلى تحقيق العناصر الشرقية من الهدف القيصري ، بينما رمى أجسطوس إلى تحقيق العناصر الرومانية من ذلك الهدف ، وقدر له أن ينال ما رمى إليه ، فحول الجمهورية الرومانية إلى « الإمارة الرومانية » (principatus) . أما شيشرون فقد بقي — فيما يتعلق بالعمل السياسي وبالفكرة السياسية الإيجابية — داخل إطار الجمهورية والمدنية كما قدمنا — وعالج أمر الأسانير والأنظمة من حيث تقسيمها وبيان عيوب ومزايا كل نوع من أنواعها ، طبقاً للأساليب اليونانية القديمة .

ولم يكتب شيشرون في موضوع الفلسفة السياسية فحسب ، بل عالج موضوعات الأخلاق والمنطق والإلهيات في رسائل شتى ، ويحق لنا أن نتعجب من أن رجلاً سياسياً كشيرون ، مارس المحاماة وولى أخطر شئون الدولة في أوقات عصيبة ، استطاع أن يجد الفراغ اللازم لهذه المؤلفات العديدة ، والظاهر أن بعض أخصائه قد سبقونا إلى هذا التعجب ، وقد رد على أحدهم بقوله : « لا تعجب فهذه الكتب لا تكلفني عناء كبيراً ، لأن قلبي سيال » .

وقد وثب منتقصوه لهذا القول ، وعدوه اعترافاً منه « بالسطحية » التي لا تكلف المرء مشقة ، والواقع أن شيشرون لم يرم إلى التجديد أو الابتكار (وقد قال : بواسييه إنه لم ينتحل لنفسه أبداً صفة الابتكار ، وأن هذا ربما كان الفضل الوحيد الذي لم يدعه شيشرون لنفسه) . بل كان همه أن ينقل لقومه بلغتهم وما يناسب تفكيرهم ، آراء الفلاسفة ومذاهبهم وما يقال لها أو عليها ، وهو إذ يفعل ذلك ، لا يحاول أن يبنى مذهباً كاملاً متماسك الأجزاء ، بل يقترب من هذا المذهب أو ذاك تبعاً لمزاجه الروماني الأصيل ، ولأنهما كما

التام في مواجهة شئون الحياة العملية . وهذه مباحثه في الأخلاق تدور في دائرة الفضائل الأربع الأصلية المشهورة ، وتحس أثناء قراءتها أن الكاتب ينتمى لرجال الحكم ، وأنه يتحدث لرجال الحكم ، لأصحاب المناصب ، لرؤساء الجند ، لذوى اليسار ، وبالجملة « لكل من له نصيب في المملكة » كما يقول الإنجليز . وإن شقنا أن نسمع صوتا آخر ، وقولا آخر ، يخرج من الأعماق ويصل للأعماق ، فلا بد لنا من أن نتقل من روما إلى فلسطين وأن ننظر زماناً آخر وهاتفا غير شيشرون ، ومستمعين من الفقراء والمحرومين ، وعندئذ نسمع صوت السيد المسيح يتحدث من أعلى الجبل إلى « الجموع الكثيرة التي تبعته من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن » .

* * *

ولما عالج شيشرون موضوع الاستدلال على المحجبات في الرسالة التي بين يدي القارىء ، نظر إليه أيضا نظرة الصفوة الحاكمة ، حقيقة إنه يعطى الموضوع حقه فيقرر حجج المؤمنين بإمكان الاستدلال ، وحجج غير المصدقين لها ، ويورد الآثار الأدبية والتاريخية إيراداً حسناً . ولكنك تحس في ثنايا القراءة أنك يازاء روماني أصيل ، يرى أن آباءه وأجداده كانوا من المؤمنين بتحكم القوى الخفية ، وأنهم كانوا لا يقدمون على عمل خاص أو عام إلا بعد استطلاع المغيب ، وأن الدولة اتخذت من هذا نظاما من أنظمتها ، وأقامت هيئة المستخبرين وجعلت لاستخاراتهم سلطانا على مداولات مجالسها وغزواتها وانتخاباتها .

وقصارى القول أن شيشرون كان رجلا إنسانيا في صفته وقوته ، وخير ما نختتم به هذه الكلمة أن نفتبس ما قاله عنه مؤرخ « إنسانى » ، هو الإيطالى فيرو :

« كان شيشرون أحد القلائل الذين لم تستهوه شهوة الحكم أو المال ، وإن كان من يحبون ثناء الناس عليهم ، ويكاد يكون بين رجال السياسة في عصره

الوحيد الخيف في التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، قد لم يمنع ذلك التمييز من الإتيان ببعض السفاسف ، ولكن منعه بلا ريب عن ارتكاب الجرائم ، كما كان الوحيد في القيام بشئون السياسة طبقا لمنهج صدر عن روية وفكر ، ورغبة صادقة في الجمع بين تقاليد الآباء وفتون اليونان ، وعمل دائم لينشر بين مواطنيه روح الإنصاف واللين ، . وليقيم الأمر على دعائم من مثل ما انطوت عليه جوانحه من الرحمة والمودة . ،

الكتاب الأول

ويتضمن أدلة كوتتوس **Quintus**

في تأييد التكهن بالغيب

قصر الاعتقاد في التنبؤ

١ -- انجدر إلينا منذ عصر الأساطير اعتقاد قديم، مكن له اتفاق الرومان على التسليم به، وإيمان سائر الشعوب بأمره، ذلك هو الاعتقاد الذي يقرر نوعاً من التكهن بالغيب بين بنى البشر، وهو الذي يسميه الإغريق سبق النظر -- في مجال الغيب -- ومعرفة ما يخفيه المستقبل من أحداث. ولو أن هذه الملكة قد تهيأت لبنى الإنسان، لدرت عليهم خيراً، وكانت أمراً جلالاً، لأنها تخضع على الناس قدرة تدنيهم من قدرة الآلهة دنواً ملحوظاً؛ وكما أننا معاشر الرومان قد تفوقنا على الإغريق في كثير من الأعمال، فإنا قد تفوقنا عليهم في وضع اسم لهذه الهبة التي تجاوزت كل حد مألوف، واشتقنا الاسم من معنى الآلهة divi بينما اشتق الإغريق اسمها -- فيما يقول أفلاطون -- من الجينة أو المس furor (١).

وإني لأعلم أن ليس بين الأمم -- المهذب والمتعلم منها، أو الهمجي والجاهل فيها -- من لا يرى بأن هناك شواهد تنبئ عن حوادث المستقبل، وأن بين الناس من يستطيع معرفة هذه الشواهد والتنبؤ بالحوادث قبل وقوعها.

تنبؤ التنبؤ في العالم القديم :

فاذا التمسنا شاهداً -- على ما أسلفنا -- في الماضي السحيق، وجدناه في الآشوريين، فقد مكنتهم سعة السهول التي أقاموا في رحابها، ومنظر السموات التي تمتد مكشوفة على مدى البصر في كل صوب، من أن يلاحظوا

(١) يشير المؤلف إلى فقرة في محاوره فيدروس Phaedrus لأفلاطون، وفيها يدافع سقراط عن حالة المس أو الجينة أو الجذب، وهذه حال يتكشف عنها أو يمكن أن يتكشف عنها وحتى الآلهة، ويقت المؤلف نظرنا -- بهذه المناسبة -- إلى أن القدماء لم يعتبروا الجينة شيئاً قبيحاً، ولم يطلقوا اللفظ الذي يشير إليها على معنى سيء، من حيث إن الكلمة تطلق على فن التكهن -- خير الفنون جميعاً -- (جارنييه) .

مسالك الكواكب ، وأن يرقبوا حركاتها ، فسجلوا ما أدته إليهم مشاهداتهم ، وورثوا الأجيال التي أعقبتهم ، ما تحمله حركات الكواكب من دلالات على حظوظ الناس .

ومن أبناء هذا الشعب نفسه عرف الكلدانيون : Chaldaei ، وهو اسم لم يشتقوه من حرقهم ، وإنما استعاروه من جنسهم^(١) ، والمظنون أنهم واصلوا ملاحظة المجموعة النجمية زمانا طويلا ، واستغلوا هذه المشاهدات في إقامة علم يمكنهم من التنبؤ بحظوظ الناس ، ومعرفة المصير الذي قدر لهم . والمعتمد أن المصريين قد اكتسبوا بدورهم هذا الفن نفسه عن أجدادهم ، خلال ماضٍ سحيق يمتد إلى أجيال لا يكاد يحصيها العد .

ثم أن الكيليكين والبيسديين وجيرانهم البامفليين^(٢) — وهم سكان بلاد توليت حكمها فيما سلف — يعتقدون أن المستقبل تكشف عنه أغاريد الطيور وتحليقها في الجو ، ويشقون في هذه الشواهد ثقة لا يتطرق إليها الشك أبدا .

وفي الحق أية هجرة قام بها الإغريق إلى ايتوليا ، أو إيونيا أو آسيا أو صقلية أو إيطاليا ، قبل أن يستشيروا الكاهنة « بيثيا » أو يتلقوا الوحي من « دودونا » ، أو « جوبتر أمون » ؟^(٣) أو أية حرب خاض الإغريق غمارها قبل أن يلتمسوا نصيحة الآلهة أولا ؟

(١) أشار مترجم Loeb إلى أن Chaldaei اللاتينية كانت تستعمل في عصر شيفرون للدلالة على النجمين — وقد كانوا الطبقة الحاكمة بين البابليين — ولهذا اضطر شيفرون إلى أن ينص على أن اسم الكلدانيين مشتق من اسم الجنس الذي انحدروا منه ، ولكن Desmarais يقول في تعليقه على ترجمته لفقرة إنه اشتق من اسم الاقليم الذي نشأوا فيه : Chaldée لا من اسم حرقهم — التنجيم .

(٢) سكان ثلاثة أقاليم في آسيا (ديباريه) .

(٣) إن وحي دلفي ودودونا وآمون أشهر أنواع الوحي عند القدماء ، وقد تسمع الناس جميعا بوحي بيثيا وشجرة دودونا المنبتة ، وبالتمثال المقام الآن لآمون — رع في واحات سيوه ، وتقوم بين هذا الوحي الأخير ووحى دودونا علاقة — فيما تقول الأساطير التي يرويها هرودوت (ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥) ، ولا يخلو من المتزى تقص الطيور في أعلى المعابد =

أساليب الرومان في التنبؤ بالغيب (صنعية وطبيعية) :

٢ - وليس ضرباً واحداً من التكهّن بالغيب هو الذى استخدمه الناس فى شئونهم العامة والخاصة ، وإذا نحن أغفلنا الحديث عن غيرنا من الشعوب ، فكم نرى من أساليب استخدمناها نحن معاشر الرومان : فنحن نعلم - قبل كل شئ - أن روميلوس : Romulus مؤسس هذه المدينة - روما - لم يفتشها - فيما هو متواتر - استجابة لقال (عرفه من مراقبة طير سانح) فحسب (١) بل لقد كان روميلوس نفسه من الممتازين من أهل العياقة (٢). وقد

== فى مصر العليا عند قدماء المصريين ، ونلتهى هيرودوت - بالحق أو بالباطل - الى القول بأن هذه النقوش تمكن من ارجاع فن التكهّن اليونانى الى أصل مصرى ، ولكن هناك علماء يردون عبارة آمون الى أصل أغريقى (ونحن نعلم أن مستعمرات يونانية كانت تقوم فى لوبيا) ومع اقتراض أنهم على حق فى ذلك ، فانه يلوح لنا أن عبادة الإله المصرى قد استبدلت بعد ذلك بعبارة زيوس أو اختلطت بها (جارنييه) .

(١ و ٢) يراد باللفظ *auspices* هنا القال الذى يؤخذ من مراقبة طير يطير ، وقد كان العرب اذا هموا بأمر طيروا طائراً ، فان طار يمنة سموه سانحاً وأقبلوا على تحقيق أمرهم ، وان طار يسرة سموه بارحاً وعدلوا عن مشروعهم (انظر فن العياقة فى كتابنا : التنبؤ بالغيب عند مفكرى العرب) ، أما اللفظ : *augur* فقد استخدمه الرومان للدلالة على الراجم بالغيب عند جماعة اشتهرت فى روما القديمة بالكشف عن الغيب بملاحظة الطيور فى طيرانها أو تفريدها وصياحها ، وقد كان العرب يسمون هذا الضرب من التكهّن بقن العياقة ويطلق فى حال التفاؤل والنشأؤم معاً (التهانوى ص ٩٠٧) . وقد قرر *Servius* فى التقريب بين اللفظين *auguria* و *auspicia* أن الأول كان يستخدم أول الأمر عندما يجىء المشاهد (الطائر) عفواً دون مشاهدة متعمدة ، أما اللفظ الثانى فانه كان يستخدم فيما تجرى فيه المشاهدة عمداً . ولكن : *C.H.Appuhn* - فى تعليقاته فى طبعة جارنييه - يقول ان الحديث قد استخدم أخيراً للدلالة على معنى واحد فى كل الحالات - وقد أخذنا بهنا الرأى فى ترجمة الكتاب - ولكن *H.J Rose* فى المقدمة التى كتبها لقال التكهّن بالغيب فى دائرة معارف الدين والأخلاق . *Ency. of Religion & Ethics* (لاشرها : *Hastings*) يقول إن لفظ *Haruspicy* لا يستخدم للطيور الحية وحدها ، بل فى استنباء المذبوحة والميتة منها كذلك ومعنى هذا أنها تشمل بعض ما نسميه بالنظر فى أحشاء الضحايا ، ويشير ديمايه فى ترجمته الفرنسية لسكتات شيفرون الى أن الكلمة اللاتينية *haruspices* و *haruspices* تتألف من كلمة قديمة بمعنى ضحية ومن الفعل *spicio* بمعنى يتفحص أو يفحص وبذلك يكون معنى الكلمة الأصلية التى وردت فى النص : متفحص أو باحث فى الضحايا ، والمراد فيما يقول ==

استخدم غيره من ملوك الرومان هؤلاء العيافين . وبعد طرد الملوك كانت الشئون العامة كذلك — ما اتصل منها بداخل البلاد أو خارجها — لا تتم قبل استشارة هذا الفأل السالف الذكر .

وفوق هذا فان أسلافنا منذ أن اعتقدوا بأن فن العرافة^(١) عظيم النفع في الكشف عن الفأل والطيرة ومعرفة المشورة (التي توحى بها الآلهة) ، ومنذ أن تبينوا أثره البالغ في معرفة الدلالة التي تحملها الخوارق ، وتفادى ما تنذر به من شر ، قد استعاروا بالتدريج هذا الفن بخدافيره من أهل أتروريا ، مخافة أن يبدوا أنهم كانوا يستخفون بأى ضرب من ضروب التكهن بالغيب . وقد ظن أجدادنا بأن العقل البشرى عند ما يكون في حالة يخيب فيها

— مترجم لويب : فخص أحشاء الحيوانات — وقد كانت هذه إحدى طرق التكهن عند القدماء ، ولكن المترجم الإنجليزي قد ترجم اللفظ الى : Soothsayings' art. أى فن العرافة ولعل الترجمة — اذا قورنت بمعنى الكلمة في هذا الكتاب كانت أعم من الأصل ، لأن العرافة تشمل التكهن الصنعي بمختلف صورته ، ولا تقتصر على فخص الأحشاء أو ملاحظة الطيور . والتي يتبع هذه اللفظة في كتاب شيسرون يرى من الملائم قصرها على الطيور ، كذلك الحال في لفظ auguria وبذلك يمكن تقريب معناها في الترجمة العربية ، وهذا ما فعلناه عند نقلهما الى العربية في كتابنا ، وبذلك نكون قد أخذنا برأى مترجم جارنييه السالف الذكر ، وذلك لا يفتى القول بأن الكلمة قد أطلقت على معان أوسع من هذا بكثير ، فشملت — فيما تقول دائرة المعارف البريطانية (مادة Augur) شواهد السماء من رعد وبرق ونجوم ساقطة ونحو ذلك ، وشواهد الطيور في غنائها وصياحها وجهة طيرانها وتساقط الحبوب من أفواه الطيور وهي تطعم وشواهد الحيوانات بمراقبة مسير ذوات الأربع والزواحف وملاحظة أصواتها في مكان بيئته ، والنذر الزاجرة من سرير الفأر أو ضجيج يحذثه سقوط عصا في معبد يسوده السكون ونحو ذلك من ظواهر غير مألوفة . وتشمل كذلك نبوءات وحى أبولو وخص أحشاء الحيوانات وغير هذا مما نصت عليه دائرة المعارف البريطانية ، ولكن الكلمة كانت تطلق في كتابنا على استنباه الطيور ، ولم ترد بمعنى استنباه البرق الا مرة واحدة ، وهذا هو الذى جعلنا نترجمها بفن العيافة الذى كان العرب يقصرونه على استنباه الطيور بمراقبة تغريدها وصياحها وتحليقها في الجو .

(١) أشار مترجم لويب في هامش له إلى أن : Haruspex — وقد ترجمتها بفن العيافة كما أشرت في الهامش السابق — تعنى التنبؤ بالنظر في فخص الأحشاء ، مع أن سياق الحديث في نص يجعل المعنى أعم من هذه الاشارة .

الوعى ، ويخمد فيها الفكر ، ويتحرك بدوافع من ذاته حرة لا يعوقها عائق (إرادى) ، فان هذا العقل يصبح مهبطاً للألهام باحدى طريقتين : اللجنة أو الرؤيا . وقد ظنوا بأن التكهين الذى يكون فى الحال الأولى قد تضمنته على وجه الخصوص أشعار سيبايل Sibyle^(١) . لهذا كله سنوا تشريعاً يقضى بأن يختار عشرة من رجال الدولة^(٢) ليتولوا تأويل هذه الأشعار .

ويدخل فى هذا الباب تأويل ما وقع لعرافين ورائين فى حالات مسهم من نبوءات — كثيراً ما كان أسلافنا يعتبرونها موضع ثقة وتقدير ، من أمثلة هذا نبوءات كورنيليوس كويليوس Cornelius Culleolus التى ظهرت إبان الحرب الأكتافية^(٣) ، وليس هذا فحسب ، بل إن مجلسنا الأعلى لم يهمل من الأحلام ما بدا على اتصال بادارة الشؤون العامة، ومن ذلك — فيما يحضرنى — أن لوكيوس يوليوس L. Julius الذى كان قنصلاً مع بوبليوس روتليوس P. Rutilius قد جدد بناء معبد المخلصمة جونو^(٤) بقرار من مجلس الشيوخ

(١) هى كما تقول الأساطير القديمة إحدى النساء الثلاثى أوتين القدرة على التنبوء بالغيب ، ويقول ديياربه فى تمليقاته أن شيشرون عندما يعرض لذكرها يقصد على الدوام سيبايل أريتريا — وهذه مدينة فى أبونيا الصغرى — وربما فهمنا من الهامش خطأ هذا الرأى .

(٢) إن التاريخ الأسطورى لكاتب سبيل التى اشتراها : Tarquin L'Ancien من عجوز شطاء ، لا يخفى على أحد ، والمعروف أنه بعد إحراق الكابيتول الذى كانت هذه الكتب محفوظة به ، قد جددت مجموعة منه عن طريق الاتصال بالكاهنات الشهيرات — ولا سيما كاهنه أريتريا ، وقد كان مؤولو كتب هذه الكاهنة أول الأمر اثنين ليس إلا ، وكان الامامة قد استبعدوا من مختلف الوظائف الدينية حتى سنة ٣٦٤ ق . م . فبدأوا يقومون بتأويل كتب سبيل ، وفى هذا العام أنشئت كلية من عشرة أعضاء منهم خمسة من العامة ، وخمسة من الخاصة ، ثم ارتفع عدد الأعضاء فى عهدسلا Sulla إلى خمسة عشر عضواً (جارتنيه) .

(٣) وقعت هذه الحرب عام ٨٨ ق . م بين أكتافيوس من ناحية وماريو وسلا من ناحية أخرى (لويب) .

(٤) هى كبرى بنات ساتيرن Saturne وريا Rhéa وهى أخت جويتير وزوجته ولدت فى أجروس أو فى جزيرة ساموس ، انظر شرح أسطورتها فى Dezobry et Bachelet ، وهى تعادل Hera اليونانية التى تعتبر حارسة الزواج وحامية المرأة من مهدها إلى لحدها — أما تجديد بناء المعبد ، فقد كان — فيما يشير مترجم لويب — سنة ١٠٥ ق . م . عندما كانت شيشرون فى الأولى من عمره .

صدر استجابة لرؤيا وقعت لابنة بلايريكوس Balaericus^(١) وهي كيكيليا
• Caecilia

موقف الفلاسفة من التكهن :

٣ — والرأى عندى أن القدماء كانوا أكثر تأثراً بالنتائج العملية منهم
بالاقتناع المنطقي^(٢) بيد أن الفلاسفة قد قدموا أدلة [لبقه] دقيقة على صدق
التنبؤ بالغيب ، وكان أكسانوفان Xenophanes — من أهل كولوفون —
(وهو أعرقهم في القدم في هذا المجال) ، الوحيد الذى أنكر — مع تسليمه
بوجود الآلهة — التكهن بمخالفته^(٣) .

أما سائر الفلاسفة — مع استثناء أبيقور Epicurus الذى كان يثرثر في
حديثه عن طبيعة الآلهة — فقد سلوا بالتكهن بالغيب ، وإن تفاوت تسليمهم
قوة وضعفاً ، وأنا لنذكر على سبيل المثال سقراط Socrates وأتباعه^(٤) ،

(١) كان كايكليوس متلوس بلايريكوس متصلًا عام ١٢٣ ق . م . (لويب) .

(٢) كان شيشرون يستصوب حرفة الكهانة ولا سيما فن العيافة ، لأسباب سياسية ،
لأنه كان يثق في قيمتها التنبؤية (قارن الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الثانى من هذا
الكتاب في نسخته العربية — (لويب) .

(٣) نجد شاهداً يتفق مع هذا في : De placitis philosophorum V, I. مؤلفه
بلوتارك ، وقد كان أكسانوفان خصيم مذهب الشرك ومؤسس المدرسة الأيلية ينكر التكهن
بالغيب ، ونجد شاهداً آخر على هذا في ديوجانس اللايرتي : Diogène Laerce, X, 135.
(جارثيه) .

(٤) كان سقراط فيلسوفاً عميق الشعور الدينى ، وكان كثيراً ما يعتقد بأنه يعمل أو يتكلم
تحت تأثير إلهام إلهى ، وكان على يقين من أن لها خيراً يعين الناس حين يكونوا في شك من
أمر المستقبل ، لأنهم لا يستطيعون إذا استعانوا بقولهم وحدها أن يعرفوا على وجه الدقة
الاتجاه أو التصرف الذى يحسن التزامه ، انه يؤنب الذين يعملون بغير ما تنذر به الآلهة ،
ويحض أصدقائه على استشارة الوحي ، ولا سيما وحي ، دلفى ومن هذا نرى أنه كان يتشبع
للتكهن ، أو يرى بتعبير أدق ، أن من واجب المرء أن يستشير الآلهة في الحالات الجدية
الخطيرة ، أما في الأمور التى يستطيع المرء أن يحكم عليها حكماً مسبباً قائماً على العمل التى
تبرره ، فان سقراط يرى أن استشارة الوحي في مثل هذه الحالات أمر يخالف العقل .

== ونلاحظ أن أنتستانس (زعيم المدرسة الكليية) وأرسطوبوس (زعيم المدرسة (الفورنيائية) وإقليدس (زعيم المدرسة الميغارية) لا يعتقدون عقائد أستاذهم (سقراط) الدينية ، ولا يرون رأيه في الايمان بالتكهن بالنيب ، وقد كانت المدارس التي أنشأوها لا دينية ، فأما الكليون فنلاحظ أن ديوجانس الكليي يميز موقفه في وضوح ، فيقول إنه يرى معبري الأحلام ، والكهان الذين وصل بعضهم الى المجد والثراء ، ويرى السذج الذين ينصتون اليهم ، فيضيق بهم جميعا ، ويعتقد أن الانسان أجهل مخلوق في الوجود (Diog. Cyrénaïques) . هذا عن الكليين Les Cyniques أما الفورنيائيون Les الأعظم عندهم هو اللذة ، ولهذا فانهم لا يستطيعون الا أن يكونوا قساة في حكمهم على قاق النفس التي تتلصق السعادة عن طريق التكهن بالنيب .

أما عن الميغاريين Les Mégariques فان لدينا شاهداً كافياً في معرفة رأيهم في الآلهة ، فان كراتيس Cratis يستفسر من ستليون Stilpon تلميذ اقليدس عما اذا كانت الصلوات وطقوس العبادة مقبولة عند الآلهة ، فيجيب ستليون قائلاً : لا تسألني على مسمع من الناس عن مثل هذه الأشياء ، ولكن وجه الى سؤالك عندما نكون على انفراد (Diog. Laerce 11,11,117) ويختلف عن هذا كل الاختلاف موقف أفلاطون ، فانه وحده الذي تصدق فيه كلمة شيدرون عن السقراطيين ، اذ يرى (فيما نرى في محاوره فيدروس) أن فن التكهن أجمل الفنون جميعها ، وكثيرة هي الفقرات التي تقرر معتقدات أفلاطون في التكهن بالنيب ، ومن الممكن اعتبار هذه المعتقدات مقابلة للحكمة عند غير الفلاسفة ، وهذا هو السر في أنه لا يتعرض لها مشرع عاقل ، وقد كان من رأيه أن القوانين الجميلة المقررة لا ينبغي الإقدام على تغييرها ، فان كان من الضرورى إجراء تغيير فيها ، وجب ألا يقدم المشرع على هذا إلا بعد أن يستشير جميع الحكام وكافة أفراد الشعب ، وكل أنواع الوحي ، حتى اذا وافقوا على التغيير جميعاً جاز الإقدام عليه . (النواميس في الكتاب السادس ص ٢٧٢ ج د) .

وقد ظفر التكهن بالنيب بمكان مرموق في الدولة ، وقد عرض لبيان هذا أفلاطون في النواميس والجمهورية والمائدة وطيموس التي يعرض فيها نظرية التكهن عن طريق الإلهام الإلهي مستخدماً لغة الصوفية في اشتراط هدوء النفس التام ، وتعطل الفكر بالنوم وحقله بالمرض أو بحالة الجذب التي تعترى الانسان .

أما عن أرسطو فان بلوتارك يقول ان أرسطو يعتبر التكهن الذي يقوم على مشاهدة الشواهد الظاهرة وفن العيافة وملاحظة الطيور ، كلها غير خليقة باهتمام الفلاسفة . ان فلسفة ارسطو نستبعد بوجه عام كل ما فوق الطبيعة ، وان كان يرى أن من الممكن أن نصل بشأن المستقبل الى تخمينات ، وأن نبني آمالا ، ومن هنا كان في الإمكان قيام علم للأمل الممكن ، وهو يريد أن يستبدل بالتكهن نوعاً من التنبؤ الملل الذي يقوم على أسباب ويستند الى الاستقراء وحساب الاحتمالات ، اما عن التنبؤ في الأحلام فقد وضع عنه بحثاً قال فيه إنه لا يسهل علينا احتقار هذا النوع من التنبؤ ولا الاعتقاد في صحته (جارييه وانظر تفصيل رأيه في كتابنا الأحلام)

وزينو Zeno وأشياعه^(١) ، فقد واصلوا الاعتقاد في رأى الفلاسفة القدامى ،
واتفقوا في الرأى مع الأكاديمية القديمة والمشائين معاً ، [وسلفهم] فيثاغورس
Pythagoras^(٢) الذى كان يميل إلى أن يعرف بين الناس بأنه من أهل
العيافة ، قد خلع اسمه العظيم على هذه الحرقه من قبل . وأكـد [المؤلف]
« ديموقريطس » Democritus في أكثر من موضع ، عقيدته في المهجس بأمور
تقع فيما بعد^(٣) أما ديكار كوس Dicaearchus^(٤) أحد المشائين ، فانه رغم
تسليمه بالتنبؤ بالغيب عن طريق الأحلام والمس ، قد رفض التسليم بسائر
أنواع التكهن الأخرى ، وقد حذا حذوه في ذلك صديقى [الحميم] كراتيبوس
Cratippus^(٥) الذى أضعه مع أعظم المشائين في صف واحد ، فأعلن ثقته

(١) من الغريب أن يذكر شيفرون هنا [زينو وأشياعه] ثم يعود بعد قليل إلى
الحديث عن الرواقية . ولا يلوح من خلال الحديث أنه يقصد هنا زينو الأيلى (جارنييه) .
(٢) يقول بلوتارك (Plac Philos V, 1) إنه سلم بكل أساليب التكهن ، إلا ما يشترط
فيه أولاً أن يكون تضحية ذبيحة ، وتجد نفس هذا الشاهد في ديوجانس اللايرتى وسويداس :
Suidas وجامبليك : Jamblique (جارنييه) .

(٣) إن موقف ديمقرطيس ، إزاء التكهن يدل على إصرافه في الاهتمام بالصفة الآلية
(الميكانيكية) في مذهبه ، فليس نعمة شئ إلا الجوهر الفرد والحلاء ، وكل ما هو موجود ،
وكل ما يقع ، ينبغى أن يفسر باتصال الجواهر الفردة ، وهذه الذرات لا تخضع لغير القوانين
الآلية ، وقد كان يرى وجود كائنات أعلى من الإنسان وأوفر منه حظاً في القدرة ، وأطول
مه أجلاً ، تتألف من جواهر فردة ، إلا أنها جواهر لطيفة جداً ، تتحرك في الفضاء بسرعة
خارقة ، كانت تسمى في بعض الأحيان بالجن ، سواء أكانت خيرة أم شريرة ، وكانت تلقى
صوراً تراها أعين الناس ، وأصواتاً تصل إلى آذانهم ، وبهذا يمكن تكشف المستقبل .
وإذا كانت حواسنا إبان النوم منصرفه عن إدراك الأشياء المحيطة بها ، فإن الأحلام
تحمل أنباء المستقبل ، وفي بعض الحالات يمكن لبعض الناس الذين يترهبهم الجذب أن تتنبأ لهم
رؤى أو أصوات تقدر عن كائنات أكمل منها تكويناً ، وإن كانت هذه الصور التى تبعث بها
الجن ، قد يشوهها تقلب الهواء وسقوط الأوراق مما يجعل النبوءات في فصل الخريف كثيرة
الأخطاء ١٠٠ (جارنييه) .

(٤) كان من مسينا ، وقد سلم فيما يقول بلوتارك بآراء أستاذه (أرسطو) نفسها —
ديمقريطيه وجمارنييه) .

(٥) كان يعلم ابن شيفرون الفلسفة في أثينا ، وقد كتب بحثاً عن « التنبؤ بالغيب » ووضع
بحثاً آخر عن تأويل الأحلام . ورأيه الذى اتفق فيه مع ديكار كوس يتفق مع رأى جمهرة
مفكرى الاسلام (انظر كتابنا : التنبؤ بالغيب)

بهذين الضربين من التكهن ، ثم رفض التسليم بما عداهما .
أما الرواقيون فقد تولوا الدفاع عن كافة ضروب التكهن بالغيب على
وجه التقريب ، وذلك أن « زينو » قد وضع بكتاباتهِ نواة تعهدِها « كليانتس »
Cleanthes بعض الشيء ، ثم ظهر بعده « كريسيبوس » Chrysippus (١)
- وهو رجل يمتاز بالعقل النفاذ - فبحث نظرية التكهن بأكلها بحثاً وافياً
في كتابين من كتبه ، ووضع كتاباً تناول فيه النبوءات - التي يتلقاها الكهنة
عن الآلهة - وخصص كتاباً لدراسة الأحلام ، واقتدى به تلميذه ديوجانس
Diogenes البابلي فنشر عن التكهن كتاباً ، كما نشر « أنتباتر » Antipater
كتابين آخرين ، ووضع صديقي « بوسيدونيوس » Posidonius خمسة
كتب - وقفا على دراسة هذا الموضوع - أما أستاذه « بانياتيوس »
Panaetius (٢) - وهو تلميذ « أنتباتر » وأحد أقطاب المدرسة الرواقية -
فقد انسلخ عن مدرسته ، وهو وإن لم يجرؤ على التصريح بأنكار التكهن
[إنكاراً قاطعاً] ، إلا أنه استطاع أن يعلن الشك الذي يساوره في أمره ،
وما دام الرواقيون قد أذنوا - [وأنا أسلم بأنهم] أذنوا مكرهين - لهذا
الرواق [الذائع الصيت] بأن يعلن شكه في رأى لهم ، فهلا بمنحونا نحن
أتباع الأكاديمية - الجديدة - حق الشك في سائر آرائهم ، ولا سيما وأن هذا
الرأى الذى بدا أمام « بانياتيوس » غامضاً ، كان عند أعضاء المدرسة الرواقية
أسطع من وضوح النهار . . ؟ ومهما يكن من شيء فقد أقر فيلسوف عمتاز
- هو بانياتيوس - بهذا الحكم الخطير ، نزوع الأكاديمية المحمود نحو الشك (٣) .

(١) تولى كليانتس « زعامة المدرسة الرواقية » بعد زينو ، وأعقبه الثانى فى رياستها (ديماريه)
(٢) رواقى طائر الصيت ولد فى رودس وكان مؤدب سيبو الأفريقى فى يقول ديماربه
ويقول شيمرون فى الأكاديمية إنه طرح أو شك فى التعاليم التى يعتقها غيره من الرواقية .
(٣) يقول ديماربه إن « بانياتيوس » هو المقصود بهذه الإشارة ، ولكن شيمرون
يقول أنه كارنيادس إذ كان فى القرن الثانى قبل الميلاد أكبر ممثل لروح النقد ، وأعظم خصم
لنظرية الرواقية ، وكانت الأكاديمية الجديدة التى ينسب إليها شيمرون ترى فيه أستاذاً
الأول ، وهو لم يكتب شيئاً ، ولكن شيمرون حينما يذكره يعتمد على تلميذه ،
كليتوماك : Clitomaque (جارنييه) .

شروء شيسرون في التسليم بالتكهن :

٤ — ولهذا ، وبما أني أريد بدوري أن أعرف الحكم الصحيح الذي يجب أن ينصب على التنبؤ بالغيب ، لأن كارنيادس Carneades أدلى بكثير من الحجج الشاملة القاطعة في طعنه في رأى الرواقية ، وبما أني أخشى أن أتسرع في التسليم بقضية قد يتضح بطلانها أو عدم كفاية أدلتها ، فأني اعتزمت أن أثار ملتزماً الدقة في مقارنة ما يقال في موضوع التكهن من أدلة ، على نحو ما فعلت في كتيبي الثلاثة التي وضعتها عن « طبيعة الآلهة » ، لأن التسرع في التسليم برأى خاطئ ، أمر شائن على كل حال ، ولا سيما إذا كان [مثل] هذا التسرع في بحث يراد به تقدير ما للقال والطيرة والطقوس المقدسة والشعائر الدينية من خطر ، فإن الاستخفاف بها مجازفة بارتكاب جريمة في حق الآلهة ، كما أن الإذعان لها مساهمة في التسليم بخرافة يهذى بها المسنات من النساء

بدر المناقشة بين شيسرون وأهميه في موضوع التكهن :

٥ — وقد عالجت هذا الموضوع في عدة مناسبات ، ولكني بذلت في معالجته اهتماماً يربى على المؤلف منذ عهد قريب ، وعندما كنت مع أخى كوتتوس Quintus في بيتنا بمدينة توسكولوم Tusculan وقد مضينا بغية التجول الى اللوكيون Lyceum^(١) وهو اسم أطلقته على منتزهى العلوى ، فقال « كوتتوس » :

« فرغت الآن من قراءة دقيقة للكتاب الثالث من بحثك الذى وضعته

(١) يطلق ديماريه على هذا الاسم قائلاً ان شيسرون — فيما يلوح — كان له في مدينة توسكولوم منتزهان مختلفان : أحدهما خصصه لتزهات الصباح وكان عاليًا مكشوفًا ، وقد أطلق عليه اسم اللوكيون ، والآخر لتزهات بعد الظهر وكان أقل من الأول ارتفاعًا ، وقد غرس فيه الأشجار وأطلق عليه اسم الأكاديمية . وعلقت « لويب » على الاسم فقالت أن شيسرون كان له مكانان : أحدهما لرياضته في المدينة السالفة الذكر ، وقد اشتق اسم منتزهه الأول من المكان الذى كان أفلاطون يعلم فيه — قارن شيسرون : Tusc 11. 3. ولا يكاد تعلقي جارنييه يخرج عن هذا — .

عن طبيعة الآلهة ، وضمته مناقشة « كوتا » ، Cotta ، وهي وإن زلزلت آرائي في
في الدين ، فإنها لم تقو على تحطيمها جميعاً ،^(١)

فقلت « حسناً جداً ، فإن الأدلة التي وضعها « كوتا » قد قصد بها قبل
كل شيء أن يدحض حجج الرواقين ، لأن يهدم عقيدة المرء في دينه ،
فقال « كوتوس » ، « إن « كوتا » نفسه يقول ذلك ويكرره مراراً ، حتى
لا يظهر — فيما أظن — بمظهر المتمرد على قواعد العقيدة الدينية المتفق عليها
بين الناس ، ومع ذلك فإنه يلوح لي — وهو في حملته التي أثارها لدحض
الرواقية — قد أنكر وجود الآلهة إنكاراً باتاً ، وفي الحق أني لأشعر رغم
ذلك بالعجز عن تنفيذ أدلته ، لأن « لوكيليوس » ، Lucilius قد قام في الكتاب
الثاني بدفاع شامل عن الدين ، وكانت الأدلة التي قدمها — فيما تقرر أنت
نفسك في نهاية الكتاب الثالث — أدنى إلى الحق — فيما بدا لك من الحجج
التي استند إليها « كوتا » بيد أن هناك مسألة أهملت الحديث عنها في هذه
الكتب السالفة الذكر^(٢) إذ آثرت من غير شك أن تتناولها في بحث مستقل ،
وأعنى بهذه المسألة التكهن بالغيب ، وهو سبق النظر والتنبؤ بالحوادث التي
يعتبر وقوعها محض مصادفة ، فمما الآن نبحت — إن شئت — في تأثيرها ،
وتبين طبيعتها .

أما عن رأيي فأني أعتقد أن مختلف ضروب التكهن التي انحدرت إلينا

(١) « جايوس أورليوس كوتا » كان فنصلاً في عام ٧٥ ق . م . وكان خطيباً
مفوهاً ، وقد صوره المؤلف في كتاب « طبيعة الآلهة » مع « لوكيليوس باليوس » في
محاورة . بل فيها الأول رأى الأكاديميين ، ودافع فيها الثاني عن وجهة النظر الرواقية ،
هنا ما ورد في تمايق لويب ، ويضيف جارنييه إلى هذا أن كوتا لا ينكر وجود الآلهة ،
بل إنه على العكس يقرر جهاراً اتصالهم بالاعتقادات الشعبية ، ويقول إن الرواقية لم يستطيعوا
أن يضعوا بحق نظرية في الآلهة والعناية الآلهية .

(٢) تافس المؤلف هذه المسألة في إيجاز في الفقرة الثالثة من الجزء الثاني من
« طبيعة الآلهة » .

عن أجدادنا السالفين ، والتي نمارسها الآن ، إن كانت صادقة ، فإن هذا دليل
يشهد بوجود الآلهة ، وعلى العكس من ذلك ، إن قام الدليل على وجود آلهة ،
كان هذا حجة تهض على وجود أفراد أوتوا القدرة على التكهن بالغييب .
٦ - فقلت له : « إنك تدافع عن صميم الرأي الذي يعتنقه الرواقيون ،
عند ما تزعم بأن هاتين القضيتين تعتمد إحداهما على الأخرى اعتماداً متبادلاً (١)
« إذا صح إمكان التكهن بالغييب ، استقام وجود الآلهة ، وإذا استقام وجود
الآلهة ، صح إمكان التكهن بالغييب (٢) ، ولكن التسليم بكلتا القضيتين ليس
ميسوراً بهذه السهولة التي تتصورها ، لأن من الممكن أن تعلن الطبيعة شواهد
تنبئ عن أحداث المستقبل الخفي ، دون أن يتدخل في هذا إله ما ، (٣) وقد
يستقيم وجود الآلهة دون أن يلزم من هذا أن تمنح الآلهة الناس قدرة
يتمكنون بها من معرفة الغيب المحجب ،

فعلق « كوتتوس » على هذا قائلاً : « أياً ما كان الأمر فإنني أجد الدليل
على وجود الآلهة ، وعنايتهم بالشئون الإنسانية ، قائماً في اقتناعي بوجود
ضروب من التكهن بالغييب ، متميزة واضحة لا يشوبها غموض .
وسأعرض آرائي في هذا الموضوع - إن أذنت بهذا وكان لديك فراغ
في الوقت ، ولم تجد ما تؤثره على مثل هذه المناقشة .

فقلت له : « حقاً - يا عزيزي « كوتتوس » - إن وقتي يتسع على الدوام
لدراسة الفلسفة ، (وفضلاً عن هذا) فإنني لأجد الآن عملاً آخر أستطيع أن

(١) كان كوتتوس أخو شيمرون من أتباع الرواقية فيما يقول « ديماريه » بل فيما يظهر
من حديث شيمرون في كثير من فقرات الكتاب الثاني
(٢) قارن الفقرة السادسة في كتاب « طبيعة الآلهة » للمؤلف (لويب) .
(٣) يظهر أنه يشير هنا إلى التنبؤ القائم على علل تبرر الاهتمام إلى نتائجه ، وهو الذي
يريد بعض فلاسفة اليونان - كآرسطو وديمقريطس - أن يحلوه مكان التنبؤ فوق الطبيعي
(جارتنييه) وقد رفض جمهوره مفكرى الإسلام هذا الاتجاه ، أنظر كتابنا في « التنبؤ
بالغييب عند مفكرى الإسلام » .

أجد في أدائه لذة (١) . وهذا يزيدني شوقاً إلى معرفة رأيك في موضوع التكمين بالغيب .

فقال لي : « إنى أوكد لك أن ليس فيما أرى جديداً أو مبتكراً طريفاً ، لأن هذه الآراء التي أعتنقها اليوم ، ليست عريضة في القدم لحسب ، بل لقد صادفت رضا الناس عامة والشعوب كافة .

إن التكمين بالغيب ضربان : يعتمد أولهما على الصناعة ، ويستند ثانيهما إلى الطبيعة .

فلنذكر أصناف الضرب الذي يكاد يعتمد على الصناعة اعتماداً كلياً : أى شعب أو أية دولة تلك التي تستخف بنبوءات الكهان أو مؤوتلى الخوارق والبرق أو أهل العياقة أو التنجيم ، أو أصحاب الوحي ، أو — إذا تحدثنا عن الصنفين اللذين يعبران عن الطرق الطبيعية للتكمين بالغيب — فأى الأمم تستخف بنذر الأحلام ، ونبوءات من يعترهم المس . ؟

ضرورة الاقتناع بالتنبؤ رغم غموضه أسبابه :

وأظن أنه ينبغي عند البحث في طرق التكمين بالغيب ، أن نهتم بنتائجها لا أن نعنى بأسبابها ، فإن هناك قوة طبيعية خاصة تكشف المحجب من أنبياء المستقبل ، تارة بملاحظة شواهدنا السابقة بملاحظة طويلة متصلة ، وأخرى إبان المس والإلهام الألهي .

٧ — ليمسك « كاريادس » عن الحاجة في سؤاله الذي رده كذلك « باناثيوس » حين تسأل : « أمر « جوبتر » نوعاً من الغربان أن ينطق بمنة وآخر أن ينطق يسرة . . ؟ كلا ، ولكن هذه الشواهد قد لوحظت زماناً آمديداً ، وتحققت نتائجها ، ورصدها أهلها ، وليس ثمة شئ لا يستطيع طول الأمد

(١) يشير شيفرون في هذه الفقرة إلى أحوال السياسة الرومانية المحزنة ، وإبعاده من مجالس الدولة وسائر الوظائف الرئيسية في الحكومة — أنظر ترجمته في مقدمتنا لترجمة العربية .

إتيانه ، إذا وافته الذاكره التي تعي ، والبصيفة التي تحفظ (١)
قد يساورنا العجب لأنواع الأعشاب التي لاحظ الأطباء أنها تنفع، والجذور
التي تشفى من عضات الوحوش الضارية وأمراض العيون وإصابات الجروح،
ورغم أن العقل لم يفسر لنا سر قوتها وطبيعتها، فإن نفعها قد أدى بالناس
إلى استخدامها في شئون العلاج، وتمجيد من اهتدى إلى اكتشافها (٢)
والآن ، هيا فلنعرض أمثلة تشبه موضوع التكهن شها قوياً، وإن
اعتبرت خارج نطاقه (٣)

(كثيرا ما ينذر البحر بهبوب العواصف « عند ما تأخذ مياهه في الارتفاع
فجأة ، وعند ما تحاول الصخور الشهباء المغطاة بالجليد والملح ، أن تجيب البحر
معلنة نبوءاتها في أنغام مزعجة ، وعند ما يهب الريح مدوياً من قمم الجبال
الشاهقة ، ويشدد صفيره كلما اصطدم بالصخور المحيطة بالبحر) .

٨ — إن كتابك . «النذر» (٤) حافل بمثل هذه الزواجر المنبئة ، ولكن
من الذى يستطيع أن يسبر غور أسبابها ، ومع هذا فإن « بويتوس » Boethus
الرواقى (٤) قد حاول أن يهتدى إلى ذلك ، وقد وفق إلى حد أنه شرح ظواهر
البحر والسماء ، ولكن منذ الذى يستطيع أن يكشف لنا عن السبب الذى
يكفى فى بيان السر فى وقوع الظواهر التالية :

(١) فى سياق الكلام شىء من الاضطراب ، ويظهر هذا فى النسخة اللاتينية وغيرها
من نسخ الإنجليزية وفرنسية .

(٢) كان الإغريق يتبشرون خيراً إذا صاحت الطيور أو غردت عن يمين من يشاهدها ،
ويتشاءمون إذا كانت عن يساره . أما اللاتين فكانوا على عكس ذلك (جارتنيه) وانظر
الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الثانى وكذلك آخر الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب
نفسه . ثم ما قلناه فى فن العيافة فى كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الأسلام » .

(٣) الأبيات التالية ، والتي سترد فى الفقرتين الثامنة والتاسعة مقتبسة من ترجمة
شيشرون لـ : Deiosemeia of Aratus (لوب) .

(٤) ترجم « شيشرون » هذا الكتاب شعراً عن « أراتوس » Aratus من اليونانية
إلى اللاتينية (ديماريه) .

تردد طيور البحر الزرقاء بجناجرها المرتعدة نذرهما أثناء فرارها من خليجان المحيط المصطخبة، وهي في تنافر وهياج، مهددة في ارتعاضها معلنة بأن الزوابع توشك أن تثور حاملة في طياتها الأهوال، وعند ما تحول آلهة الفجر الصقيع إلى ندى، كثيرا ما يرسل الليل من صدره نذر الشر، ويتوعد ويجأر بشكواه المتصلة، وكثيرا ما نرى الغراب الأسود في تجواله حائرا على الشاطئ يغمر في الماء عرقه، كما تقابل الأمواج عنقه)

٩ - إن هذه الشواهد لا تكاد تخطئ أبدا، ومع هذا فاننا لانعرف السبب الذي من أجله هي كذلك.

(وأنتن ياسا كئات المياه الجلوة، تستطيع معرفة هذه الشواهد، عندما يرتفع صياحكن في ضجيج خلو من المعاني، وتهززن النافورات والبرك بنعيقكن السخيف).

فماذا الذي يستطيع أن يفرض أن الضفادع قادرة على ذلك...؟ ومع هذا فان لها بطبيعتها ملكة ما، بها تشعر بما ينتظر أن يقع، وهذه الملكة واضحة في ذاتها (وضوحاً ملحوظاً)، ولكنها غامضة (أشد الغموض) أمام العقل الإنساني.

(والثيران ذوو الأظلاف اللينة تتجه بعيونها نحو ضوء السماء، وتتشم بخياشيمها، الرطوبة من الهواء).

ما دمت أعرف ما ذا يحدث، فاني لا أستفسر عن السبب الذي يؤدي إلى حدوثه، فإن شجر العلك (المصطكا) ذو الخضرة الدائمة يكبر ثلاث مرات وتتفتح براعمه عن ثمارها ثلاث مرات، فتكشف هذه الشواهد عن ثلاثة فصول لحرث الأرض!

ولست أستفسر كذلك عن السبب الذي من أجله تزهو هذه الشجرة وحدها ثلاث مرات، أو لماذا تجعل أزهارها في المرات الثلاث على اتفاق مع زمن الحرث، أنا قانع بعلى أنها على هذا النحو تزهو، وإن كنت لا أعرف

لهذا سيبا . (واستناداً إلى هذا فإن) — فيما يختص بكافة أساليب التنبؤ بالغيب — سأجيب نفس الإجابة التي عرضتها بصدده الحلات السالفة الذكر .

١٠ — إنى أعرف أثر جذع المحموده ، : Scammony كسهل ، وأجد ترياقاً للدغة الثعبان في نبات « أرستولوكيا » ، واسمه مشتق من كاشفه الذى عرفه في حلم وقع له — إنى أرى ما لهذه الأشياء من قوة ، وحسبى ما أرى ، أما لماذا تهبأت لها هذه القوة ، فإنى لا أعلم عن هذا شيئاً ، وهكذا الحال فيما يختص بشواهد الرياح والأمطار التى أسلفت القول بأنها تنذر بما ينتظر أن يقع ، فإنى لست على يقين من أمرها ، ولكنى أعرف قوتها وتأثيرها ، وأدرك هذا وأشهد به ، وكذلك الحال فيما يختص بشقوق الأحشاء أو خيوطها الرفيعة ، إنى أسلم بالمعنى الذى تحمله ، ولا أعرف عن سبب هذا شيئاً ، وكفى فى الدنيا من أفراد يقفون موقفي هذا تماماً ، إذ يكاد كل فرد يستخدم الأحشاء فى التنبؤ بالغيب — وهو يجمل تفسير هذه الظاهرة فى ضوء منطقته —

ثم هل فى وسعنا أن نشك فى قيمة الصواعق فى التنبؤ بالغيب ؟ .. أليس لدينا الكثير من الأمثلة التى تشهد بإعجازها ؟ .. وأليس يجدر بنا أن نخص بالذكر تلك الحادثة التالية : حادثة تمثال « سومانوس » Summanus^(١) الذى يقوم على قمة معبد جوبتر القوى العظيم — وقد صنع تمثاله من الصلصال — عندما أطاحت برأسه صاعقة فاختنق حتى عز وجوده فى مكان ، فأعلن

(١) وهو غير Boethus « بوشوس » المشائى وقدمات سنة ١١٩ ق . م . ويقول مترجم جارنييه فى تلميحاته إنه وضع بحثاً فى الطبيعة ، وألف كتاباً فى القدر وحاول أن يوفق بين طبيعة الرواية وطبيعة أرسطو كما حاول أن يبرر — علمياً — بعض ضروب التنبؤ بالغيب .
(١) اسم الله استعاره قدماء الرومان من « أتوروريا » ، وكان يثير العواصف ليلان الليل ، وكان الديونات الذى أنشأه « رويولوس » ، يقدم اقرايين حين تزلزل العواصف الأشجار (باشليه وديزوبرى) وانظر شيعرون على هذا المثال فى الفقرة العشرين من الكتاب الثانى .

العرافون بأن الصاعقة قد ألقت بالرأس في نهر التير ، وقد عثر عليه في نفس المكان الذى حدده هؤلاء العرافون . . ١٠

١١ - ولكن أى حجة أو شاهد أستطيع أن أُلجأ إليه ، ويكون أقطع في الدلالة على هذا منك أنت نفسك ؟ لقد استظهرت بمزيد الغبطة الآيات التى كانت ترددها إحدى الآلهات التسع وهى إلهة الفلك . أورانيا Urania^(١) فى الكتاب الثانى من قصيدتك التى تحمل هذا العنوان : عهدى فى القنصلية^(٢) .
١١ - وعلى هذا فلو تأملت آثارك وأشعارك (التى أسلفت اقتباسها) والتى التزمت أنت فى نظمها منتهى العناية والدقة ، أيمكن أن يؤدى بك هذا إلى معارضة رأيى فى التنبؤ بالغيب ؟

دعهم انهم يجهلون المصادفة فى تفسير التنبؤ :

ولكن ماذا . . ؟ إنك تسأل « كارنيادس » عن السبب الذى من أجله تقع هذه الأشياء ، وتستفسر منه عن القواعد التى تساعد على فهمها ، إنى أعترف بأنى لا أعلم من ذلك شيئاً ، أما أنها تقع على هذا النحو ، فأنى واثق بأنك تراها على هذا النحو بنفسك ، ولكنك تقول إنها « محض مصادفات » فهل هى كذلك حقاً . . ؟ أيمكن أن يكون شيء ما ، وليد المصادفة وهو يحمل فى ذاته كل شاهد على أنه حق . . ؟ إن زهرات النرد الأربع تلتقى وتقع رمية

(١) Muse اسم يطلق على أية ألهة من الآلهات التسع ، لشعر والموسيقى وغيرها من الفنون ومن : Clio إلهة التاريخ ، Entorpe إلهة الموسيقى وThalie إلهة الكوميديا ، Melpomène إلهة التراجيديا ، Terpsichore إلهة الرقص وErato إلهة شعر الحب (الغزل) وPalymnie إلهة الشعر الغنائى والفصاحة ، Urania إلهة علم الهيئة (الفلك) ، Erato ، Calliope إلهة شعر البطولة والملاحم ، أما Urania فهى إلهة علم الهيئة وهى تتمثل فى نوب أزرق ، متوجة بالسكواكب ، ومعها القبة الفلكية وآلات الرياضة ، وهى إلهة مثل لا تدركها شهوات الجسد وكانت تعبد تحت اسم « فنوس السماوية » (باشليه وديزوبرى) .
(٢) وضع « شيشرون » عن الحوادث التى وقعت لإبان فنصليته ثلاثة كتب شعراً ، لم يبق منها إلا أشنات ، وأم هذه الكتب هو المشار إليه هنا (ديمارىه) وقد أممنا ترجمة الشعر استغافته .

لثينوس^(١) ، فتكون هذه مصادفة ، ولكن أتظن أنها محض مصادفة ، إذا كنت في كل مائة محاولة ، تصيب مائة رمية لثينوس . . ؟
إن من الممكن للألوان التي تنتثر عفواً على قطعة من الخيش ، أن تكون شكل وجه ما ، ولكن أتصور أن مادة الألوان التي تتفرق سهلاً يمكن أن ترسم الصورة الجميلة لآلهة الجمال في جزيرة كوس Cos . . ؟ هب أن خزيراً قد استطاع أن يرسم على الأرض بأفنه الطويل الحرف « ا » ، فهل هذا يبرر الظن بأن في وسعه أن ينسخ قصيدة « أندروماك » : Andromache التي وضعها أنيوس Ennius . . ؟

لقد كان « ثارنيادس » يروي قصة خلاصتها أن صخرة قد انشقت ذات مرة في محاجر « شيان » ، فبرز من انشقاقها رأس الآلهة الطفل « بان » Pan وأنا أسلم بأن هذه الصورة تحمل بعض وجوه الشبه بصورة الإله ، ولكن الشيء الذي لا يرتقى إليه الشك ، هو أن التشابه لا يصل إلى درجة تمكنك من أن تعزوه إلى فنان كاسكوپاس : Scopas ، لأن من الحق الذي لا يحتمل الإنكار ، أن المحاكاة الكاملة لشيء ما ، لا تكون وليدة المصادفة أبداً .

مناقشة الامتجاج بكنز النبوءات أحياناً :

١٣ - بيد أن هذا قد يثير الاعتراض القائل بأن « التنبؤات لا تصدق أحياناً » ، ولكن معذرة ، أي فن - وأقصد بالفن هذا الذي يعتمد على الحدس والاستنباط - أقول أي فن ليس عرضة لهذا الخطأ نفسه . . ؟ إن مزاوله الطب فن لا محالة ، ومع ذلك فكم من الأخطاء يتعرض لها أهل هذا

(١) يقول مترجم لويب إن رمية « فنوس » نفع عندما تسقط كل من الزهرات الأربع وتعلن على سطحها العلوي عدداً يختلف باختلافها . ويقول « ديماريه » ان زهرات الترد عند القدماء كانت منقوشة على نحو ما هي عليه الآن ، ولكنهم كانوا يلعبون بأربع زهرات (بدلا من اثنتين) ، وتعلق جارييه لا يكاد يخرج عن هذا - وانظر رد شيفرون على هذا المثال في الفقرة الحادية والعشرين من الكتاب الثاني .

الفن . . ؟ وأليس قباطنة السفن معرضين للخطأ أحياناً . . ؟ إن الشاهد على هذا نراه في جيوش الأغريق وقادة أسطولهم الجبار عندما أبحروا من ترواده ، وكانوا كما يقول « با كوفيوس » Pacuvius (١) :

[يتأملون الأسماك وهي تلعب في البحر ، فرحين وهم يخلفون ترواده وراءهم ، بل إنهم لم يستوفوا حظهم من التأمل ، وهكذا هياؤا للوقت أن يمر بهم دون أن يستشعروا الضجر ، وبينما كانت الشمس تميل إلى الغروب ، كان اليم يرتفع غاضباً ، والظلام يتكاثف رويداً رويداً ، والليل يظلم ويمطر مطراً يحجب النظر] .

وهل لاتكون الملاحه فناً ، مجرد أن الكثيرين من الممتازين من قباطنة السفن وأرباب الملك ، قد تحطمت سفنهم وابتلعتهم المياه . . ؟ وهل يفقد العلم العسكري قيمته ، لأن قائدا طائر الصيد قد فقد جيشه منذ عهد قريب وولى الأدبار . . ؟ (٢) وهل يتجرد فن السياسة من مناهجه وضروب الخدق في مجاله ، لأن أخطاء سياسية قد وقع فيها مرارا جنايوس پومي Gnaeus Pompey وماركوس كاتو Marcus Cato وأنت نفسك - مرة أو مرتين . . ؟ كذلك الحال مع تنبؤات العرافين ، بل مع سائر ضروب التكهّن الذي لا تكون استنباطاته إلا على سبيل الاحتمال ، لأن مثل هذا التنبؤ يعتمد على الاستدلال ولا يتجاوز نطاقه ، وقد يؤدي إلى الضلال أحياناً ، ولكنه مع ذلك يهديننا إلى الحق في أكثر الحالات ، لأن هذا التكهّن الذي يقوم على الحدس وليد الأزل الذي يمتد في قدمه إلى غير نهاية ، وقد أدركه النمو على مر الزمن حتى أضحى فناً يقوم على تكرّر المشاهدات وتسجيل الحوادث

(١) هو شاعر لاتيني كان ابناً لأحدى أخوات « لانيوس » وقد ولد في « برنديزيوم » في مملكة بابل على البحر الإديرياتيكي (ديماربه) .
(٢) يشير إلى هزيمة « پومي » على يد قيصر في « فارسالوس » سنة ٤٨ ق . م .
(لويب وجارنييه) .

التي لا يكاد يحصيها العد ، والتي كانت نفس الشواهد تسبق فيها نفس النتائج .

التكهن قبل شيسرون في أيامه :

١٤ - وفي الحق لقد كانت نبوءات الطيرة والفأل وفن العياقة موضع ثقة من الناس ، عندما كنت (أنت) من أهل العياقة^(١) ، إن المشتغلين بهذا الفن من الرومان قد أهملوا شأن الزجر والفأل في أيامنا الراهنة - ومعذرة في هذا التصريح - وإن كان السكيليكيون والباغليون والبيسيديون والليكيون يمجدون من شأنه ، ولست بحاجة إلى أن أذكرك بصديقنا وضيفنا الجليل ، أشهر الناس الملك « ديوتاروس » Deiotarus^(٢) ، الذي لم يقدم على تنفيذ مشروع قبل أن يستنبي الطالع ، وقد شرع في إحدى المناسبات في رحلة قد اهتم بإعداد خطتها من قبل ، ثم عاد إلى بلده بعد إنذار زاجر عرفه من نسر حلق في الجو ، ثم ظهر أن الغرفة التي كان ينتظر أن ينزل بها إذا واصل رحلته ، قد انهارت في الليلة التالية ، وهذا هو السبب - فيما أنبأني هو نفسه - في أنه كثيراً ما كان يعدل عن إتمام رحلة مضى فيها أياماً .

وبهذه المناسبة أقول إنها كانت كلمة نبيلة تلك التي أعلنها بعد أن رفع عنه قيصر تبعيته ، وخلعه من مملكته ، وأكرهه على أن يدفع غرامة ، إذ قال : « لست آسفاً - مع هذا الذي أصابني - لأن الفأل قد أيد اتصالى بيومي » ، فهذا الاتصال وضعت قواتي العسكرية للدفاع عن سلطة مجلس الشيوخ

(١) يقول مترجم لويب إن « شيسرون » قد انتخب عضواً في ديوان العياقة ، وأضحى زميلاً لبومي وهورتنسيوس عام ٥٣ ق . م . وأن كوتتوس سيبدأ الآن في شرح وجوه التفرقة بين العياقة كما كانت عام ٥٣ - ٦٣ ق . م . وبينها أثناء هذه المحاوراة أي عام ٤٤ ق . م - أما ديوان العياقة فهو كلية دينية أقيمت لفن العياقة في روما القديمة وكانت مهمة أعضائها ملاحظة الطيور وتأويل الشواهد توطئة لتنفيذ المشروعات أو العدول عنها كما تنص على هذا دائرة المعارف البريطانية في مقال : Augur .

(٢) كان « ديوتاروس » من أتباع قيصر في « جالوجرايكيا » وكان ملك أرمينيا الصغرى - وقد ناقش شيسرون هذا المثال في المقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الثاني وقد فاتل مع « بومي » في « فارسالوس » ، إذ كان صديق الرومان وحليفهم .

والذود عن حرية الرومان، والدفاع عن عظمة الامبراطورية . وقد أحسنت الطيور نصحي حين أشارت علىّ بالتزام الواجب والشرف ، لأنى أقدر ذكرى اسمى ، أكثر بما أقدر الظفر بالغنى والثراء ، وفكرته عن العياقة ، هي الفكرة الصحيحة — فيما يلوح لى —

وثمة حكام يستعينون بزجر الطيور وفألها كما نفعل نحن ، ولكن نبوءاتهم فى هذا مصطنعة متكلفة ، إذ أن كرات العجين الملقاة أمام صغار الكتاكيت المقدسة لتطعم منها ، لا بد أن تسقط من منقارها^(١) ، والفأل الطيب يقع — قىما تنبئنا كتاباتكم أيها العيافون — متى سقطت على الأرض من منقار الكتاكيت قطعة من الطعام ، وأنت — أيها الأخ — تطلق على ما أسلفته من طواع مصطنعة ، نفس الاسم الذى تطلقه على النبوءات الحرة المألوفة^(٢) وهكذا يودى استخفاف ديوان الكهانة بضروب العياقة — فيما يقول دكاتو ، الحكيم متأماً راثياً — إلى إهمال قام وضياح كامل للكثير من أساليب العياقة وطرق الزجر والفأل .

١٥ — وقد كان يندر أن يقدم أهل العصور القديمة على أمر ذى خطر — ولو اتصل بشئونهم الخاصة — دون أن يستشيروا الطير ليعرفوا إن كان سانحاً أو بارحاً ، والشاهد البين على هذا يتجلى حتى فى عصورنا الحاضرة بمثلاً فيما ألفناه من فآل الزواج ، وإن كانت قد فقدت معناها الدينى القديم واحتفظت بالاسم وحده . ولا نزال فى أيامنا الراهنة نستخدم فى المناسبات الهامة النظر

(١) كانت الكتاكيت فى مثل هذه الحالات تطعم بحيث تعطى النبوءة المطلوبة — قارن الفقرتين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين من الكتاب الثانى (فىهما مناقشة شيمرون لذلك المثال) (لويب) .

(٢) كانت الكتاكيت تأكل فى شراهة بحيث تتساقط منها قطع الطعام وتصطدم بالأرض ، فىكون هذا فألاً ميموناً — وفى الفقرتين ٣٤ و ٣٥ من الكتاب الثانى شرح للفظ اللاتينى الذى يستخدم فى التعبير عن هذين المعنيين المختلفين ، ويلوح أن « كوتوس » يشكو لأن هذه الطريقة المتكافئة ليست من طرق التبكهن الصادقة ؛ لأن النتيجة فيها محتومة ولا سبيل لى تجنبها (لويب) .

في فحص الأحشاء في التنبؤ بالغيب ، وإن كانت اليوم أقل مما كانت في الماص
شيوعا ، وقد جرت العادة قديماً بأن يستخدموا كذلك التنبؤ عن طريق الطيور
وياهمال النذر الزاجرة التي لاتلائم مطالبنا ، نعاني ضرراً بليداً ومن أمثلة
هذا أن « بوبليوس كلوديوس » Publius Claudius بن أيوس كايكوس :
Appius Caecus (١) وزميله لو كيوس جونيوس Lucius Junius قد فقدوا
أسطولين ضخمين ، لأنهما أبحرا على كره من زجر البارح من الطيور ، وقد
كان هذا نفسه مصير « أجامنون » Agamemnon ، (٢) إذ بعد أن شرع
الأغريق :

(يرفعون بالصياح حناجرهم مظهرين احتقارهم لنبوءات الكهان ، وعلا
صياحهم حتى غلب الزجر ، أصدر « أجامنون » أمره الى السفن بأن تمخر
العباب) (٣).

ولكن لماذا نستشهد بهذه الأحداث القديمة . ؟ إننا نرى ما أصاب
ماركوس كراسوس M. Crassus (٤) عند ما استخف بنبوءات الطيرة التي
زجرته عما يقصد .

إن Appius الذي كان مراقباً Censor في ذلك الحين . والذي كان زميلك
في ديوان العيافين ، وكان رجلاً قديراً فيما سمعت منك مراراً — قد وصم بالعار

(١) في الحرب اليونية الأولى عام ٢٤٩ ق . م . قارن شيشرون في الفقرة الثالثة من
الكتاب الثاني من طبيعة الآلهة ، : polyb في الفقرة : ٥٤ من الكتاب الأول (لويب)
وفي كتابي : قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة س ٣٨ — ٤١ (طبعة أولى) بيان عن
موقف جليل لهذا الرجل .

(٢) بعد فزو ترواده (ديماربه)

(٣) لعله اقتبس هذين البيتين من Dulorestes لوضعه « باكوفوس » (لويب) .
(٤) عندما رحل « كراسوس » من روما ليحارب « البارثيين » فاعترض على رحيله
« جايوس أنيوس » زعيم الشعب الروماني وتمنى له السوء (ديماربه) وفي الفقرة التالية
غموض في النص اللاتيني والترجمات الإنجليزية والفرنسية ، وقد استعنا على ترجمتها بالدكتور
زكي محمد حسن .

— فيما نعلم — رجلاً شريفاً ومواطناً ممتازاً هو «جايوس أتْيوس» Gaius Attius. وأدائه بتهمة لم يقم على صحتها دليل كاف، وهي أنه زيف في القول.

وأنا أسلم معك بأن أيبوس لم يتجاوز حقوقه كمرقب حين أدان جايوس أتْيوس، إن كان على يقين بأن أتْيوس قد أعلن فألاً زائفاً .

ولكن أيبوس كان خلواً من كل قدرة في فن العياقة حين ظن أن أتْيوس بحمل تبعة تلك المصيبة الفادحة التي نزلت بالشعب الروماني، وإذا كان هذا هو السبب، فإن الخطأ لا يقع على عاتق «أتْيوس» الذي أعلن بأن الزجر في غير مصلحته، ولكنه خطأ «كراسوس»، الذي عصى أمره، لأن النتيجة دلت على أن النبوءة كانت صحيحة، كما سلم بها الكاهن والرقيب معاً، وحتى إذا كانت النبوءة باطلة لما كانت العلة في وقوع هذه النكبة، لأن التكهنات المشثومة — ومثل هذا يقال عن الطيرة والفأل وغيرها من الشواهد — ليست السبب فيما يقع من أحداث، إنها مجرد تكهن بوقوعها إلا إذا أخذت الحطية لاقتها، وعلى هذا فإن «أتْيوس» بإعلانه تلك النبوءة لم يخلق السبب الذي أدى إلى وقوع النكبة، ولكنه لاحظ الشاهد الذي ينبي عنها، وسارع إلى إعلان «كراسوس» بالنتيجة التي ينتظر أن تترتب على هذا، إذا استخف بهذا النذير الزاجر، ومن هذا نرى أن إعلان «أتْيوس» Attius للنبوءة المشثومة، لا أثر له في تحقيقها، أو إذا كان ذا أثر كما يظن «أيبوس» Appius فإن التبعة في هذا لا يحملها من أعلن النذير، ولكنها تقع على عاتق من أهمله واستخف بأمره .

في تاريخ الكهنة :

١٦ — أرجو أن تفتنوني أيها الكهان عن المصدر الذي أخذتم عنه هذه العصا التي تعتبر أظهر خصائص منصبكم الكهنوتي . . ؟ إنها بغير شك نفس العصا التي حدد بها «روميلوس»، النطاق الذي كان يلاحظ فيه الطيور

ويستنبثها المستقبل المحجب ، عندما أقام مدينة روما^(١) وهذه العصا صولجان ملتومقوس قليلا عند قته ، وبينه وبين البوق مشابه ، ولهذا اشتق اسمه من كلمة لاتينية معناها « البوق الذي ينفخ فيه للبدء بالتحام الجيوش » وقد حفظ في معبد قسيس إله الحرب ، المقام على تل « بلاتين » ، ورغم أن المعبد قد احترق فإن العصا قد وجدت سليمة لم تصبها النار بتلف ما . ثم أى مسجل للحوادث قد فاته أن يذكر تلك الحقيقة التي تقول إن السماء قد قسمت إلى أربع مناطق ، على يد « أتوس ناقيوس » : Attus Navius الذي عاصر « تاركونيوس برسكوس Tarquinius Priscus^(٢) » ، بعد عصر « روميوس » ، بأمدة طويل .. ؟ وقد كان « أتوس » لفقره راعياً للخنازير في شبابه ، وقد انتقد - فيما تروى القصة - أحد هذه الخنازير ، فنذر بأن يقدم للأله - كقربان - أكبر عذق عنب في كرمه ، إن وجد الخنزير ، فلما عثر على الخنزير ، وقف

(١) يقول مترجم لويب إن هذا النطاق كان يسمى : templum ويقول Livy في الفقرة السادسة من الكتاب الأول أن « روميوس » قد اتخذ « بلاتين » Palatine مكاناً لاستنباء الطيور ، أما ريموس فكان مكانه « افنتان » Aventine وقد جرت العادة بأن يكون المكان بقعة في السماء . ويقول « ديغاريه » إن تقسيم المناطق وتجزئتها كان عرفاً شائعاً عند أهل العيافة في روما القديمة ، كانوا يعتقدون أن يستنبثوا الطيور ، فكانوا يجزئون بمصام الأفق إلى أربع مناطق أو ثمان أو ست همزة منطقة ، ليحددوا من أى هذه المناطق يصدر الزجر أو القأل وتقول دائرة المعارف البريطانية في مادة Augur : إن العياف كان يحدد بمصاه المكان المقدس الذي كان يجري فيه مشاهدته [وهو templum كما قلنا] فإذا انتصف الليل وهدأت الرياح ، اعتلى العياف ربوة لتتسع بهذا رحاب نظره . ويحضره في هذا الحاكم . فإذا أقيمت الصلاة وقدمت القرابين ، حدد العياف نطاقاً في السماء ليجرى فيه ملاحظاته ، وعلى الأرض ليقم عليه خيمة ، ثم يجلس مغطى الرأس ويلتمس من الآلهة شاهداً يكشف عن عين المشروع أو شؤمه ، ثم ينتظر انكشاف هذا الشاهد ، فإذا انكشف الشاهد أعلن العياف ما رأى ، وكان على الحاكم أن يعمل في حدودها . وقد ناقش شيشرون هذا المثال ، والمثال الذي يليه في الفقرة الثامنة والثلاثين من الكتاب الثاني .

(٢) أحرق أهل الغال في عام ٣٩٠ ق م هذا المعبد ، عندما اغتصبوا المدينة ، وقد احترق كل ما كان يحويه المعبد إلا هذه العصا . إقارن : Val. Max 1, I. Plut, Livy V ,41. (لويب) :

وسط الكرم - فيما يقال لنا - وقد ولتى وجهه شطر الجنوب ، وقسم الكرم إلى أربع مناطق ، واستنبا الطيور فزجرت عن ثلاث منها ، فأعاد تجزئة الرابعة - وهي الأخيرة - فوجد - فيما تقول لنا القصة المدونة - كرمًا من العنب كان كبير الحجم إلى حد معجز .

ولم يكد ينتشر أمر هذا الحادث في الخارج ، حتى وفد إليه كافة جيرانه ، وأخذوا يستشيرونه في شئونهم الخاصة ، وبهذا عظم اسمه وحلقت في الآفاق شهرته ، وترتب على هذا أن أرسل الملك « پرسكوس » Priscus في طلبه ، وأراد أن يجرب مهارته كرجل مشغل بالعيافة ، وقال له . « إني أفكر الآن في أمرٍ ما ، فنبتنى إذا كان الإقدام على عمله ممكناً أو غير ممكن ، .

فاستنبا الكاهن الطيور ، وأجاب الملك على الفور قائلاً إن في إمكانه أن يقدم على عمله . وعندئذ قال الملك « تاركوين » ، إنه كان يفكر في إمكان قطع مسن إلى قسمين بموسى ، وأمر بإجراء هذه التجربة ، فحملوا الصخرة إلى الجزء الشرقى من السوق الرومانية العامة^(١) وأخذ الملك ورعيته يراقبون الصخرة عند إجراء التجربة ، وإذا بها تنشق بالموسى إلى شقين ، فاستخدم الملك هذا الرجل عيافاً له ، وأخذ الناس يستشيرونه في شئونهم الخاصة ، بل إن القصة المتواترة تقول لنا إن المسن والموسى قد دفنا في نفس المكان الذى وقعت فيه التجربة السالفة الذكر ، ووضعت فوقهما صخرة تقيهما يد العيب .

ولكن فلنفرض أن هذه القصة مختلفة من بدايتها إلى نهايتها ، ولنحرق السجل الذى ضمها ، ولنعتبرها خرافة ، ولنقبل التسليم بما يروقك ويرضيك ، ولا ندعن للقول بأن الآلهة تربطهم بالشئون الإنسانية أية رابطة ، ولكن أعرنى سمعك ، ألا تنبئ قصة « تباريوس جراكوس » Tiberius gracchus التى

(٤) كانت تجتمع فيه هيئات الشعب المختلفة للانتخاب أو لغيره من شئون الدولة ، وقد كان لسكل مدينة رومانية سوق عامة : Forum يلتقى فيها أهل المدينة للتشاور في شئونهم .

تضمنتها كتاباتك^(١) بأن العياقة والعرافة فنان من الفنون ، فان « جراكوس » قد أقام خيمة^(٢) ونخالف قانون الكهانة عفوا ، بأن عبر التخوم المقدسة قبل أن يتم استنباء الطيور ، ومع ذلك فقد أقر انتخاب القنصل . إنك تعرف هذه الحقيقة حق المعرفة ، لأنك سجلتها في كتاباتك ، وفوق هذا فان « جراكوس » — وكان من أهل العياقة — قد أيد سلطان التكنن عن طريق الطيور ، فاعترف بخطئه ، ورفع الكهان بدورهم من سلطان حرفتهم ، نجفوا إلى مجلس الشيوخ عقب الانتخابات مباشرة ، وأعلنوا بأن المشرف على الانتخاب كان يعمل بغير سلطة صفة شرعية .

تأييد التكنن بنوعيه : المصنعي والطبيعي

١٧ — أنا إذن متفق مع هؤلاء الذين قرروا وجود ضربين من التكنن بالغيب ، يتصل أحدهما بالصناعة^(٣) ويتعد الثاني عنها ، وهؤلاء العرافون الذين يستخدمون الصناعة ، ينزعون — وقد عرفوا المعلوم عن طريق المشاهدة — إلى اكتشاف المجهول عن طريق الاستنباط ، أما الذين يستغنون عن الصناعة ، ولا يستعينون بالعقل أو الاستنباط ، ولا يهتمون بملاحظة الشواهد التي سجلت بعد مشاهدات أجريت ، فانهم يكشفون المستقبل وهم في حالة تهييج عقلي — جذب — أو انفعال حر غير مقيد ، وكثيرا ماتقع هذه الحال في أحلامهم وهم نيام ، وقد تقع للذين ينبئون بالغيب وهم في حالة

(١) قارن « شيسرون » في الفقرة الرابعة من الكتاب الثاني من « طبيعة الآلهة » (لويب) ثم انظر الفقرة الخامسة والثلاثين من الكتاب الثاني هنا ، ففيها مناقشة شيسرون لهذا المثال .

(٢) كانت الخيمة (tabernaculum) توضع في مركز بقعة يلاحظ فيها الكاهن الطيور ، أما التخوم المقدسة (Pomerium) فكان يراد بها حدود المدينة وكانت تقام فيها الخيمة السالفة الذكر ، فاذا عبر الكاهن هذه الحدود قيل أن تنبئه الطيور سانحة أو بارحة ، وجب أن يتخير مكانا آخر ويبعد فيه استنباءها من جديد (لويب) .

(٣) أطلق مجمع فؤاد الأول لغة العربية كلمته « مصنعي » على ما يقابل عند الفرنجية Artificial (fr. ielle) و« طبيعي » على ما يقابل Natural (fr. elle)

جنته ، وقد وقع هذا له ، با كس Bacis^(١) من أهل بيوتيا و . ابمنيدس Epimenides الكريتي ، وكاهنة إريتريا^(٢) وتدخّل النبوءات التي يهبط بها الوحي في هذا النوع الأخير من التكهن (الاصنعي) ، ولسنا نقصد النبوءات التي تكون بطريقة الأنصبة التي جعلت متساوية^(٣) ، بل نعني تلك التي يتكشف عنها الإلهام ، وإن لم يكن التنبؤ بالأنصبة موضع احتقار في ذاته - متى أيدها القدم ، كما زى في الأنصبة التي تكشف عنها الأرض^(٤) - فيما تقول القصة المتواترة - ومهما يكن من شيء فإني أميل إلى الاعتقاد بأن من الممكن أن تسحب الأنصبة بحيث تستجيب لمطالبنا بقدره إلهية ، ويلوح لي أن الذين يستطيعون أن يؤولوا جميع هذه الشواهد المنبئة عن المستقبل تأويلاً صحيحاً ، يشبهون الآلهة الذين يقوون على كشف الغيب ، ويستطيعون أن يؤولوا هذه الشواهد متى أرادوا ، كما يؤول أهل العلم شعر الشعراء .

فبأي نوع من المهارة القائمة على الدجل ، تحاول أن تقلب الحقائق التي مكن لها الزمان الطويل . . . إنك تقول إن الكشف عن أسبابها قد فاتني ، قد يكون هذا سرا من أسرار الطبيعة الخفية ، إن الله لم يشأ أن يطلعني على أسبابها ، ولكنه مكنتني من الإفادة من هذه الطرق التي منحني إياها ، ولهذا فساأستخدمها دون أن آذن لنفسي بالاعتقاد بأن الشعب الاثروري بأسره قد طاش وضل سبيل الرشاد في اعتقاده في التكهن عن طريق النظر في الأحشاء ، أو أنه جنح عن السداد في إيمانه بالتنبؤ عن طريق البرق ، أو أنه أساء تأويل النذر التي تنبئ عن الشر المقبل ، فإن قرقرة الأرض وزئيرها وزلزلتها ، كثيراً

(١) كان يوجد فيما يقول كليمان الأسكندري ثلاثة كهان يحملون هذا الاسم ، أولها المشار إليه هنا والثاني من أركاديا ، والثالث من بيوتيا ، ولكن الأول أشهرهم . أنظر في تقسيم التكهن ، الفقرة السادسة في الكتاب الأول والحادية عشرة في الكتاب الثاني .

(٢) كانت « هرورفايل » Herophile هي الكاهنة التي ذمبت أخيراً إلى « كوماي » Cumae (لويب) .

(٣) لا نعرف الآن ما يراد بهذه الأنصبة (aequates sortibus) (لويب) .

(٤) كانت هذه ألواحاً من السنديان أقيمت في معبد إلهة الحظ في « براينسي » ، وكان عليها كلمات منقوشة (لويب) .

ما لوحث لنا ولغيرنا من الأمم بتندر نكبات توشك أن تقع، فلماذا يسخرون اليوم من العرافين الذين تنبأوا باستهداف الدولة لسلسلة شرور لا تحصى، اعتماداً على أن بغلة — وهي حيوان عقيم بطبعه — وقد ولدت فلوا . . . (١) .
وإني لأرجو أن تنبئني عما تقول في خادثة « تباريوس جراكسوس » ، ابن « بوبليوس » وهي المعروفة حق المعرفة ، فقد كان رقيقاً وقصلاً مرتين ، وكان أعرف الناس بفن العيافة ، وحكماً ومواطناً ممتازاً ، وقد أمسك — فيما تروى القصة التي خلفها لنا ابنه « جايوس » Gaius شعبانين في بيته ، واستدعى العرافين ليستشيرهم في أمرهما ، فأنبأوه بأنه إذا أطلق سراح الذكر منهما ، وأدركت المنية العاجلة زوجه لا محالة ، فان أطلق الأنثى منهما ، عجل الموت باختطافه — ما في ذلك شك ولا ريب — فرأى أن موته العاجل — وهو طاعن في السن — أنسب من موت زوجته ابنة « بوبليوس » الإفريقي ، وقد كانت في مقتبل الشباب ، فأطلق أنثى الثعبان ، وسرعان ما أدركه الموت بعد ذلك بأيام (٢) . . . ١

١٨ — ولكن فلنسخر من العرافين ، ولنصفهم بالمسكر والخداع ، ولنحتقر حرقتهم ، ولو دلل « جراكسوس » الحكيم بظروف موته ونتائجه على أنها مهنة خليقة بالتقدير ، ولنهزأ بالبابليين كذلك ، ولنسخر بأهل التنجيم الذين يلاحظون وهم فوق قمة جبل القوقاز شواهد السماء ، ويتبعون مسالك النجوم مستعينين بالرياضيات ، ولنقرر بأن هؤلاء القوم الذين شغلت

(١) في « هيرودوت » ج ٣ ص ١٥١ — ١٥٢ مثال آخر فيما نشير لوبيس ، ويقول مترجم جارنييه : إن القدماء قد لاحظوا أن الحيوانات التي تجيء من نوعين مختلفين — كالجمال — لا تنسل ، ويذكر هيرودوت الكلمة عن سكان بابل وفارس فيقول : ستأخذون بلدنا عندما تلد البغال . . . ولهذا كانت ولادة البغلة نذيراً بمر مقبل لأن هذا مخالف لقوانين الطبيعة في عرف الناس . أنظر الرد على هذا في الفقرة الثانية والعشرين من الكتاب الثاني .

(٢) روى قصة الثعبانين بما يقرب من هذا « بلوتارك » في حياة : Orecque و « فاليروس مكسيوس » (IV,6,1) Pline l'ancien, (Hist. nat VII,٤6) (جارنييه) .
وانظر مناقشة شيشرون لهذا المثال في الفقرة التاسعة والعشرين من الكتاب الثاني

سجلاتهم - فيما يقولون هم أنفسهم - أربعمائة وسبعين ألف عام (١٢) ، قد انطوا على سفه وزيف وتبجح ، ولتتهمهم بالكذب وعدم الاكتراث بالرأى الذى أيدته الأجيال المتعاقبة ، ولقسلم بأن البرابرة جميعاً خداعون أدنياء ، ولكن هل نصف بالكذب مؤرخى الأغريق كذلك ؟ ... ؟

تأثير التنبؤ الطبيعى :

١ - التنبؤ عن طريق الوحي (دلنى) :

وإذا نحن تحدثنا عن النوع الطبيعى ، فى التمكن بالغيب ، فإن كل امرئ يعرف النبوءات التى أجاب بها وحى الكاهنة « بيثيا » عن أسئلة « قارون » ، Croesus وأهل أثينا واسبرطه ، وأهل تيجيا وأرجوس وكورثثة . وقد قام « كريسبوس » ، Chrysippus بجمع عدد كبير من هذه النبوءات ، وأثبت كل حادثة منها بأدلة وافرة ، ولكنى لن أتعرض للحديث عنها لأنك تعرفها حق المعرفة ، وحسبى أن أقول فى دفاعى « إن مهبط الوحي فى دلنى ، ما كان يكثر زواره على هذا النحو ، ويشتهر إلى هذا الحد ، ويزدحم بالقرايين تقدمها الشعوب والملوك من كل صوب ، لو أن الناس فى مختلف العصور لم يضعوا صدق نبوءاته موضع اختبار . والآن وقد تغير هذا منذ زمان طويل ، واضمحلت شهرته فى الوقت الحاضر ، إذ لم يعد له من بُعد الصيت ما كان له قديماً ، فانه ما كان يصيب هذه الشهرة فى ماضيه ، لو أنه كان غير خليق بالتقدير فى أعلى مراتبه ، ومن الممكن أن تكون الأبخرة الأرضية التى كانت تضىء نفس كاهنة « بيثيا » بالإلهام الإلهى قد اختفت بالتدريج على مر الزمان كما جفت - فيما نعلم - أنهار واختفت من الوجود ، بينما غير بعض الأنهار الأخرى بالانحراف والدوران مجراه ، ولكن فسر اضمحلال الوحي كما

(١) قارن «ديودورس» الصقل (Bibl 11. p. 118) (٤٧٣، ٠٠٠) و «لاكثانيوس» فى (Div Inst VII, ch.14) ولكن أنظر Pliny «بلايني» فى (H.N. VII 56) (لوب) ومناقشة شيشرون لهذا فى الفقرة السادسة والأربعين من الكتاب الثانى .

تشاء ، ما دام هذا التفسير يبيء لنا مجالاً رحباً للمناقشة ، في أن مهبط الوحي في دلفي ، وقد صدرت عنه نبوءات صادقة مئات كثيرة من السنين ، ولكن بشرط أن تقدم لنا في تفسيرك ما يؤدي إنكاره لا محالة إلى تشويه التاريخ كله

ب - تأييد التنبؤ عن طريق الرؤيا :

١٩ - ولكن فلندع الوحي ، ولتحدث عن الأحلام ، وقد حشد « كريسيوس » - كما فعل « أنتباتر » Antipater^(١) حشداً من الأحلام التافهة وقام بتعبيره وفقاً للقواعد التي وضعها « أنتيفون » : Antiphon للتأويل ، إلى أسلم بأن البحث يكشف عن نفاذ النظر عند واضعه ، ولكنه كان يحسن صنعا لو أنه صور في بحثه نماذج من أحلام أكثر جدية مما عرضه منها ، وقد قدم لنا « فيليستوس » Philistus - وهو عالم دقيق يكتب عن أحداث عاصرها - تلك القصة التالية التي وقعت لأم « ديونسيوس » Dionysius طاغية سيرا قوص Syracuse ، ذلك أنها كانت تحمل في بطنها طفلاً - هو ديونسيوس السالف الذكر - فرأت في منامها أنها وضعت إلهما من سكان الغابات يتمثل في صورة تجمع بين الإنسان والعنزة ، فلما ذكرت هذا الحلم لمعبري أحلام السوء الذين أطلقوا عليهم في صقلية اسم Galeotae^(٢) أجابوا فيما يروى « فيليستوس »^(٣) ، بأنها ستلد ابنا يكون في مقبل أيامه واسع الشهرة في بلاد الأغر يق ، ويتمتع بحياة يصحبها التوفيق وتمتد أجلا طويلا .

ألا أذكرك ببعض القصص التي وردت في آثار الشعراء من الرومان والأغريق .. ؟ إن الحلم التالي - على سبيل المثال - قد وقع للعنداء

(١) كان أثينا ، وقد أدرك عهد أفلاطون ، وكان يؤول الأحلام ، ويتحدث « لوكيان » في تاريخه عن معبد جزيرة الأحلام ، فيقول إن « أنتيفون » مؤول الأحلام كان كاهن المعبد ورثيه (لويب) ويقول مترجم جارنييه إنه وضع بحثاً معروفاً عن تأويل الأحلام .

(٢) هم كهان في صقلية ، أطلقوا عليهم هذا الاسم ، لأنهم كانوا يدعون أنهم أبناء « جاليوتس » بن أبولو (ديماربه) .

(٣) قيل إنه من قراطيس وهي في مصر ، وقيل إنه من سيرا قوص (ديماربه) .

العفيفة فيما يروى « إنيوس » ، (١) :

(إن ريا سلقيا ابنة نوميتر التي حملت من « مارس » وأنجبت جدي الرومان :
روميلوس وريموس ، قد رأت في منامها ، أن رجلا جميل الطلعة قد حملها إلى
أراض مجهولة (٢) ، وأخذها إلى غابات جميلة ، وشواطئ وأما كن جديدة ...)
٢٠ — أنا أسلم بأن هذا الحلم خرافة ولدها مخ شاعر ، ولكنه لا يتعارض
مع ما خبرناه من أحلام واقعية ، وقد يكون الخيال هو الذي حاك قصة الحلم
التالي ، الذي أزعج بريام Priam. إزعاجا رهيبا (٣) .

(رأت زوجته هكيوبا Hecuba في منامها أنها وضعت شعلة من نار ، وفسر
الحلم بأنها ستلد باريس — صاحب قصة باريس المشهورة ...)

وأكرر القول بأننا سنسلم بأن هذه الأحلام من نسيج الخيال ، ولنضف
إليها حلم « إنياس » Aeneas الذي رآه مواطننا فايوس بكتور Fabius Pictor (٤)
في حولياته عن أحداث اليونان ، فإن كل ما فعله أو قاساه — فيما يقول
بكتور — قد وقع على التحقيق كما تكهن به حلم رآه .

٢١ — ولكن هيا نستعرض أمثلة أدنى إلى عصرنا عما أسلفناه ، أتجرؤ على
أن تسمى الحلم المعروف الذي رآه تاركوين المتكبر The Proud Tarquin

(١) من حولياته ، وقد كانت العفيفة هي « ريا » أو أخت « نوميتر » وأم
« روميلوس وريموس » ولدتها من المريح إله الحرب (لوبي وجارنييه) أنظر كتابي
قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٣١ وما بعدها من الطبعة الثانية .
(٢) الإشارة هنا إلى المريح إله الحرب — قارن Ovid. Fast. III. 13 (لوبي) .
(٣) يرى مترجم لوبي أن صاحب النص غير معروف ، ولكن مترجم جارنييه يقول إن
هذه الأشعار من مأساة وضعها « أنيوس » وأن « ريبك » و « فاهلن » يظنان أنها
كانت تحت عنوان « الاسكندر » .

(٤) هو « نومريوس فايوس بكتور » وهو ثاني اثنين يحملان هذا الاسم « فايوس
بكتور » ، أولهما « كوتتوس فايوس » . وقد لقب بيكتور لأنه نقش معبد الصحة في
روما (ديماربه) .

خرافة حا كها الخيال . . ؟ إنه يصف هذا الحلم بنفسه في آيات أوردتها
أكيوس Accius^(١) في قصته المسماه بروتس Brutus :

(رأى في منامه أنه أخذ خروفين أخوين ، فذبح أحدهما ، ولكن الخروف
الثاني قد ألقاه على الأرض وهجم عليه بقرنيه ، فرأى وهو مستلقٍ على
الأرض أن الشمس قد غيرت مجراها) .

والآن انظر كيف أول المعبرون هذا الحلم :

حذر المعبرون الملك من شخص متبادل يحسبه الملك خروفاً ، وقالوا إنه
قد يلقى بالملك من شاهق مركزه ، أما تغير مجرى الشمس فينبئ عن تغير الحكومة ،
وإن كان تغيراً محمود العاقبة ، لأن الشمس كانت تجرى من اليسار إلى اليمين .

الأهموم عندهم غير الرومان

٢٢ - ولكن فلنعد الآن إلى أمثلة أخرى - من الأحلام التي وقعت لغير
الرومان - فإن هراقليدس من أهل بوتوس Heraclides Ponticus وهو رجل
من أهل العلم ، وأحد تلامذة أفلاطون وحواريه - يقص رؤيا رأتها أم
فالاريس Phalaris فيقول إن الكرى قد عقد أجفاتها ، فرأت نفسها تنظر إلى
صور الآلهة المقدسة القائمة في بيتها ، وإذ بتمثال ميركيوري Mercury
يصب الدم من قارورة في يده اليمنى ، وما اتصل الدم بالأرض حتى رؤى
وكأنه ينبثق منها في غزارة حتى ملأ رحاب البيت ، وقد تحققت هذه الرؤيا
فيما بعد ، بما أبداه ابنها من قسوة خلت من مظاهر الإنسانية .

وهل تراني في حاجة إلى أن أقدم لك من التاريخ الفارسي الذي وضعه
دينون Dinon أحلام الأمير المعروف كايروس Cyrus وتأويل كهنة الأقدمين
لها . . ؟ إليك هذا الحلم على سبيل المثال :

(١) هو « لوكيوس أكيوس » وقد وضع كثيراً من المآسي بعدد « باكوفوس »
بقليل ، وقد ذاعت شهرته في قنصلية دكيوس بروتس حول عام ٦٢٥ من تقويم
روما (ديماريه) .

رأى كايروس في حلم له ذات مرة أن الشمس قائمة عند قدميه، وقد حاول عبثاً — فيما يقول دينون — أن يمسكها ثلاث مرات، وفي كل مرة تبتعد عنه وتهرب منه، ثم اختفت أخيراً، وأنبأه كهنة الفرس القدامى — الذين كانوا يعتبرون بين الفرس حكاماً وعلماء — بأن إمساكه للشمس ثلاث مرات، يفيء بأنه سيتولى الحكم ثلاثين عاماً^(١)، وقد تحقق هذا، لأنه عاش حتى بلغ السبعين من عمره، وكان قد بدأ الحكم في سن الأربعين.

ومن المحقق أن البرابرة بدورهم قد أوتوا القدرة على سبق النظر والتنبؤ بالمستقبل، إذا صحت القصة التالية التي وقعت للهندي كالانوس^(٢) Callanus إذ بينما كان مشرفاً على الموت، مرتقياً كومة الخشب التي يحرق عليها جثمانه قال: ما أجله من موت، إن مصير «هرقل» Hercules قد قدر لي، إذ عندما يحترق هذا الجسد الفاني، تجدد النفس النور، ولما طلب إليه الإسكندر أن يتكلم إن أراد أن يقول شيئاً، أجابه قائلاً: «أشكرك، لالشيء سوى أني سأراك قريباً جداً، وقد تحقق ما قاله، لأن الإسكندر قد مات في بابل بعد أيام قليلة.

لقد ابتعدت عن الأحلام قليلاً، ولكنني سأعود إليها بعد حين، إن كل امرئ يعرف أن معبد «ديانا»^(٣)، في أفسوس، قد احترق في نفس الليلة التي ولدت فيها «أوليمپياس» Olympias ابنتها الإسكندر، وأن كهنة الفرس

(١) هذه هي مدة الحكم فيما يقال عادة، ولكن البعض يرون أنها واحد وثلاثون عاماً، فارن هيرودوت ج ١ ص ٢١٤ و Sulpic Sev. H.S, 11,9. (لويب)

(٢) قيل إنه كان برهانياً، وأنه أصيب بنفس حاد وهو في الثالثة والثمانين من عمره فاعتزم أن يموت على مرأى من الجماهير فوق كومة وقيد، وقد أحضر الإسكندر جيوشه لشهود هذا المنظر تكريماً له (ديماريه).

(٣) هي إلهة الخصوبة، وهي أكثر ما تسكون شهما بأزيس المصرية، أما «ديانا» الإيطالية فهي إلهة النور وهي ابنة «جوبيتر» و «لاتون» وهي إلهة الصيد ترسل الأوبئة والجذب، وتتخذ وتثني «ما»، وهي تقابل «آتميس» عند الإغريق.

القدامى ، قد أخذوا يصيحون مطلع النهار قائلين : لقد ولد ليلة أمس ، شقاء مهلك ينتظر آسيا - والآن دعنا من الحديث عن الهنود وكهان الفرس القدماء .

٢٣ - فلنعد إلى الأحلام ، يقول « كويليوس » ، Coelius (١) إن هانيبال قد همّ بالاستيلاء على عمود ذهبي في معبد « جونو » Juno في « لا كينيوم » - وهو رأس في جنوبي إيطاليا - وإذا كان في شك بما إذا كان هذا العمود من ذهب مصمت أو مغطى بقشرة من الذهب ، فقد ثقب فيه ثقباً ، فألقاه ذهباً خالصاً ، وعندئذ اعترم أن يختصبه ، ولكن « جونو » ، قد تبدت له في مساء هذا اليوم في رؤيا ، وحذرتة من مغبة الإقدام على هذا العمل ، وهددته بأن تفقده عينه السليمة إن أقدم على فعلته ، فلم يهمل هذا الرجل الذكي ذلك النذير ، بل لقد أمر بأن ينتزع بعض الذهب من ثقب العمود ؛ وتصنع منه صورة عاجل توضع في قتمه .

وزى قصة أخرى عن « هانيبال » وضعها باليونانية « سيلنوس » Silenus الذى يحتديه « كويليوس » ، والذى تناول حياة هانيبال بالدراسة الدقيقة ، ذلك أنه بعد استيلائه على « سغنتم » Saguntum قد رأى في حلم له أن جوبتر قد استدعاه إلى مجلس شورى الآلهة ، فلما بلغ المجلس . أمره « جوبتر » بأن يشعل نار الحرب في إيطاليا ، وقدم له أحد آلهة المجلس مرشداً له ، وقد اهتدى به « هانيبال » عند ما بدأ مسيره بجيشه ، وقد حذر هذا الإله « هانيبال » من أن يلتفت وراءه ، ولكن « هانيبال » - مدفوعاً بحب الاستطلاع - لم يستطع أن يصبر على ذلك طويلاً ، وتلفت وراءه فعلاً ، فرأى وحشاً مخيفاً ضخماً الجسم تغطيه الشعابن ، يقتلع كل ما يصادفه في طريقه من شجيرات وأشجار وبيوت ، فاستفسر هانيبال في دهشة عمّ يكون هذا الوحش الغريب ،

(١) يشير إليه المؤلف في الكتاب الأول من قوانينه ، باعتباره مؤرخاً من قدماء المؤرخين المتأخرين (ديماريه) .

فقال له الإله : إنه يمثل دمار إيطاليا ، وأمره بأن يمضى فى سبيله قدما ، وألا
يعبأ بما يقع وراءه وفى مؤخرته (١) ...

ونقرأ فى تاريخ وضعه « أجاثوكليس . Agathocles أن « هملكار »
Hamilcar القرطاجنى ، قد سمع أثناء حصاره لسيراقوص - صوتاً فى الحلم
ينبئ به بأنه سيتناول غداه فى اليوم التالى فى هذه المدينة ، وعند مطلع هذا اليوم
نشب صراع عنيف فى معسكره ، بين كتائب القرطاجين وحلفائهم من
أهل صقلية ، فلما رأى أهل سيراقوص هذا ، قاموا بهجمة مفاجئة على المعسكر
وحلوا « هملكار » حيا ، وهكذا تحققت الرؤيا بهذه الحادثة .

إن التاريخ حافل بمثل هذه الأحداث ، وحياتنا اليومية مليئة كذلك
بمظائرها ، ولكن دعنى أقص عليك حادثة أخرى :

كان ابن « كونتوس فايوس . Quintus Fabius » : وهو « بوبليوس
دكيوس » : Publius Decius صاحب الشهرة الطائرة أول من كان قنصلا
من أفراد هذه الأسرة ، وقد كان حاكما عسكريا ، فى قنصلية « ماركوس
فاليريوس » M. Valerius (٢) و « أولوس كورنيليوس » Aulus Cornelius
فى الوقت الذى كان فيه جيشنا يعانى من حملة مريرة قام بها « السمنيون »
Samnites وقد دفع « كونتوس » بنفسه إلى ميدان القتال بكل جرأة ،
فنصحوا له أن يكون أكثر حيلة وحذرا ، ولكنه أجابهم - فيما يقول
التاريخ - قائلا :

« لقد رأيت فيما يرى النائم أن موتى وسط الأعداء سيكسبني صيتاً مخلداً ،
ورغم أنه قد نجا بنفسه حينذاك ، وأنقذ الجيش من الأخطار التى كانت تحوطه ،
فانه عند ما تولى القنصلية بعد أعوام ثلاثة ، وقف للوت حياته (٢) ، فهجم
مكتمل السلاح على خط قتال اللاتين ، وأدركت الهزيمة أعداءه وأصحابهم

(١) فارن كتابى « قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة » ص ١٠٧ - ١٠٨ طبعة أول

(٢) فى عام ٢٤٣ ق . م (لويب)

(٣) أنظر « ليني » ج ٨ ص ٩ عن احتفالات التكريس (لويب)

الدمار من جراء هذا الإقدام ، فكان موته جليلاً ، حتى التمس ابنه أن يصيب هذه الشهرة نفسها ، ولكن فلنمض الآن — إن أذنت — إلى التحدث عن أحلام الفلاسفة :

أهمرم الفلاسفة :

٢٤ — ونقرأ في أفلاطون أن سقراط عندما كان في سجنه ، قال في حديث له مع صديقه « أقريطون » Criton ستدركني المنية بعد أيام ثلاثة ، فقد ترامت لي في الحلم سيدة فتانة الجمال وهتفت باسمي ، وأنشدتني هذا البيت عن هوميرو (١) :

سيطلع عليك بالبشر ، فجر اليوم الثالث وأنت آتد على شاطيء
فثيا (Phthia) .

وينبئنا التاريخ بأن مصرعه قد حقق هذه النبوءة ، ويسجل تلميذ سقراط وهو اكسانوفون — وأى رجل هو — تلك الأحلام التي ترامت له أثناء قتاله مع « كايروس » الأصغر ، وكيف كان تحققها رائعاً (٢) ، قبل تزعم أن اكسانوفون Xenophon كذاب أو مصاب في عقله . . ؟

وأرسطو ، الذي وهب عقلاً منقطع النظير ، يكاد يشبه العقول التي تمتاز بها الآلهة ، هل أخطأ أو حاول أن يخدع غيره فيما يروي عن صديقه إيدموس

(١) أشار مترجم لويب الى أن هذا مذكور في الالباذة ج ٩ ص ٣٦٣ ، وإلى أن Phthia مدينة في تساليا ، وهي تعبر عند سقراط عن مقره في السماء . وروى مترجم جارنييه أنها وطن « أشيل » وأن حلم سقراط مذكور في محاوره « اقريطون » . وفي الحديث نوع من اللعب بالألفاظ يدركه الملون باللغة اليونانية ، وقد أشار الأستاذ « تايلور » في مادة : أحلام Dreams في دائرة المعارف الدين والأخلاق إلى أن الحلم السالف شبيه بحلم فيثاغورى .

(٢) « اكسانوفون » في : Anab iii, 1.11; iv, 38. أو مترجم جارنييه فقد ذكر أن « اكسانوفون » في الكتاب الثالث في الفقرة الأولى من الكتاب المشار اليه قد روى عن نفسه أنه رأى حاماً ينيء عن الخير في جلته ، رغم أنه استيقظ منه مذعوراً وربما كان ينتظر أن يصيبه خطر دائم ، ولكن « زيوس » جنبه هذا الشر وربما كان للحلم مغزى آخر لا ينيء عن هذا الخير كله فيما يقول اكسانوفون — ولكن كوتوس لا يعاب بهذا الشك .

Eudemus^(١) القبرصى . . ؟ فقد قال عن هذا الصديق إنه كان ماضياً في طريقه إلى مقدونيا ، ثم بلغ « فرای » Pherae وهي مدينة طائفة الصيت في « تساليا » ، ولكنها كانت تئن تحت حكم الإسكندر^(٢) الطاغية الجبار ، وهناك اعتراه مرض بغيض يئس الأطباء من شفائه ، وقد رأى إبان مرضه رؤيا ظهر فيها شاب . فاتن الجمال ، وأنبأه بأن شفاه سيكون عاجلاً ، وبأن الإسكندر الحاكم الظالم سيختطفه الموت بعد أيام قلائل . أما هو — « إيدموس » — فسيعود إلى وطنه بعد خمسة أعوام . وفي الحق لقد تحققت النبوءة تان الأوليان على عجل كما قرر أرسطو ، فنقه « إيدموس » من مرضه ، وقتل الطاغية أخو زوجه . . وبعد انقضاء الخمس سنوات كان يأمل أن يعود من صقلية إلى قبرص ، اعتماداً على الرؤيا التي وقعت له ، ولكنه قتل في معركة نشبت أمام « سيرا قوس » واستناداً إلى هذا قالوا في تأويل الحلم ، إن المراد به أن تعود النفس إلى وطنها بعد أن تفارق الجسد .

ولنضف إلى شهادة الفلاسفة شهادة رجل واسع العلم ، وشاعر إلهي مطبوع ، ونعني به « سوفوكليز » Sophocles فقد سرق من معبد « هرقل »^(٣) طبق ذهبي ثمين ، فظهر الإله نفسه في رؤيا رآها « سوفوكليز » وأنبأه عن السارق ، ولكن « سوفوكليز » قد أهمل أمر هذا النبا الذي تراءى له مرتين ، فلما عاوده الإله بعد هذا ، مضى إلى المحكمة العليا للأثينيين Areopagus^(٤) ورفع

(١) فقد كتابه « إيدموس » قارن : Plut Dion, 22. (لويب)

(٢) قتله أخوة زوجته حول عام ٣٥٠ ق . م قارن Xen Hellen VI. 4.35. (لويب)

(٣) ينبغى أن نميز بين هرقل البطل ، وهرقل الأله الذى عرفته الديانة الفينيقية ، وقد كان « هرقل » علماً على كثيرين عند القدماء . وقد قرر « ديودور » أنهم ثلاثة وقال « شيفرون » إنهم ستة ، وزعم قارون : Croesus إنهم ثلاثة وأربون والأله « هرقل » فيما تقول الأساطير ، هو ابن جوبيتر و « الكمان » (باشليه وديزوبرى)

(٤) « الارويواجوس » محكمة أثينا ، وكانت تمنع ليلاً ، ولا تقبل مرافعة المحامين مخافة أن يتأثر القضاة بقصاحتهم ، وهذا النظام يذكرنا بمحاكم مصر القديمة ، وكانت إن قبلت دفاع المحامين حذرتهم من استخدام أساليب الفصاحة ، وغيرها من الطرق التى تمنع بالقضاء إلى غير العدالة . وكانت محكمة أثينا إلى عهد « سولون » أرستقراطية ثم أصبحت على يده تنولى الإشراف على الأخلاق والمعاداة ونحوها ، وكانت أول أمرها تبحث فى القضايا الجنائية ثم اختصت بعد هذا بشئون الإفتاء ، أما عدد قضاتها فكان يتغير فى كل عام — [باشليه وديزوبرى] .

الأمر أمام القضاة، فأمر هؤلاء بالقاء القبض على الرجل الذي ذكره سوفوكليس، وقد اعترف المدعى عليه بجريمته بعد التحرى، وأعاد الطبق المسروق، وهذا هو السبب الذي من أجله سمي المعبد بمعبد « هرقل المنبئ » .

الأعلام في المصادر الرومانية :

٢٥ - ولكن لماذا أسهب في تصوير ما سجلته المصادر الإغريقية، مع أن الأمثلة المستمدة من تاريخنا، تروقي أكثر مما تروقي أمثلة تلك المصادر؟ وهاك حلماً عرض له جميع مؤرخينا من الفايين Fabii والجيليين Gellii قديماً، وكويليوس Coelius حديثاً جداً، وذلك أنه عند ما كان يحتفل إبان الحرب اللاتينية لأول مرة بالألعاب النذرية العظيمة، دعيت المدينة فجأة إلى حمل السلاح، فتوقف الاحتفال بهذه الألعاب، ثم اعتزموا أن يعيدوها أخيراً، ولكن حدث قبل أن يبدأوا مزاولتها، وعند ما كان الناس يأخذون أماكنهم، أن اقتيد عبد يحمل نيراً إلى الملعب، وضرب بالمقارح^(١)، وبعد هذا رأى أحد العامة من الرومان حلماً ترمى له فيه شخص قال له إنه غير راض عن مرشد الألعاب، وأمره بأن يبلغ هذا إلى مجلس الشيوخ، ولكن هذا الروماني العامى لم يجرؤ على أن ينفذ ما أمر به، فكرر الطيف هذا الأمر مهدداً صاحب

(١) الألعاب النذرية هي التي كان يأمر بها أحد الحكام لتنفيذ نذر تقدم إلى أحد الآلهة في الوقت الذي كان يهدد المدينة خطراً، ويلوح لنا أن « شيشرون » كان يقصد من هذه الألعاب تلك التي كان يجريها ويقوم بها الكائناتور « ا . بوسوميوس توبرتوس » عام ٤٣٤ ق . م فيما يروي مترجم جاريه . وأشار « ديماريه » إلى أن الاحتفال بالألعاب كان يبدأ دائماً بدخول « بهلوان » والمراد بالدليل هنا هو - فيما تقول لوبيس - نفس العبد المشار إليه في النص، وقد كان الاحتفال يبدأ بضرب العبد حول الملعب، وكان هذا الروماني العامى « ت أتنيوس » . أنظر Livy 11. 36, Val. Max. 71. 4. ويضيف مترجم جاريه مصادر أخرى لهذه القصة : Tite, Live, 11. 36, Macrobe, Saturnales 1, 11,3-5. Denys d'Halicarnasse VII, 68, Vie de Coriolan. وإن وجد خلاف في رواية القصة في هذه المصادر، واسم الفلاح الذي وقع له هذا الحلم المذكور بعد قليل هو « تيتوس لا ينيوس » أو « لا تينوس » .

الحلم بالأذى إن أهمل طاعته ، ومع هذا فإن الروماني لم يجرؤ على طاعته ، وبعد هذا مات ابنه ، وتكررت الرؤيا نفسها للمرة الثالثة ، وعندئذ اعتراه مرض ، فأنبأ أصدقاؤه برؤياه ، وتحت تأثير نصيحهم حل إلى دار مجلس الشيوخ على محفة ، وقص رؤياه على أعضاء المجلس ، وسرعان ما استرد صحته ، وعاد إلى بيته تحمله قدماءه دون حاجة إلى التوكؤ على غيره^(١) ، ولهذا اعتقد المجلس في صدق رؤياه ، فيما تقول لنا القصة المتواترة ، وأعاد الاحتفال بالألعاب مرة أخرى .

وقد أنبأ « جايوس جرا كوس ، الكثيرين - فيما بروى » كويليوس ، نفسه - بأن أخاه « تباريوس » قد تراءى له في حلم عند ما كان يلتمس أن يعين في وظيفة الحاكم المنوط بالأموال العامة في روما - وكيل الخراج - وقال له : « مهما حاولت أن ترجى قضاءك ، فانك مُلاق نفس الميتة التي لقيتها أنا لاحالة » ، وقد وقع هذا قبل أن يصبح Gaius تريون العامة . ويقول « كويليوس » إنه سمع هذا من « جايوس » ، وأن هذا قد ردد النبأ لكثيرين غيره ، فهل تجد ماهو ادعى لليقين وأدل على الصدق من هذه الرؤيا ... ؟ ،

٢٦ - ولكن أرجو أن تنبئني عنم يستطيع أن يؤوّل الحلمين التاليين اللذين يطيل الحديث عنهما كتاب الرواقيين . . ؟ والحلم الأول يدور حول « سيمونيدس Simonides » الذي رأى مرة جثة رجل مجهول مسجاة فدقها في جوف الأرض ، ولما اعتزم أن يرحل بعدئ على ظهر سفينة ، تراءى له في رؤيا طيف هذا الميت وأنذره بالألا يقدم على السفر ، لأنه إن أبحر لاقى حتفه في السفينة ، ومن أجل هذا عدل عن عزمه ، وأما الآخرون الذين أبحروا فقد لاقوا حتفهم جميعا .

أما الرؤيا الثانية فهي شائعة شيوعا واسع المدى ، وخلصتها أن صديقين من « أركاديا » قد كانا في رحلة ، ووقدا على « ميغارا » ، واستقر أحدهما في فندق

(١) هذه مسألة يحسن تفسيرها السيكولوجي ، الملون بأثر الأيمان والاستهواء الذاتي .

ومضى الثاني إلى بيت صديق له، وبعد أن تناولا طعام العشاء ومضيا إلى الفراش، رأى الثاني في سكون الليل حلما تراءى فيه زميله، وهو يتوسل إليه أن يمد له يد العون، لأن صاحب الفندق يدبر خطة لقتله، ورؤّع الرجل من هذا الحلم أول الأمر فاستيقظ، ولكنه تاب إلى سكينة بعد، ولم ير شيئا يدعو للقلق فمضى إلى فراشه، ولما شرع في النوم عاد الطيف نفسه، وقال له قد ضمنت بموتى وأنا حى، فأتوسل إليك الآن أن تمنع بقاء جثتى بغير دفن، لقد قتلنى صاحب الفندق، وألقى بجثتى في عربة، وغطاها بروث الحيوانات، وإني أضرع إليك أن تكون فى الصباح عند أبواب المدينة قبل أن تبرحها العجلة.

وقد اقتنع الرجل بالرؤيا الثانية اقتناعا حمله على أن يقابل سائق العربة عند أبواب المدينة صباحا، ولما استفسر منه عما يحمل فى عربته، أدرك السائق الرعب، فنقل الرجل جثة صديقه من العربة، ورفع أمر الجريمة إلى السلطات، ولقى صاحب الفندق عقابه (١).

٢٧ — فأى حجة أقطع فى الدلالة على وجود الرؤيا التى تكون صدق

الإلهام الإلهى من هذا الحلم — السالف — ٢٠٠ ؟

ولكن لماذا نلتمس فى ثنايا التاريخ القديم ما يوضح فكرتنا ؟ لقد رأيت حلما كثيرا ما قصصته عليك، ووقع لك حلم آخر كثيرا ما قصصته على، ذلك أنى كنت حاكما على آسيا (٢)، فرأيتك فى حلم ممتطيا صهوة جواد، وقد وليت توجيهك شطر شاطئ نهر كبير، ثم غصت فجأة إلى قاع النهر واختفيت عن الأنظار، فتولانى الروح وأدركنى الخوف، ولكنك عدت إلى الظهور بعد لحظة ممتطيا الجواد نفسه، ثم صعدت إلى الشاطئ المقابل، وقد علا البشر حياك، وهناك التقينا وعانق كل منا صاحبه، أما المعنى الذى ينطوى عليه هذا

(١) قارن هذا فى الفقرة الخامسة والستين من الكتاب الثانى .

(٢) فى عام ٦١ ق . م قارن : Ad.lit. 1. 15 ولم يكن « كوتوس » قنصلا بل

كان حاكما على القنصل فى المرتبة « لويب » .

الحلم فقد أبانهلى فى يسر أولئك المهرة فى تعبير الأحلام فى آسيا ، فكان تكهننا بالحوادث التى وقعت فيما بعد^(١) .

والآن إلى حلمك ، وقد سمعته منك بالطبع ، ولكنى سمعته مرارا من مولانا سالوستيوس Sallustius^(٢) . ذلك أنك إبان نفيك الذى كان مجيدا لنا وشوفا على الجمهورية ، قد وقفت انقاء لظلام الليل عند بيت رينى فى سهل آتينا ، وبعد أن أصابك أرق شطرا طويلا من الليل ، غشيك نوم عميق ، ورغم أن رحلتك كانت تتطلب الإسراع ، فإن « سالوستيوس » قد طلب إلى مرافقيه التزام الهدوء ، ولم يأذن لأحد بإزعاجك إبان نومك ، ولكنك استيقظت حول الساعة الثانية ، وقصصت عليه رؤياك ، وقد بديت فيها حزينا تتجول فى أما كن قد أجدبت من السكان ، وقابلت « جايوس ماريوس » ، Gaius Marius بصفائه التى كانت حزمة من العصي تلتف حول بلطة^(٣) ، واستفسر منك عن سر حزنك ، فقلت له إنك نفيت من وطنك عنوة ، فطلب إليك ألا تدع للهموم سيلا إلى قلبك ، وأخذك من يمينك ، وسليك إلى أقرب حاجب روماني ليقودك إلى معبد الذكرى^(٤) قائلا ، إنك ستجد فى رحابه الطمانينة والأمان ، وعندئذ هتف « سالوستيوس » - فيما يقول هو نفسه - قائلا لك : « إنك ستعود من منفاك عودا سريعا محمودا ، وقد كنت معتبلا

(١) يشير إلى نفي « شيشرون » عام ٥٨ ق . م بإيماز من كاردوس وعودته المظفرة عام ٥٧ ق . م فياىروى مترجم لويب ، وكان حكم « كوتوس » فى آسيا فى الأعوام ٦٧ - ٦١ ق . وقد نفي شيشرون أثناء هذه الفترة فياىقول مترجم جارنييه ، وقد ناقش شيشرون هذا المثال فى الفقرة الثامنة والستين من الكتاب الثانى .

(٢) كان مولى « شيشرون » وقد أطلق هذا سراحة . وقد تبع شيشرون فى منفاه (لويب وديماريه) .

(٣) كشاهد على الانتصار (لويب) .

(٤) كان هذا هو المعبد الذى أقامه « ماريوس » احتفالا بانتصار « جوبتر » على ال Cimbrى عام ١٠١ ق . م وقد اجتمع فى المعبد مجلس الشيوخ عندما أقر عودة شيشرون من منفاه (لويب) . أنظر مناقشة شيشرون لهذا المثال فى الفقرة السابعة والستين من الكتاب الثانى .

بهذا الحلم — فيما يقول أيضا — وسرعان ماقرر المجلس في معبد «ماريوس» قراره المجيد بصدد عودتك ، بموافقة القنصل — وقد كان رجلا واسع الشهرة جديرا بكل تقدير — واستقبل قرار العودة بهتاف لم يسبق له نظير في قاعة حافلة مزدحمة . وقد نبئت بأنك حين سمعت هذا قلت : ليس ثمة برهان أغرب من هذا في الدلالة على الرؤيا التي يوحى بها الإلهام الإلهي .

نشأة الرؤيا الصادقة وملازماتها في رأى الفيلسوف :

٢٨ — ولكن ربما قيل في الاعتراض على هذا : « إن الكثير من الأحلام لا يصدق ، ولعل الأخرى أن يقال إن المعنى الذى يتضمنه هذا النوع من الأحلام خفى علينا ، ومع هذا فلنسلم بأن بعض الأحلام لا يصدق ، ولكن لماذا نكثر من الطعن في الرؤيا الصادقة ..؟ وهى في الواقع كثيرا ما تقع إذا استسلمنا للنوم ونحن في ظروف ملائمة ، أما إذا شرعنا في النوم ونحن مثقلون بالطعام والشراب ، فإن أحلامنا تضطرب وتفسد ، أنظر ما يقوله أفلاطون في جمهوريته على لسان سقراط (١) :

رأى أفلاطون :

عند ما يستسلم المرء للنوم ، وتكون القوة الناطقة من نفسه في تراخ وبلادة ،

(١) أفلاطون في بدء الكتاب التاسع من الجمهورية ص ٥٧١ (لويب) ولكن في تعليقات مترجم جارنييه ما ينبغى ذكره في هذا الصدد ، يقول إن أفلاطون يبحث في هذه القطعة الفكرة القائلة بأن الشهوات الضيقة التى يشبعها الإنسان إبان يقظته — وهذا يذكرنا برأى « فريد » — تخمد أثناء نومه — متى أوى إلى فراشه مسرعا في طعامه وشرابه ، أما إذا قامت العفة — أى ضبط النفس — في ظروف ملائمة فهلا يمكن للمرء أثناء نوم الجسد أن يحظى بالجللاء Lucidité ؟

وأول ما ينبغى ملاحظته — فيما يقول صاحب هذا التعليق — أن ترجمة « شيسرون » ناقصة وتوزعها الدقة .. إن « أفلاطون » لا يقول بأن النائم ستقع له أحلام هادئة وصادقة في تكهناتها ، وإنما يقول إن الصور التى ينتظر أن تبدو له في الحلم لن تكون مخالفة للقوانين ، بل متمشية معها ، وأن القوة الناطقة في نفسه ستربط بالحقيقة ارتباطا كلييا ، فهل معنى هذا أن هذا الجزء الناطق ستنهيا له معرفة المستقبل ؟ إن هذا التفسير — فيما يلوح لنا =

وتسكون القوة الشهوية التي تنطوى على الفظاظة والوحشية قد أفرطت في التهام الشراب وازدراء الطعام ، فان هذه القوة الأخيرة تطغى على القوة الناطقة وتدفع بالمرء إلى النوم دون عائق ، وفي مثل هذه الحال تكون كل رؤيا تتمثل أمام الخاطر خلوا من المنطق ، فيحلم النائم بأنه يزنى بأمه أو يفسق في رجل أو إله — وكثيرا ما يفسق في الحيوانات — أو قد يحلم بأنه يقتل إنسانا ويلطخ يده بسفك أثيم ، وأنه يقدم على أعمال فييحة دينية بغير مبالاة ودون استحياء .

أما إذا استسلم للنوم امرؤ دأبه الاعتدال والقناعة في حياته وطعامه ، وقوته المفكرة الناطقة نزاعة إلى أمر مشروع ، فياضة بأنبل الأفكار ، وتكون القوة (الشهوية) التي تغذيها اللذات البيمية لم يجهدا الإفراط ، ولم ينهكها التفريط — لأن القاعدة تقول : إن حد النطق لا يصح متى أدرك الطبيعة إفراط أو أصابها تفريط — وعند ما تفتقر — إلى جانب هذا — وتلين في مثل هذا الإنسان القوة الثالثة (الغضبية) التي تشتعل فيها نار الغضب ، وبهذا يحسن الإنسان ضبط القوتين اللاناطقتين ، عند ما يحدث هذا كله ، تضى القوة الناطقة المفكرة ، وتصبح مهياة لتلقى الرؤى قادرة عليها ، وعندئذ تكون أحلامه هادئة صادقة موثوقا بها ، هذا هو نص الألفاظ التي قالها أفلاطون تماما .

== يحتمل المناقشة، ثم إن أفلاطون يبر — في إحدى الجمل التي يحذفها « شيمرون » — عن الفكرة القائلة بأن النفس الناطقة تتجاهد لكي ترى وتشعر بما تجهل في غياهب الماضي والحاضر والمستقبل ، وهذا عندما تكون بمأمن من القلق الذي ينشأ عن السرور أو الأسف الناتج عن شهوة الحصول على شيء مرغوب فيه ، أى أن النفس تحاول معرفة الغيب عندما تكون نقية لا يعكر صفوها شيء ، ومعنى هذا بكل بساطة — فيما يلوح لنا — أن وظيفة العقل الحقيقية هي البحث عن الحقيقة . ويرى أفلاطون أن الرجل الظالم هو الذى تتحكم فيه شهواته الحيوانية بحيث تخفت صوت العقل ، ويضع في مقابلة ذلك ، الرجل يظل على العكس ساكنا أمام شهوته لا يريد ، ولا يتسرع في غضبه، أى الرجل الذى لا يتقاد عقله لنير نفسه ، ولا يعتقد صاحب هذا التعليق أن القطعة التي اقتبسها « شيمرون » عن « أفلاطون » تحمل دلالة غير هذا .

٢٩ — وهل تثق في آراء « أبيقور » أكثر مما تثق في آراء « أفلاطون » ؟
أما عن « كارنيادس » فقد كانت لذة الجدل تحمله على أن يقرر هذا الرأي
حيناً ، وذاك الرأي حيناً آخر ، وربما بدا لك أن ترد على هذا قائلاً : « ولكن
أبيقور يقول ما يعتقد » — إلا أنه لا يعتقد شيئاً يستند إلى العقل أو يجدر
بفيلسوف ١٠٠ فهل يجوز بعد هذا أن نعتبر هذا الرجل أعظم من « أفلاطون » ،
و « سقراط » اللذين يتفوقان على هؤلاء الفلاسفة الصغار بحلال اسمهما ، حتى
وإن لم يقدمنا دليلاً يبرر رأيهما ؟ .. إن النصيحة التي يسديها إلينا « أفلاطون »
هي أن نتهياً للنوم بأبدان مستعدة للاحتلام ، بحيث لا يعترى النفس خطأ
أو اضطراب .

رأى الفيثاغوريين :

ولهذا السبب يُظن أن الفيثاغوريين قد حُرّم عليهم الإفراط في أكل
الفول (١) لأن هذا النوع من الطعام ، يولد في المعدة الرياح ، ويؤدي إلى
حال من الصراع يتنافى مع ما ينبغي أن تكون عليه نفس تبحث عن الحقيقة ،
ولهذا فإن النفس عند ما تتجرد عن طريق النوم من علائق الحس ، تستدعي
الماضي ، وتدرك الحاضر ، وتتنبأ بالمستقبل ، إذ أن الجسم النائم وإن كان يشبه
في امتداده الجثة التي فارقتها الحياة ، فإن النفس فيه حية وقوية ، وتكون أوفر
حياة وأعظم قوة عند ما يدركها الموت وتتجرد من علائق الجسم كل التجرد ،
وهكذا تعظم قدرتها على التنبؤ كثيراً بدنوها من الموت ، ونذكر على سبيل
المثال هؤلاء الذين يعترهم مرض شديد مهلك ، إنهم يرون الموت وهو يوشك
أن ينقض عليهم ، وتترامى لهم الموتى في أحلامهم ، ويشتد نزوعهم إلى الشهرة ،

(١) قارن Tertul في كتابه عن النفس ، في الفصل الثامن والأربعين ، وبلاوتارك .
Sympos 9. 10 وبلايني H.N.XVII. 12 (لوبيس) وقارن رأى أفلاطون والفيثاغورية .
برأى مفكرى الإسلام في كتابنا « الأحلام » ص ١٣٧ — ١٣٨ طبعة أولى .

وفي مثل هذه الفترة يشعر الذين عاشوا على غير ما ينبغي أن يعيشوا، بأسف عميق لما قدموا من آثام .

الموتى وإرثك الغيب :

وقد دلت « بوسيدونيوس » Posidonius على قدرة المثرفين على الموت على التنبؤ بالغيب ، في قصته المعروفة التي رواها عن رجل من أهل « رودس » ، ذكر وهو على فراش الموت أسماء ستة رجال من عمر واحد ، متنبئاً بموعد مماتهم على الترتيب .

ويرى « بوسيدونيوس » أن الرؤيا التي تكون من وحي إلهام إلهي ، تجيء عن ثلاث طرق : أولها أن تكشف النفس الأشياء بذاتها ، لاتصالها بالآلهة ، وثانيها أن الهواء مليء بالنفوس الخالدة التي انطبعت فيها بجلاء آيات الحق ، وثالثها أن الآلثة تتحدث بنفسها مع الناس وهم نيام ، وعندما يدنو الموت — كما أسلفت من قبل — يسهل على الناس أن يميزوا شواهد المستقبل ، وتشهد بهذا تلك القصة التي رويتها عن « كالانوس » Callanus^(١) ويؤيده وصف « هوميير » لهكتور الذي تنبأ عند موته بأن « أشيل » سيموت مبكراً .

الطبيعة البشيرة والهجس :

٣٠ — ومن البين أننا ما كنا لنستخدم في حديثنا الجاري هذا الاستعمال المؤلف للهجس السابق بما سيقع ، إذا كانت القدرة على هذا الهجس لا وجود لها إطلاقاً . وفي البيت التالي المعروف الذي نظمته « بلاوتوس » Plautus^(٢) ما يوضح استعمال الهجس :

(هجست النفس عند ما بارحت الوطن منبئة بأن رحيلي عبث لا طائل

(١) انظر الفقرة الثامنة والعشرين من الكتاب الأول هنا . ثم قارن هذا باتجاه مفكرى الإسلام في كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » .

(٢) الألياذة ج ٢٢ ص ٣٥٨ (لويب) .

(٣) Aulular 11.2.1. (لويب) .

تحت (ويراد بالهجس^(١) أن يوهب المرء إدراكاً حسيّاً حاداً ، ولهذا يطلق على بعض المسنات من النساء : الهاجسات^(٢) ، إذ المفروض أنهن واسعات العلم بالأمور ، وأضيف الهجس للكلاب كذلك ، وقيل للمرء الذى يعرف شيئاً قبل وقوعه ، إنه صاحب هجس بما يقع ، أى أنه يدرك بحسه المستقبل قبل انكشافه .

وإذن فى النفس الإنسانية ملكة ملازمة لها ، تمكنها من الهجس أو سبق النظر بالمستقبل ، وقد بطن الله النفس بهذه الملكة ، وجعلها بإرادته جزءاً مكوناً لها ، فاذا تمت هذه الملكة على غير قياس ، فانها تسمى « مسأ أو إلهاما إلهياً » يقع عندما تفارق النفس البدن ، متأثرة تأثراً قوياً بآبداً واقع إلهية ، كما نرى فى المثال التالى ، إذ تقول « هكيوبا »^(٣) إلى ابنتها كساندرا Cassandra (لم هذا الجنون ، وما سر هذه العيون الملتهية ، وأين ذهبت تلك الحشمة وذاك العقل الذى زانك إلى عهد قليل . . .)

وقد أجابت كساندرا قائلة : (أى أمى يا أنبل النساء طرا ، إني مرسله لآلتي نبوءات ، لأن أبولو يدفعنى رغماً عنى ، ويجعلنى مجنونة لأنبيء عن المستقبل ، أيتها العذارى قرينات الشيبية إن رسالتى تشين أبى وهو خير الرجال ، أيتها الأم العزيزة ، إن الأسى والحزن يملأ قلبى من أجلك ، لقد أنجبت لبريام — سوى — خير الأبناء ، إنه ليؤلمنى أن يكونوا نافعين ، وأنا ضارة ، مطيعين وأنا عاصية) .

(١) أهل « ديماربه » ترجمة هذه الفقرة ، وأشار فى تعليقاته إلى أنها مجرد شرح لبعض المصطلحات اللاتينية واشتقاقاتها ، وأن من العسير نقلها إلى الفرنسية ، وأن إلهامها لا يؤثر لحسن الحظ فى سياق الحديث . ولكن مترجم جارنييه قد نقلها إلى الفرنسية وكذلك فعل Falconer فى طبعة (لويب) الإنجليزية .

(٢) كالساحرات (لويب) .

(٣) أنجبت « هكيوبا » من « بريام » ملك ترواده تسعة عشر طفلاً ، منهم « كساندرا » وقد فقدتهم جميعاً — على وجه التقريب — فى حرب « ترواده » وتقول الأسطورة إنها نسخت كلية ، وقد وضع « ايروبيدس » مأساة عن « هكيوبا » (باشليه وديزوبرى) .

مأرق هذه القصيدة ، وأبلغ تأثيرها في العواطف ، واتفاقها مع أخلاق
ناظمتها^(١). وإن كنت أسلم بأنها لا تمتشى مع موضوعنا ، ولكن الفكرة
التي أريد أن أؤكدها — وهي أن النبوءات الصادقة تظهر في حال المس — تعبر
عنها الآيات التالية :

(لقد أقبل ، لقد أقبل هذا المشعال الغارق في الدم والنار^(٢) ، بعد أن
أختمت عدة سنوات ، أيها المواطنون : النجدة النجدة لإطفائه) .
وليست « كساندرا » هي التي تتكلم بعدهذا ، ولكنه إله تمثل بشرا (فيني -
عن هجوم أسطول الإغريق ورجالهم على ترواده لاسترداد هيلينا) .

٣١ — إنني أعتمد في شرح فكري — فيما يلوح — على أساطير مستمدة
من شعراء المآسي ، ولكنك كنت المصدر الذي استقيت عنه مادة من نفس
النوع السالف الذكر ، ومع ذلك فإنها ليست خرافة ، ولكنها حادثة واقعية ،
ذلك أن « جايوس كوپونيوس Gaius Coponius » وهو رجل يمتاز بالكفاءة
والمعرفة الملحوظتين ، قد وفد عليك في « دايرخيوم : Dyrrachium^(٣) حينما
كان — كحاكم لروما — يتولى قيادة الأسطول الروماني ، وأنباك بتسكن رجل
من أهل رودس ، الذين كانوا يشتغلون في سفن التجديف ذات الصفوف
الخمسة التي يعلو أحدها الآخر ، وكانت النبوءة تقول إن بلاد الإغريق
ستغرق في بحر من الدماء في نحو ثلاثين يوما ، وأن « دايرخيوم » ستنب ،
ويلوذ المدافعون عنها فرارا ، فإذا ولوا الإديبار رأوا خلفهم منظرا رهيبا

(١) هذا النص ، والنصان التاليان ربما كانت مستمدة من « هكيوبا » لأكيوس أوربما
كانت مقتبسة عن « ألكسندرا » لأنيوس (لويب) .

(٢) الإشارة هنا إلى « باريس » الذي أبدوه في جبال « أيدا » بأسيا الصغرى ،
فماش راعيا هناك (ولويب) وفي سفح هذه الجبال تقوم مدينة تروادة وعلى قبتها حوكم باريس
(باشلي وديزبري) .

(٣) في أثناء الحرب الأهلية التي نشبت بين فيصرو « بومي » وقبيل معركة « فارسالوس »
(٩ أغسطس سنة ٤٨ ق . م) وانظر الفقرة الخامسة والخمسين من الكتاب الثاني .

لحريق مخيف ، بيد أن الأسطول الرومى سيعجل بالعودة إلى وطنه سليماً .
لم تثر هذه القصة قلقاً فى نفسك ، ولكنها أثارت إزعاجاً شديداً لهذين الرجلين
المثقفين : « مار كوس فارو » ، M. Varro و « مار كوس كاتو » ، M. Cato اللذين
كانا فى « ديراخيوم » ، حينذاك . وبعد أيام قليلة وصل « لاينوس Labienus
إلى ديراخيوم فارا من فارسالوس Pharsallus حاملاً نبأ فقدان الجيش ،
وسرعان ما تحققت بقية النبوءة ، قهبت مخازن الحبوب ، وتبعثت محتوياتها
واتثرت فى الشوارع والأزقة . وقد أبحرت فجأة مع رفاقك فى سفينة وقد
تولاكم روع مخيف ، فلما سرحتم البصر فى المدينة التى خلفتموها وراءكم ليلاً ،
راعىكم منظر اللهب ترسله السفن التجارية التى أشعل النار فيها الجنود الذين أبوا
اللاحاق بكم ، ثم تأكدت بأن النبوءة قد تحققت عند ما ترك الأسطول أعوانك .

صروح النبوءة رغم أخطائها :

لقد ناقشت موجزاً — ما استطعت إلى الإيجاز سيلاً — التنبؤ بالغيب
عن طريق الرؤيا والمس ، وهما — كما أسلفت من قبل — لا يقومان على
الصناعة (١) وكلاهما يعتمد على الاستدلال الذى يستخدمه عادة صديقنا
كراتيپوس Cratippus (٢) حين يقول : إن النفس البشرية قد صدرت
وأخذت — عن مصدر خارجى عنها — وعلى هذا تقوم خارج النفس
الإنسانية نفس إلهية ، فاضت عنها النفس البشرية ، وفوق هذا فإن الجزء
من النفس البشرية الذى وهب الحس والحركة والشهوات البهيمية ، لا يمكن .

(١) أنظر الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثانى (لويب) .

(٢) هو فيلسوف مشائى ، يتحدث عنه « شيفرون » على الدوام باحترام وتقدير . وقد
أقام مدرسة فى أثينا . وقد تبعه ابن شيفرون (أو اعتبر من أتباعه) فيما يظهر من مقدمة
De Officiis ويلوح لنا أن استدلاله المقتبسة من كتابه الذى وضعه عن التنبؤ عن طريق
الأحلام ، غير منتجة ، ولم يجد شيفرون عناء فى إظهار ما تنطوى عليه هذه الاستدلالات
من ضعف . كما يبدو فى الفقرة الثالثة والثانية والخمسين — بوجه خاص — من الكتاب
الثانى (جارنييه) .

تجريدته من علائق الجسم ، بينما نجد هذا الجزء الناطق الذى يفكر ، يشتهه نشاطه كلما ابتعد عن علائق البدن ، وهكذا كلما ساق « كراتيبوس » المثل لنبوءات صادقة عن طريق الجنة والرؤيا اختتم أدلته فى العادة على النحو التالى : « رغم أن المرء لا يستطيع أن يؤدى وظيفة البصر بغير العيون ، ورغم أن العيون قد تعجز فى بعض الأحيان عن أداء وظيفتها المعينة — الإبصار — إلا أن المرء الذى يستخدم عينه ولو إمرة واحدة ، فىرى فيها الأشياء على حقيقتها ، يعرف على وجه التحقيق ما هى الرؤية الصادقة ، وكذلك الحال فى التكهّن بالغيب ، فإن من المستحيل أن يقوم التنبؤ وتؤدّى وظيفته بغير ملكة التكهّن بالغيب . ، ورغم أن المرء الذى أوتى هذه الملكة قد يخطئ أحيانا فيصدر نبوءات باطلة ، إلا أن تنبؤ الكاهن تنبؤاً صادقاً ولو فى حالة واحدة ، كفىل بأن يقر وجود التنبؤ بالغيب ، ويستبعد افتراض المصادقة فى تأويله ، ولكن التكهّن قد صدق فى الكثير من النبوءات ، وهذا يوجب التسليم بصحته .

تأثير التنبؤ الصناعى : منهجه وأساليبه :

٣٢ — ولكن أساليب التكهّن الذى يعتمد على الحدس أو على الاستنباط من حوادث يقوم العرافون بملاحظتها وتسجيلها ، لا تعتبر طبيعية كما أسلفت القول (١) ، ولكنها صناعية . وهى تشمل النظر فى فحش الأحياء ، وفن العيافة وتعبير الرؤيا . وقد أبى المشاؤون التسليم بها ، وتولى الرواقيون الدفاع عنها ، وبعض هذه الطرق قائم على معلومات مسجلة ومتعاقبة ، كما تشهد بهذا الكتب التى وضعها أهل « أتوريا » عن التنبؤ بوساطة النظر فى الأحياء والرعد والبرق ، وكما تبينه الكتب التى وضعها ديوان العيافة التى تشترك أنت فى عضويته .

أما بعض ضروب التكهّن الأخرى فإنه قائم على الحدس المفاجئ والسريع ، ومثال هذا ما يرويه « هومير » عن كالكاس Calchas الذى تنبأ

(١) أنظر الفقرة السادسة من هذا الكتاب (لويب) .

بعدد السنوات التي تستغرقها حرب تروادة من عدد العسافير الدورية (١) .
وفي التاريخ الذي وضعه « سلا » Sulla نجد شرحاً آخر للتكهن بالحدس ،
تمثله حادثة شهدتها بعينيك ، إذ بينما كان يقدم القرابين في ديوان عمله في إقليم
نولا (٢) برز له فجأة ثعبان كان تحت المذبح ، فتوسل العراف « جايوس
پوستوميوس Gaius Postumius إلى « سلا » أن يشرع في الزحف توا ،
فاتصحح « سلا » بنصحه ، وغزا معسكر السمنيين Samnites الذي كان محصناً
تحصيناً قوياً ، — وهو يقوم أمام مدينة نولا —

ونجد مثالا آخر للتكهن عن طريق الحدس ، في حادثة وقعت
لـ « ديونيسيوس » Dionysius قبيل توليه الحكم ، ذلك أنه قام برحلة في إقليم
ليوتانين وترك حصانه في نهر فيه تيار دائري ، فابتلع الحصان وأخفاه عن
الأنظار ، واستنفذ ديونيسيوس وسعه في إنقاذه ، ولكن محاولاته ذهبت
عبثاً ، فانصرف إلى حاله مضطرباً اضطراباً شديداً — فيما يقول « فيلستوس »
ولم يمض في طريقه إلا قليلا حتى سمع صهيلا ، فالتفت وراءه فوجد — والغبطة
تملاًه — حصانه يتبعه في لطفة ، وقد اعتلى عرقة نخل يطن ، وقد تولى
« ديونيسيوس » الحكم عقب هذا النذير بأيام قلائل .

٢٣ — ثم كم من النذر تلقاها الاسبرطيون قبيل هزيمتهم الفادحة في معركة
« ليوكترا Leuctra (٣) فقد قعقع السلاح في معبد « هرقل » ، وتصيب تمثاله

(١) قارن إلياذة « هوميروس » ج ٢ ص ٣٠١ — ٣٢٩ ، ثم الأشعار التي اقتبست عن
« هوميروس » في الفقرة الثلاثين من الكتاب الثاني من هذا المؤلف (لوب) وفيها مناقشة
شيمرون لهذا المثال .

(٢) في « كباتيا » ولا يزال يحمل هذا الاسم . وقد كانت الحملة في الأعوام ٩١ — ٨٨
ق . م (لوب) ومناقشة شيمرون لهذا المثال في الفقرة الثلاثين من الكتاب الثاني .

(٣) مدينة صغيرة في يوتيا ، اشتهرت بالانتصار الذي أحرزه الطيبون سنة ٣٧١ ق . م
بقيادة « إمامينوداس » Epaminodas على الاسبرطيين في عهد الملك « كليبروت »
الذي قتل في المعركة (لوب وديماريه) .

عرقا ، وفي نفس الوقت كانت أبواب هذا المعبد في « طيبة » ، وكانت مغلقة بقضبان — فيما يقول « كالستانس Callisthenes » فانفتحت فجأة من تلقاء نفسها ، ووجد السلاح الذي كان مثبتا على حوائط المعبد ، ملقى على أرضه ، وبينما كانوا يقدمون القرابين للآله « تروفونيوس Trophonius »^(١) في مدينة لباديا في بيوثيا ، أخذت الديكة المجاورة تصيح في نفس الوقت صياحا شديدا ، دون أن تكف عن الصياح ، وعندئذ أعلن عيافو « بيوثيا » أن الانتصار سيكون حليف الطيبين ، لأن من عادة الديكة أن تلتزم الصمت عند الهزيمة ، وترفع بالصياح صوتها عند الانتصار .

وقد تلتق « الاسبرطيون » في هذا الوقت كثيرا من النذر الزاجرة التي تفبهم بهزيمتهم الموشكة في « ليوكترا » . فمن ذلك ظهور تاج من الحشائش البرية ذات الشوك الكثير ، تبدى فجأة على رأس تمثال مقام في دلفي تكريما لاوسع الاسبرطين شهرة ، وهو « ليزاندر ، Lysander » ثم إنهم أقاموا في معبد « كاستور » و « بولوكس » Castor. & Pollux. في دلفي بعض نجوم ذهبية احتفالا بالانتصار الباهر الذي أحرزه « ليزاندر » على الأثينيين^(٢) ، إذ قيل إن هذين الألهين قد شوهدا في صحبة الأسطول الاسبرطي أثناء هذه المعركة ، ولكن هذه الرموز الألهية — أي النجوم الذهبية التي أسلفنا الإشارة إليها — قد سقطت قبيل معركة « ليوكترا » واختفت عن الأنظار فلم يرها أحد بعد . ولكن النذر الزاجرة التي تلقاها الاسبرطيون ، كان أكبرها خطرا هذا التنذير :

(١) هو فيما تقول الأسطورة النحات الذي شيد معبد أبولو في دلفي — تحت الأرض — وأقام بيت مال الملك « هيرينس » في بيوتيا . وتذكر (لويب) و (ديماريه) أن مهبط وحى « زيوس تروفونيوس » كان مقاما في كهف في مدينة لباديا الصغيرة ، وأن الناس كثيرا ما كانوا يحجون إليه ، قارن : Athenaeus, 614 A, Aristoph. Nubes 508 . وانظر رد شيشرون على مثال الديكة في الفقرة السادسة والعشرين من الكتاب الثاني .
(٢) في Aegospotami عام ٤٠٥ ق . م (لويب) .

أرسلوا في استنباة وحى «چوپتر» في «دودونا» بصدد احتمالات الانتصار ، وبعد أن أقام رسلهم الوعاء الذي يحوى الأنصبة^(١) في حينه بعثر الأنصبة قرد كان يحتفظ به ملك «مولوشيا» Molossia لتسليته ، وأخل بكل شيء كان يستخدم في استنباة الوحي ، وبعثه في كل الجهات . فقالت الكاهنة التي كانت منوطة بالوحي - فيما قيل لنا - ينبغي أن يفكر الاسبرطيون في التماس السلامة ، لافي طلب الانتصار .

بمغبة او استخفاف بنذر الزمهر :

٣٤ - ثم ألم يؤدّ استخفاف «جايوس فلامينيوس G. Flaminius»^(٢) بالشواهد الزاجرة - عند ما كان قنصلاً للمرة الثانية - إلى نكبة فادحة أصابت الجمهورية في الحرب البونية الثانية . ؟ إذ بعد أن استعرض جيشه ، نقل معسكره ومضى إلى «أريتيوم» Arietium لياتقى بهانيبال ، فكبا به حصانه فجأة أمام تمثال «چوپتر ستاتور» : Jupiter Stator^(٣) لغير ما سبب ظاهر ، وقد اعتبر

(١) كانت الأجوبة في بطاقات توضع في جرة أو وعاء ، ويقوم بسحبها أحد الأطفال . وكانت معدة بحيث تجيب على الأسئلة . وكان ملك «مولوشيا» هو «ليوتولم» وهو أبو «أوليمياس» أم الاسكندر (ديماريه) ومناقشة شيشرون للأمثلة المذكورة في هذه الفقرة تراها في الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الثاني .

(٢) «جايوس فلامينيوس نبوس» G. Flaminius Nepos وقد هزمه هانيبال وذبحه عام ٢١٧ ق . م عند بحيرة ترازمين ، بعد أن فقد «فلامينيوس» خمس عشرة ألف فرقة . قارن : Livy XXI, 57, 63 (لوب) . وانظر وصف هذه المعركة في كتابي «قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة» ، طبعة أولى من ١٢٥ ، ٢٦ وفي ص ١٢٨ صورة لبعض الهاربين من جيش «فلامينيوس» وترى مناقشة شيشرون لهذا المثال في الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الثاني .

(٣) هاجم السابين الرومان ، فأعاد الرومان الكرة عليهم ، ونذر «ريميلوس» إلى «جوبتر» أن يقيم له معبداً في نفس المكان باسم «جوبتر ستاتور» ، واستشعر الرومان بعد ذلك القوة . وبعد مضي أربعمئة عام ، نذر «م . أتيلوس رجيلوس» نذراً شبيهاً بهذا في معركة ضد «السمنين» ليوقف الرومان الذين يلوذون فراراً . وقد أصاب توفيقاً مشابهاً (ديماريه) . هذا المثال ونحوه لا يزال موضع اعتبار في نظر عامة المصريين الذين يمتدنون في الفأل والطيرة إلى يومنا الحاضر . ١٠٠

العرافون هذا نذيراً إلهياً اجرا عن الاشتراك في المعركة، ولكن فلامينيوس لم يعبأ بما قالوا، ولما استنبأوا الفأل عن طريق الكتا كيت حين تطعم^(١) نصح ولى الكتا كيت المقدسة بإرجاء المعركة، ولكن فلامينيوس قال له «هب أن الكتا كيت قد كفت عن الطعام، فبماذا تنصح في مثل هذه الحال...؟» فأجابته قائلاً: «يجب أن تبقى في المعسكر» فقال «فلامينيوس» ما أجمله من قال أو زجر، ذلك الذى ينصح بالإقدام على العمل عند ما تكون حوصلة الكتا كيت فارغة، وبالكف عنه متى كانت تمتلئة...! وأصدر أمره بأن تنشر الأعلام، وأن يتبعه الجنود. ولما أخفق حامل علم الفريق الأول^(٢) فى حل علمه، تقدم لمعوته كثير من الجنود، ولكن على غير جدوى. ولما أنبأوا بذلك «فلامينيوس»، استخفّ بالأمر، جرياً على مألوف عناده، فكانت النتيجة أن تمزق جيشه إرباً إرباً فى ثلاث ساعات، وذبح هو نفسه فى المعركة.

ويضيف «كويليوس» Coelius حادثاً أوسع من هذا شهرة فى نفس الوقت الذى كانت تثار فيه هذه المعركة المشهورة، وقعت فى «ليجوريا» Liguria ببلاد الغال، وفى كثير من الجزر وفى سائر أجزاء إيطاليا، زلازل بلغت من الشدة والعنف حدّاً تصدع معه الكثير من المدن، وانخفضت بقاع فى كثير من المناطق، وغارت الأرض، وعلت الأنهار فوق مجاريها، وفاضت على ما يجاورها، واقتحم البحر مجاريها.

٣٥ — «إن ضروب الحدس الموثوق بها فى التنبؤ بالغيب، يحسنها الممتازون فى التكهن، ومن أمثلة ذلك أن «ميداس» Midas ملك «فريجيا» Phrygia الطائر الصيت، قد ملأت النمل فيه بحبوب الخنطة أثناء نومه وهو فى عهد الطفولة، فتكهن العرافون استناداً إلى هذا الحدث، بأنه سيكون ثرياً عريض الثراء — وقد تحققت نبوءتهم.

(١) قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول، والرابعة والثلاثين من الكتاب

الثانى (لويب).

(٢) قائد يتولى قيادة أربعمائة من المشاة (ديماريه).

وكان « أفلاطون » طفلاً مستغرقاً في نومه ، فاستقر النحل على شفثيه ، وأول السكان هذا بأن الطفل سيوهب حلاوة في الكلام نادرة المثال (١) .
تنبه بيلاغته أثناء طفولته .

ثم ماذا ترى في صديقك المحبوب الظريف « روسكيوس » Roscius (٢) . هل كذب فيأروى عن نفسه ، أو هل كذب أهل « لانوفيوم » : Lanuvium . عند ما قالوا عنه إنه كان طفلاً في مهده ، ونشأ في « سولونيوم » Solonium . — وهو سهل في إقليم لانوفيوم — واستيقظت مريته أثناء الليل على غير انتظار ، لأنها رأت الطفل في ضوء المصباح مستغرقاً في نومه ، وقد التف حوله ثعبان ، فاحتواها الرعب من جراء هذا المنظر الرهيب ، ورفعت بالاستغاثة صوتها ، وأبلغ أبوه الحادثة إلى العرافين ، فقالوا إن الطفل سيصيب شهرة ومجداً منقطع النظر ، وقد تحقق ما قالوه ، فنقش « بازيتيلس » : Pasiteles هذا المنظر بالفضة ، وصوره صديقنا « أركياس » : Archias (٣) شعراً .

« ثم ماذا تنتظر ؟ أنتنظر أن يتحدث معنا الآلهة المخلدون في الأسواق العامة وعلى قارعات الطرق وداخل البيوت . . . ومع أن من المحقق أنهم لا يظهرون أمام العين سافرين ، فإنهم ينشرون قوتهم في أرحب الآفاق ، وقد يرسلونها إلى مغاور الأرض حيناً ، ويمنحونها لبعض الكائنات البشرية حيناً

(١) يقول « أولمبيودور » في كتابه « حياة أفلاطون » إن أبويه قد وضعاه على جبل « هيبيت » عقب ولادته مباشرة ، كأنهما أرادا أن يثرا في نفسه القدرة على الهجس وهي التي يتحدث عنها « شيشرون » ولم يكن أفلاطون هو الوحيد الذي وقعت له هذه الحادثة في طفولته (جارييه) وانظر مناقشة شيشرون لهذا المثال وللمثال السابق له في الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الثاني .

(٢) كان ممثلاً هزلياً بارعاً . وكان يضرب مثلاً للتفوق وإتقان العمل ، ولشيشرون خطاب في مواهبه « لوب » .

(٣) كان هذا الشاعر من أنطاكية . وقد أصاب في روما تقديراً عظيماً « ديمايه » وقد ولد سنة ١١٩ ق . م أو قبل ذلك بقليل . وكانت أنطاكية تلى الاسكندرية في مجال العلم والثقافة ، ويصفه شيشرون بأنه شاعر وعالم ممتاز (مقدمة : H.G. Nall عن أركياس طبعة سنة ١٩٣٠) .

آخر . وقد كانت كاهنة دلني في أبولو ملهمة إلهاماً أرضياً (١) ، كما كانت كاهنة « سيبايل » ملهمة إلهاماً طبيعياً . ولماذا يثير هذا العجب في نفسك ..؟ ألسنا نرى كيف تختلف تربة الأرض في نوعها . ؟ فان بعضها مهلك مبيد ، كهذا الذي يقوم حول بحيرة « امبسانكتوس » Ampsanctus (٢) في مملكة « هرييني » Hirpinii والذي نراه في (بلوتونيا) في آسيا وقد شاهدت كليهما ، بل إنا لنرى إلى جوارنا بعض مناطق الأرض نافعا للصحة وبعضها الآخر ضارا بها ، وبعضها ينتج رجالا وهبوا الذكاء والوقاد وبعضها يلد رجالا يتصفون بالغباء والحمق وهذه الآثار المختلفة كلها يسفر عنها الاختلاف في المناخ والتباين في أشجرة الأرض (٣) . وكثيراً ما تهتز النفس اهتزازاً عنيفاً إذا رأت شيئاً معيناً . أو تأثر بنغم عميق أو غناء ، وكثيراً ما يكون للقلق أو الخوف هذا الأثر ...

في تأييد النبؤ الطبيعي والصنعي

السرايم الشعراء والمخطباء عند ديمقريطس وأفلاطون

٢٦ — ويشهد الإلهام الشعري بأن هناك قوة إلهية في باطن النفس الإنسانية ، يقول « ديمقريطس » ليس في وسع امرئ أن يكون شاعراً فحلاً دون أن تعتربه الجنة . ويرى أفلاطون نفس هذا الرأي (٤) . ولندع أفلاطون

(١) القروض أن الإلهام الإلهي كان يتصل بشئ عميق في جوف الأرض ، وكان يخرج منه بخار يزعمون أنه ينبيء عن النبي . وكانت الكاهنة تجلس عند مدخل هذه الفتحة على مقعد ذي ثلاثة أرجل ، لتعلن نبوءاتها (ديمقريطس ولويب) .

(٢) كانت هذه البحيرة في « سامنيوم » واشتهرت بأنها كانت مدخلا لمناطق الجحيم قارن فرجيل : Aen VII. 563 (لويب) .

(٣) هذه ملاحظة طيبة تردد صداها عند ابن خلدون في المقدمة ص وهي تنفي الدعوة التي روج لها حديثاً أمثال ريمان في التفرقة بين السامين والآريين .

(٤) يقول « كلبيان الاسكندري » في (Stromates VI. 18) إن أفلاطون يرى أن الشاعر كائن رقيق مقدس ، وأنه لا يستطيع أن ينتج إلا إذا كان ملهماً إلهاماً إلهياً أو مصاباً بجنون . ويضيف « كلبيان » هذا الرأي نفسه إلى « ديمقريطس » ويقول أفلاطون في محاوره فيدروس (٢٤٥ هـ) إن سقراط بعد أن تحدث عن المس الذي يصدر عنه النبؤ ، تناول الحديث عن الجنسة التي تلهم ربان الوحى ، وأعلن أن شعر المؤلف العليم بأسرار الفن ، والقتنع بأن هذه المعرفة هي التي جعلت منه شاعراً يحسن ضبط عقله عند القرض ، مثل هذا الشاعر سيأدل نجمه ، وينظم شعره على الدوام أمام أولئك الشعراء المصابين بجنون (جارنييه) .

يسميه مساً أو جنة إذا شاء ، بشرط أن يثنى عليه كما أثنى عليه في محاوره
« فيدروس » (١) .

ثم ماذا ترى . . ؟ أيمن أن يكون خطابكم أيها المحامون مثيراً للنفوس ،
كبير الخطر عند ستمعيه ، طلقا سلسا في نظرهم ، إذا لم تهتز نفوسكم اهتزازاً
عميقاً . . (٢) ؟ أقسم أني رأيت فيك مراراً وقدة الانفعال تبدى في نظراتك
وتتمثل في حركاتك ، حتى ظننت أن قوة ما ، قد انتزعت منك وعيك ،
وسلبتك الشعور بما تفعل ، وإذا سقطت لك مثالا آخر لهذه الوقدة . فهذا هو
صديقك « أيسبوس » Aesopus الذي رأيتها فيه ، وإن كانت عنده أقل اشتعالا .

وكثيراً ما تظهر الأطياف نفسها وكأنها مجسمة في مادة ، وإن كانت في
الواقع مفارقة لها ، ويشهد بهذا ما قيل إنه وقع لـ « برنوس Brennus » (٣)
ولكتابه من أهل الغال ، بعد أن قام بحملته الأثيمة على معبد « أبولو » في
دلني ، فإن القصة تقول إن كاهنة المعبد قد قالت لبرنوس وهي تتحدث في
مهبط الوحي . (سأحتاط مع العذراوتان البيضاوتان لهذا الأمر (٤)) .

وكانت النتيجة أن شوهدت هاتان العذراوتان تقاتلان أهل الغال ، وقد

غمر الجليد جيشهما . . !

(١) ص ٢٤٤ | (لويب) وقد كان « كوتوس » أخو شيشرون شاعراً ممتازاً (ديماريه)

(٢) نلاحظ أن شيشرون في الفقرة الحامسة والعشرين من الكتاب الرابع من
Tusculanes يقرر عكس هذا تماماً ، فيقول إن الخطيب كالمثل ، كلامها يلعب بالعاضة ،
ويثير الغضب أو يبعث الألم وما يشبهه ولكنه لا يحسه ولا يشعر به (جارنييه) .

(٣) ليس هو « برنوس » الذي استولى على روما ، ولكنه غيره يحمل اسمه ، وعاش
في عصر متأخر . وقد فتح مقدونيا وقتل بها عام ٢٧٨ ق . م (لويب) .

(٤) « أتنا » و « أرتس » (لويب) والأولى هي إلهة الحكمة والفنون والعلوم
والحروب عند الرومان وهي تشبه « مينرقا » عند الاغريق . والثانية تحمل الاسم اليوناني
الذي أطلق على ديانا . وكانوا في دلف وسيراكوس يقيمون لهذه الآلهة أعيادا تكرمها لها .
(باشليه وديزوري) .

تنبؤ المرضي عند أرسطو :

٣٧ - وقد ذهب « أرسطو »^(١) إلى القول بأن الذين يهدون من جراء المرض والمصابين بالسوداء ، تقوم في باطن نفوسهم قوة تمكنهم من سبق النظر والتنبؤ بالمستقبل ، أما أنا فإني أميل إلى الظن بأن مثل هذه القوة لاتعزى إلى المعدة المريضة ، ولا تنسب إلى المخ المضطرب ، بل على العكس ، إنها النفس السليمة وليس الجسم المريض ، هي التي توحى القدرة على التنبؤ بالغيب^(٢) .

أولاً الرواقية على قيام التكهن بالغيب :

والرواقيون ، على سبيل المثال - يقيمون وجود التكهن بالغيب على عملية الاستدلال العقلي التالي :

« إذا استقام وجود الآلهة من غير أن يكشفوا للانسان عن المستقبل المحجب ، كان هذا دليلاً ينهض على أنهم لا يحبون بني البشر ، أو أنهم هم أنفسهم لا يعرفون ماذا يخفي المستقبل المغيب عنا ، أو أنهم يظنون أن ليس للانسان مصلحة في معرفة ما ينطوى عليه عالم الغيب ، أو أنهم يظنون أن هذه النذر التي يرسلونها إلى الانسان عن المستقبل ، أمر لا يتفق مع كرامة الآلهة ، أو أنهم - أخيراً - وإن كانوا آلهة فانهم لا يستطيعون أن يقدموا شواهد معقولة على الحوادث المقبلة ، ولكن ليس صحيحاً أن الآلهة لاتحبنا ، لأنهم أصدقاء الجنس البشري والمنعمون عليه ، وليس صحيحاً أنهم يجهلون ما أصدرنا من أوامر وما رسموا من خطط - بشأن المستقبل - وليس صحيحاً أن ليس لنا مصلحة في معرفة ما ينتظر أن يقع لنا ، مادام العلم يمكننا من اتخاذ الحيطة له ، وليس صحيحاً أن الآلهة يظنون أن الكشف عن النذر السابقه لما ينطوى عليه المستقبل ، أمر لا يتفق مع كرامتهم ، إذ ليس ثمة سجية أفضل من خدمة

(١) قارن أرسطو : Prob XXX من ٧٤١ « لويب » .

(٢) هذا يناقض - فيما نرى - ما أسلفه كروتوس نفسه في الفقرة التاسعة والمعبرين

من إثبات القدرة على التنبؤ للمصابين بمرض شديد مهلك .

الإنسانية ، وليس صحيحاً أنهم لم يؤتوا القدرة على معرفة المستقبل المغيّب ، وإذن فليس صحيحاً أن هناك آلهة ، ورغم وجودهم فإنهم لا يكشفون للإنسان عن شواهد تنبئ عن المستقبل . ولكن هناك آلهة ، فهم إذن يقدمون مثل هذه الشواهد ، وما داموا يقدمونها فليس صحيحاً أنهم يضمنون علينا بطرق فهمها ، وإلا كانت شواهدهم عديمة المنفعة ، وإذا هم أرشدونا إلى طرق فهمها ، فإن القول بعدم وجود التكنن بالغيّب لا يستقيم ، وإذن فالتكنن بالغيّب قائم فعلاً (١) .

٣٨ - ومثل هذا الاستدلال يستند إليه كريسيوس ، و ديوجانس ، و اعتباراً في البرهنة على التنبؤ بالغيّب .

مبررات الاعتقاد في التكنن مع غموضه أسبابه :

وإذن فأى مبرر للشك تراه فيما ينطوى عليه موقفي - إزاء التكنن - من حق لا ريب فيه . ؟ . إنى أستند في هذا الموقف إلى منطق وحقائق وشعوب وأجناس ، وأعتمد على رأى الإغريق والبرابرة وأسلافنا من الرومان معا ، وتؤيدني فيه تلك العقيدة الثابتة التي اعتنقتها الأجيال ، ويرره عندي ما دان به أعظم الفلاسفة والشعراء ، وأحكم الناس وبناة المدن ومؤسسو الجمهوريات . ألا يكفي لإقناعنا هذا الذي انعقد عنده إجماع الناس ، وهل تنتظر الحيوانات لتضيف شهادتها إلى الموضوع كذلك . ؟ في الحق ليس ثمة أى دليل يمكن أن يقدم للكشف عن بطلان ما أسلفنا الحديث عنه من مختلف أنواع التكنن بالغيّب ، إلا أن يقال إن من العسير أن تقدم سبباً أو تكشف علة لكل ضرب من ضروب التكنن . إنك تستفسر قائلاً : « لماذا يوقف العراف تنفيذ مشروع ويرجئه إلى يوم آخر ، عندما يجد شقا في رثة الضحية ، ولو كانت الأحشاء الرئيسية صحيحة . ؟ ولماذا يميل الكاهن إلى الظن بأن الفأل ميمون إذا طار غراب ميامنة أو غراب من نوع آخر مياسرة ؟ . ولماذا يعتبر المنجم اقتران

(١) ناقش شيبرون هذا الاستدلال في الفقرات ٤٩ - ٥١ من الكتاب الثاني .

القمر بالكوكبين : جويتر وفينوس عند مولد طفل فألا ميمونا ، واتصاله بزحل أو المريخ زجراً مشثوما ؟. ثم لماذا يزجرنا الإله ونحن نيام ، ويفوته هذا الزجر ونحن أيقاظ . (١) ؟ وأخيراً لماذا تكشف « كساندرا » المعتوهة عن الحوادث المقبلة قبل وقوعها ، ويعجز « بريام » بحكمته عما استطاعته بخجلها .. ؟ إنك تسأل عن السبب الذي من أجله يحدث كل شيء . ؟ ولك مطلق الحق في توجيه هذا السؤال ، ولكن ليس هذا هو موضوع بحثنا ، فان المسألة هي : هل تحدث هذه الأشياء فعلاً أو لا تحدث . ؟ ولنقل على سبيل المثال أنى إذا أقررت بأن المغناطيس قد جذب الحديد وسحبه نحوه ولم أستطع أن أكشف لك عن سر هذا الجذب ، فانك تنكر كل الإنكار — فيما يخيل إلى — أن في المغناطيس مثل هذه القوة . هذا يمثل — على أقل تقدير — طريقتك التي سلكتها بصدد قيام القدرة على التنبؤ بالغيب ، رغم أن هذا ما أثبتته تجاربنا ، وأيدته خبرات غيرنا ، وأقره ما قرأناه في مختلف الكتب ، وما انحدر إلينا من تقاليد أجدادنا الأولين ، وهو أمر لم يرتق إليه الشك عند أوساط الناس قبل فجر الفلسفة التي كشفها الإنسان حديثاً ، ومنذ شيوعها لم يعتنق فيلسوف ما — أيا ما كانت شهرته — رأياً مخالفاً لما أسلفناه ، وقد أبنت لك عن رأى « فيثاغورس » و « ديمقريطس » و « سقراط » ولم أستبعد من القدماء إلا « اكسانوفان » ، وقد أضفت إليهم رأى أهل الأكاديمية القديمة والمشائين والرواقين . أما الفيلسوف الوحيد الذى تمرد على هذا الرأى فهو « أبيقور » ولكن لماذا يثير هذا القول العجب في نفسك .. ؟ وهل الرأى الذى اعتنقه « أبيقور » فى التنبؤ بالغيب ، أدعى إلى عدم الثقة من رأيه الذى يقول بأن ليس ثمة فضيلة بريئة عن الهوى ... ؟ .

٣٩ — ولكن هل ثمة امرؤ لا تستميله تلك الشواهد البيئنة الصائبة التي

(١) فى وسع معتق الرأى أن يجيبوا على هذا السؤال قائلين إن الإله لم يفته زجر الناس وهم أيقاظ ، ويستشهدون بالصوت الذى كان يزجر سقراط . ثم فى الأنبياء والرؤين شاهد على ذلك .

سجلتها يد الزمان . . ؟ فقد قرر « هومير » — على سبيل المثال — أن « كالكاس » كان خير أهل العياقة بين الإغريق ، وأنه تولى قيادة الأسطول الإغريقي أمام تروادة ، وقد كانت قيادته للأسطول — فيما يلوح لى — ترجع إلى مهارته في علم العياقة ، لا إلى براعته في فن الملاحة ، وقد كان « أمفيوكوس » : Amphilochns و « موبسوس » Mopsus ملكين في « أرجوس » Argos ولكنهما كانا من أهل الكهانة كذلك ، وقد قاما بتشديد مدن يونانية على شواطئ سيليسيا ، بل لقد ظهر قبلهما « أمفياروس » Amphiaraus و « تيرزياس » Tiresias^(١) اللذان لم يكونا من طعام الناس ولا كانا نكرة بينهم ، ولا صدقت فيهم تلك الكلمة التي وصف بها « أنيوس » أولئك :

[الذين يؤيدون باطل الآراء طمعاً في خدمة مصالحهم الشخصية] ولكنهما كانا يتمتعان بشهرة واسعة النطاق ، ويعتبران من أنبل الناس ، وقد كانا يتكلمان بالمستقبل مستنبئين الطيور في تغريدها وتحليقها في الجو .

ويقول « هومير » عند الكلام على « تيرزياس » إنه كان وحده حكماً عندما كان يقيم في المناطق الجهنمية ، أما من عداه فكانوا مجرد ظلال ضالة^(٢) . أما عن « أمفياروس » فقد أصاب في بلاد الإغريق شهرة أدت إلى تكريمه كما يكرم الآلهة ، وكان الناس يلتمسون رد الوحي على أسئلتهم في المكان الذي ثوى فيه .

ثم ألم يكن للملك الآسيوي « بريام » ابن اسمه « هلنوس » Helenus وابنة تسمى « كساندرا » قد اشتغلا بالنبوءات ، فكان أولهما عياناً ، وكانت أخته

(١) هو أبو « أمفيوك » وقد عرف أنه سينج في حصار الطيبين ، فاختفى فترة ما ، ولكن زوجته كشفت أمره ، فتبع « بولينيك » إلى طيبه حيث ذبح . أما الثاني تيرزياس فإنه عثر فيما يقال على ثعبانين في حالة اتصال جنسي (جماع) ، فقتل الأثني ، فتحول من هذه اللحظة إلى امرأة ، ولكنه صادف بعد سبع سنين ثعبانين آخرين في مثل الحال السالفة ، فقتل الأثني كذلك ، وسرعان ما تحول رجلاً . ثم استدعى حكماً بين « جوبتر » و « جونون » ولما كان حكمه في صالح الأول ، أفقدته « جونون » بصره ، فأراد جوبتر أن يعوضه عن فقد بصره خيراً ، فوجهه ملكة تمكنه من التكهن بالغيب — هكذا تقول الأساطير (ديماريه) .

(٢) قارن « هومير » في الأوديسا ج ١ ص ٤٩٢ (لويب) .

تتمكن بالمستقبل عند ما يعثرها اهتياج أو جذب ينبعث عن إلهام سماوى ،
وتدركها حال من يقظة النفس . ؟ وفى نفس هذا الصنف من الكهان — فيما
عرفنا من التاريخ الذى خلفه لنا آباؤنا الأولون — هؤلاء الأخوة ذوو الصيت
الذائع الذين انحدروا من أسرة « ماركوس » النبيلة (١) .

وأليس يقول لنا « هومير » بأن « بوليدوس » Polyidus الكورنثى (٢) ،
لم يكشف للناس عن الكثير من النبوءات فحسب ، بل أنه تفأ كذلك بموت
ابنه الذى اشترك فى حرب تروادة . . . ٤ .

ولقد كانت القاعدة عند القدامى أن الذين يتولون الحكم فى الدولة ،

(١) لم تنجب روما — ولا إيطاليا بوجه عام — نبيا ملهما ، وقد أخذت عبادة أبولو
تصبح شعبية فيما يقول بوشيه لوكليك : Bouché-Leclercq ح ٤ ص ١٢ — فى القرن
الثالث ، وكانت هذه العبادة قد دخلت منذ زمن طويل عن طريق كتب « سيابل » ولما
كانت انطرايات الحرب البونية قد ضاعفت من ميل الناس إلى الخرافات ، فقد عانت روما
لبان ذلك ضروب العلاج بالسحر ، وقاست من كثرة التنبؤات التى ذاعت فى مصنفات تولى
نشرها الدجالون من الناس ، وفى سنة ٢١٣ ق . م قرر مجلس الشيوخ أن يضع يده على هذا
الأدب الرخيص : (Tite-Live, XXV, 1.) ولكن وجدت بين هذه الكتب التى صودرت
نبوءتان لكاهن شعبي قديم يدعى « ماركوس » وقد تحققتا فيما بعد ، أما النبوءة الأولى وهى
التي سرعان ما عرف الناس صحتها — فهى التى تنبأت بالهزيمة اللاحقة فى موقعة « كانى »
وقد تنبأ بها قبل وقوعها بثلاثة أعوام . وأما — الثانية فقد أشارت — لطرد القرطاجيين —
بأقامة ألامب سنوية تكريما لأبولو (Tite-Live XXV, 12) ومال مجلس الشيوخ إلى قبول
هاتين النبوءتين اللتين عرفنا فى الوقت الملائم ، رغبة فى تقوية الروح المعنوية بين الرومان .
وإذا شئنا أن نعرف عنهما أكثر من هذا قلنا — واليقين فيما نقول ضئيل — أن مجلس
الشيوخ قد أمر بأن تحفظ هاتان النبوءتان إلى جانب كتب « سيابل » .

ولا يزال الشك القوى قائما بصدد هذا الرئي « ماركوس » فاننا لا نعرف الوقت الذى
عاش فيه . ومحدثنا شيشرون عن أخوين وهما ملكة التنبؤ بالنبوءة ، ولا يعرف .
Tite-Live إلا واحدا هو « ماركوس » . وبذا كر شيشرون فى الفقرة الخمسين رثيا آخر
مع ماركوس هو « بوليكوس » الذى لا نعرف عنه شيئا . ثم هل ثبت على وجه اليقين
أن ماركوس كان شخصية حقيقية . . . ؟ إن هذا موضع نظر (جارنييه) وقد أشار
مترجم لويب فى تعليقاته إلى أن « سرفيوس » قد ذكر هؤلاء الأخوة فى : Aen. VI 70 .
and 72 . باعتبار أنهم يستنبئون الوحي الذى حفظته لنا كتب الكاهنة « سيابل » .

(٢) قارن « هومير » فى الإلياذة ١٣ ص ٦٦٣ (لويب وجارنييه وديماريه) .

يهيمنون على شئون العيافة كذلك ، لأنهم كانوا يعتبرون التنبؤ بالغيب كالحكمة .
أمراً يتفق مع كرامة الملوك^(١) . وقد قدمت جمهوريتنا الشاهد العدل على
صدق هذا ، فكان ملوكها من أهل العيافة . وأخيراً فقد تولى المواطنون
الذين قلدوا وظائف الكهنوت - وهبوا نفس القدرة على التنبؤ بالغيب -
حكم الجمهورية مستندين إلى سلطة الدين^(٢) .

٤٠ - وكذلك القبائل التي لم تصب من المدينة حظاً ، كانت لا تستخف
بممارسة التكن بالغيب ، فكان في بلاد الغال مثلاً كهنة « الدرويديين » Druids^(٣)
وقد عرفت بنفسى واحداً منهم ، وهو « ديوفيا كوس » Divitiacus من قبائل
« أيدوى » Aedui ضيفك ومقرظك ، وقد ادعى بأنه أوتى هذا الضرب من
معرفة الطبيعة - ذلك الذى يسميه الإغريق « فسيولوجيا » ، وكان يلقي
بتكهنات مستخدماً العيافة حيناً ، والحدس حيناً آخر .

وكان قسس الفرس هم أهل العيافة وأرباب التنبؤ بالغيب بينهم ، وكانوا
يجتمعون بانتظام في معبد للعبادة والتشاور ، كما كنتم يجتمعون يا أهل
الكهانة قديماً في أيام الـ Nones^(٤) . ومن المحقق أن ليس في وسع امرئ
أن يتولى ملك الفرس ، إلا إذا عرف عمل هؤلاء الكهان نظرياً

(١) كان لليونان ملوك مدبرون على فن العيافة ، وقد ذكر كوتتوس أسماء بعضهم
مثل Amphiaraiis وقد كانت وظائف الكهانة في ديوان العيافة بروما يتقلدها الملوك كما
يظهر من كثير من نصوص هذا الكتاب (جارنييه) .

(٢) كانت الوظائف الكهنوتية التي يشغلها الملك يارسها فيما بعد ملك مقدس :
Rex. Sacrorum (لويب) .

(٣) الدرويديون كانوا عند الكلت القدماء من أهل الغال وبريتانيا وألمانيا . وكانوا
يتعبدون تحت أشجار السنديان .

(٤) كانت Ides في تقويم السنة عند الرومان القدامى هي اليوم الخامس عشر من شهر
مارس ومايو ويوليه واكتوبر ، والثالث عشر من بقية شهور العام ، أما Nones فكانت
في الخامس من يناير وفبراير وإبريل ويونيو وأغسطس وسبتمبر ونوفمبر وديسمبر واليوم
السابع من بقية شهور السنة .

وعملياً^(١). وقد نجد أسراً وقبائل كاملة يقف أبناؤها حياتهم على مزاولته هذا الفن ، فمن ذلك أن مدينة « تلمسوس » Telmessus في « كارييا » Caria قد ذاع عن أهلها أن فن العرافة أصيل فيهم . وفي مدينة « إليس » Elis في « بلوبونيسوس » Peloponnessus توجد أسرتان قد تسامع الناس زماناً طويلاً بشهرتهما في هذا الفن ، هما : « الياميدون » Iamidae والكلوتيديون Clutidate. وكانتا تمتازان بالمهارة الفائقة في ممارسته .

وكان الكلدانيون في سوريا أقدر من عرفوا في علم الهيئة ووحدة الذهن^(٣).

وكان أهل أتوروريا كذلك يمتازون بالبراعة في ملاحظة الصواعق وتأويل معانيها ، ومعرفة المغزى الذي يحمله كل رمز ، وينطوى عليه كل نذير زاجر . وهذا هو السبب الذي من أجله كان مجلس الشيوخ حكيماً عندما قرر وهو في أوج قوته أيام أجدادنا ، أن يسلم ستة^(٤) من أبناء البارزين من رجالنا إلى كل قبيلة من القبائل في أتوروريا لدراسة التكهن بالغيب ، مخافة أن ينتهي الأمر بهذه المهنة الجليلة إلى أن تفقد جلالها الديني بمرور الزمان ، وتحول إلى

(١) يتحدث سقراط في « القبياد » عن التعليم الذي يتلقاه ابن الملك الأكبر في فقرة قيل فيها إن هذا الأمير إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره ، عهد به إلى أربعة معلمين يختارون من صفوة الناس . أولهم أعلم الناس ، والثاني أعلمهم والثالث خيرهم سلوكاً والرابع أشجعهم . والأول يعلم ابن الملك سحر زرادشت بن هروماز [القبياد ١٢١ هـ] (جارنييه) .

(٢) قارن هيرودوت ج ٩ في الفصل الثالث والثلاثين (لوبيه) ويقول مترجم جارنييه إن لهؤلاء ذكراً في « هيرودوت » (والألياذة ج ١١ ص ٣٠٢ والأوديسا ج ١٥ ص ٣٦٠) .

(٣) يقول « يوشيه لوكليك » Bouché-Leclercq (ج ١ ص ٢٠٧) إن رواج علم أحكام النجوم ظهر في عالم البحر الأبيض المتوسط في اليوم الذي افتتح فيه الكاهن الكلداني « بيروس » Bérose الذي عاصر « أنتيوكس سوتر » و « بطلميوس » الفيلاذلفي التي افتتح مدرسة في « كوس » وعلم فيها التعاليم السرية للتنبؤ عند أهل بابل (جارنييه) .

(٤) يقول Val. Max : إنهم عشرة لا ستة ، ويختلف فيما إذا كان هؤلاء الشبان (الذين يسلمون) من أهل روما أو أهل أتوروريا ، أنظر Moser De div.p. 106 هامش

و Missowa, relig. und Kult.p. 548 (لوبيه) .

وسيلة للارتزاق (١) .

وقد كان «الفيريجيون» Phrygians و«البيسيديون» Pisidians و«الكيليكيون Cilicians» و«العرب» يعتمدون من جهة أخرى اعتماداً كلياً على الشواهد التي يدل عليها انطلاق الطيور في فضاء السماء .
وكان «الأومبريون» : Umbrians يحتذون هذا المثال — فيما هو متواتر .

البيئة محمد نوع التكهن

٤١ — وأنا من جانبي أعتقد بأن خلق الأمة هو الذي كان يحدد نوع التكهن الذي يعتنقه أهلها ، فالمصريون والبابليون الذين يقيمون في رحاب السهول الفسيحة التي لا تتخللها تلال تحجب عن عيونهم منظر السموات ، قد وقفوا انتباههم كله على أحكام النجوم .

أما أهل أتورريا فإن طبيعتهم تتميز بمزاج ديني حاد ، وكان من عاداتهم أن يكثروا من تقديم القرابين ، ولهذا وجهوا كل انتباههم إلى دراسة أحشاء الحيوانات . والملاحظ أن شواهد السماء كثيرة وشائعة بينهم ، ثم إن حالة الجو — فضلاً عن هذا — تؤدي إلى كثير من ظواهر الأرض والسماء ، وإلى

(٢) في الفقرة الثامنة والخمسين من الكتاب الأول ما يشير إلى أن روما قد حفلت — إلى جانب التكهن الرسمي — بكثير من الكهان والكاهنات الذين يمارسون هذا الفن توسلاً إلى اكتساب المال ، باستغلال ما جبل عليه الناس من سرعة التصديق ، وقد حاول الحكام ومجلس الشيوخ عدة مرات أن يضعوا حداً لهذه التجارة التي كانت موضع احتقار من الناس ومصدر خطر في بعض الأحيان . وفي عهد «كاتون لانسيان» Caton L'Ancien الذي دافع عن عيبه باستشارة الطيور والأحشاء والنجوم ، قرر مجلس الشيوخ نفي الكهان المرقين ، وفي سنة ١٣٩ ق . م طرد الكاهن المتغرب «كورتليوس هيسبالوس» Cornelius Hispallus الكلدانيين ، وطالبهم بأن يبرحوا إيطاليا في عشرة أيام . وإن كانت كل هذه الاجراءات لم تنته إلى نتيجة حاسمة في مقاومة هذه الأساليب . وفي الوقت الذي كان يضع فيه شيمرون هذا الكتاب كانت روما مكتظة بدعي القدرة على التكهن من طغام الناس . وبعد بضع سنوات نفي «أجريبيا» Agrippa الذي كان منوطاً بالصرطة في روما أهل السحر والنجامة (Dion G. Cassius. XLIX,43) (جارنييه) .

وقوع بعض الخوارق في الحمل والولادة عند الأدميين والماشية ، ولهذا أدت هذه الأسباب الى تفوق « الأتوريين » في تأويل النذر الزاجرة (١) . وزيد أن نلاحظ أن القوة الكامنة في مثل هذه الطرق التي تستخدم في التكهن ، توصلها تمام التوضيح تلك الكلمات التي وضعها أجدادنا في دقة للدلالة عليها (٢) . أما العرب والفيريجيون والكلتيكيون فانهم انصرفوا إلى تربية المواشي ، ولهذا كانوا يتجولون على الدوام في السهول والجبال صيفاً وشتاء ، فكانهم هذا من دراسة الطيور في تغريدها أو تحليقها في فضاء الجو ، ويصدق هذا على البيسديين وعلى مواطنينا الأومبريين .

أما أهل « كاليا » — ولا سيما « التلسيين » منهم — وقد أسلفنا الإشارة اليهم ، فانهم يقيمون في بلاد تمتاز تربة أرضها بالغنى والخصوبة غير المألوفة ، ولهذا وجهوا اهتمامهم إلى دراسة الخوارق .

أثر التكهن في توجيه الحكومات والشعوب قديماً

٤٧ — ولكن من ذا الذي فاته أن يلاحظ أن استنباء الطيور وسائر أساليب التكهن بالغييب ، تزدهر أيما ازدهار في أعظم الأمم نظاماً ؟ وأي ملك أو شعب لم يستخدم التنبؤ في شئونه ؟ لست أقصر الحديث على عهود السلم ، بل أخص أوقات الحروب عند ما يشتد النزاع ويقوى الصراع ابتغاء الطمأنينة ، ولنغفل الحديث عن مواطنينا الذين لا يقدمون على عمل أثناء الحرب ، إلا إذا سبقوا إلى النظر في أحشاء الحيوانات ، ولا يحققون أمراً إلا بان السلم إلا إذا التمسوا الفأل والطيرة من سانح الطيور وبارحها .

(١) تارن شيمرون في طبيعة الآلهة (N.D.ii, 3.7.) فهذه الفقرة تكاد تكون تكراراً لها (لويب) .

(٢) يرد في النص بعد هذه الجملة الكلمات التي وضعها الرومان للدلالة على طرق التكهن ، ومن الممكن أن نغفل ترجمتها إلى العربية كما أهمل ترجمتها (ديماريه) وإن ترجمتها مترجماً (جاننييه) و (لويب) .

ولمض إلى البلاد الأجنبية لنعرف كيف تزاول التنبؤ بالغيب :
فالأثينيون - على سبيل المثال لا يعقدون اجتماعا عاما إلا حضره أهل
التنبؤ من الكهان الذين يعتبرون التكهن جزءا من الدين ويسمونهم

Mantreis

وقد خصص الأسبرطيون رجلا من أهل العياقة ليتولى نصح الملوك ،
ويكون بمثابة المستشار القضائي لهم ، وقرروا أن يحضر الجلسات التي يعقدها
مجلس الشيوخ - وهذا هو اسم مجلس الأعيان عندهم - وكانوا في المسائل
ذات الخطر ، لا يهملون استشارة « وحى دلقي ، أو « جوبتر أمون ،
Jupiter Hammon أو « دودونا » : Dodona وقد سن « ليكورجوس » :
Lycurgus - وهو الذي تولى حكم الأسبرطيين مرة - قوانينه بسلطة وحى
أبولو في دلقي . ولما تم « ليزاندر ، بنقضها منعه الشعب من ذلك ، تهيبا من
السلطة التي أوحى بها . ثم إن حكام أسبرطة لم يقنعهم البصر بأمرهم إبان
اليقظة ، فكانوا ينامون في معبد في « باسيفاي Pasiphaë » ، أقيم في معقل على
كثب من المدينة ، لتراعى لهم الأحلام وهم نيام ، لأنهم كانوا يعتقدون أن
الوحى يصدق إن تلقوه وهم نيام مستريحون .

وإني لأعود الآن إلى الأحداث التي وقعت في بلادنا : كم من مرة أمر
مجلس الشيوخ الحكام العشرة ذوى الحكم المطلق ، أن يستوحوا كتب
الكاهنة في دلقي ؟ وكم مرة أصاخ فيها لإجابات العرافين في شئون لها
خطرها ؟ وإليك هذه الأمثلة .

عندما شاهد الناس شمسين مرة وثلاثة أقمار مرة أخرى ، وعندما تبدت
الشهب ، وعندما أشرقت الشمس مجلجلة ، وعندما لاحت السماء وكأنها تنشق
مليقة بكرات من النار^(١) كانت كامنة في جوفها ، وعندما هوت الأرض في

(١) أشار مترجم لوبيب إلى أن من المحتمل أن تكون كلمة : ignei قد سقطت من النص

اللاتيني الذي ينقل عنه . قارن : Gen Net. Quaesti 1.14 .

« بريقرنوم » Privernum وحمل النبا إلى مجلس الشيوخ ، وعندما زلزلت « أبوليا » Apulia زلزالها العنيف ، وغارت الأرض إلى عمق لا يتصوره العقل — في كل هذه الأحداث المنذرة التي زجرت الشعب الروماني عن شر الحروب الفتاكة والثورات المهلكة الجارفة ، كانت إجابات العرافين على وفاق مع أشعار كاهنة دلني .

ثم ماذا ترى في هذه الأحداث الأخرى ؟ عندما تصيب عرقا تمثال « أبولو » في « كوماي » Cumae وتمثال الانتصار في « كاييوا » . وعندما وقع هذا الخارق المنحوس ، وهو مولد الخنثى (٢) ، وعندما جرى نهر « أتراتوس » دما ، وعندما أمطرت السماء في فترات وجيزة الأمد — وابلًا من الحجارة حينًا والدم حينًا آخر ، والتراب تارة بل اللبن تارة أخرى (٣) . وأخيرا عندما أبرقت السماء على تمثال « سنتاور » Centaur المقام على تل « كابتولاين » ، Capitoline وسطعت على الأبواب ، وبهر ضوءها بعض الناس في « أفنتاين » ، Aventine وفي معبدى « كاستور » Castor و« بوللو كس » Pollux في « توسكولوم » Tusculm وعلى معبد التقوى في روما — ألم يتكهن العرافون في كل هذه الأحداث بأمور تحققت بعد وألم تتضمن الكتب التي خلفتها لنا الكاهنة « سيبايل » كل هذه النبوءات ؟

٤٣ — وفي أثناء حرب المارسي (٤) التي وقعت في العصر الحديث ، لجأ

(١) لا شيء يعرف الآن عن هذا النهر فيما يقول مترجم لويب ولكن (ديماريه) يقول إنه كان على كئيب من روما ولكنه كان صغيراً جداً حتى نسي اسمه بمرور الزمن ، ولا نعرف الآن عنه شيئاً .

(٢) يشير « يوليوس أوبسكونس » أكثر من مرة في كتابه « الخوارق » إلى مولد الأطفال الخنثين أو الذين يصعب تمييز جنسيتهم ، وكان النظر في الأحشاء يشير بقتل هذه المخلوقات الشاذة في أغلب الأحوال ، وذلك بإلقائها في الماء (جارنييه) .

(٣) تجد أيضاً من مثل هذه الأمثلة في كتاب « الخوارق » مؤلفه « يوليوس أوبسكونس » (جارنييه) وتجد مناقشة شيشرون لهذه الأمثلة في الفقرة السابعة والعشرين وغيرها من الكتاب الثاني .

(٤) خلال الأعوام ٩١ — ٨٩ ق م (لويب)

الناس إلى معبد « جونوسسيتا » Juno Suspita من جراء حلم رآته « كايكيليا » ،
Caecilia ابنة « كوتوس كايكيلوس متلوس » Q. Caecilius Metellus ،
وهو نفس الحلم الذي عرض لمناقشته « سيسنا » : Sisenna باعتباره رؤيا
معجزة ، من حيث إن نبوءاتها قد تحققت بتفاصيلها . ومع ذلك فقد ناقض
نفسه في آخر الأمر - متأثرا من غير شك بأحد صغار الأبيقوريين - وقرر
في غير منطق بأن الأحلام لا تستحق أن تكون موضع ثقة من الناس ،
ولكن هذا الكاتب نفسه لا يجد ما يقوله طعنا في الخوارق ، وهو يروى على
التحقيق أن حرب المارسي عندما اشتعل أوارها ، تصببت تماثيل الآلهة عرقا ،
وجرت الأنهار بالدماء ، وانشقت السماء ، وسمع الناس أصواتا تدوي من
مصادر مجهولة منذرة بحرب ضروس ، ثم شوهدت أخيرا تلك الآية التي
يعتبرها العرافون أكثر الشواهد دلالة على الطيرة ، وهي قرص الجرذان
للأتراس في « لانييوم » .

ثم ماذا ترى في القصة التالية التي تجدها في حولياتنا ؟ إذ في أثناء الحرب
التي ثارت بيننا وبين أهل « في » Veii^(١) فاضت بحيرة « البانوس » Albanus
وعلت المياه فوق شواطئها ، لجأ إلينا أحد أشراقهم ، وقال لنا إن النبوءات
التي تتضمنها كتبهم ، تقول إن مدينتهم لا يمكن أن تستسلم للأعداء والبحيرة في
فيضان ، وإذا أمكن أن تفيض مياهها وأن تتجه شطر البحر ، فإن نتيجة
الحرب تكون شؤماً على الشعب الروماني ، أما إذا صرفت المياه بحيث لا تبلغ
البحر ، فإن نهاية الحرب تكون في صالحنا ، واستناداً إلى هذه الأنباء حفر
أجدادنا الأولون هذه القناة العظيمة لتصرف المياه من بحيرة « البانوس »^(٢)

(١) بعد حصار امتد عشرة أعوام من ٤٠٦ - ٣٩٦ ق . م سقطت « في » في يد
« كاميلوس » Camillus قارت : Plutarch Camil 4; Livy V. 15. (لويب)
ومناقشة المثال تراها في شيشرون في الفقرة الثانية والثلاثين من الكتاب الثاني .
(٢) فارن Plutarch, Camillus, ch. 3 ff. ترى وصفا يوضح كيف بدأ مشروع
الرى المشار إليه هنا (لويب) .

ولما ضاق أهل « في » بالحرب آخر الأمر ، وأرسلوا الرسل إلى مجلس الشيوخ في طلب السلام ، قيل إن أحدهم قد أعلن بأن الهارب — السالف الذكر — لم يجرؤ على أن يعلن بقية النبوة التي يتضمنها كتب أهل « في » لأنها — فيما يزعم — قد تكهنت كذلك بغزو الغالين لروما مبكرا . وقد وقع هذا — فيما نعلم — بعد سقوط مدينة « في » بستة أعوام (١) .

٤٤ — وقد ترامت إلينا الأنباء بأن الحيوانات الريفية ، حماة الرعاة — عند الرومان — ، كثيرا ما سمعت أصواتها أثناء المعارك ، وأن الناس كانوا أوقات الفتن يتلقون نبوءات صادقة من أما كن مجهولة — ولدى من هذا النوع مثل كثيرة ، حسبك منها مثالين راثعين :

« قبيل غزو الغالين لروما ، سمع صوت صادر من بحر « فستا Vesta المقدس ، الذي ينحدر من سفح تل « بلاتين » ماضياً إلى الطريق الجديد وقال هذا الصوت : يجب أن ترمم حوائط المدينة وتصلح أبوابها ، فاذا أهملتم أمرها ، سقطت المدينة في يد الأعداء (٢) . ولكن هذا النذير لم يصادف اهتماما ، رغم امكان الاستجابة إليه ، فكفروا عن هذا الإهمال بعد وقوع التكبئة الكبرى ، بأن أهدوا إلى « أيوس » Aius المتكلم مذبحا ، نراه الآن محوطاً بسياج وملاصقاً للسر — السالف الذكر —

وأما المثال الثاني فقد ساقه كثير من الكتاب ، فعند وقوع الزلزال ، سمع الناس صوتاً صادرا من معبد « جونو » المقام فوق القلعة ، وقد أوجب الصوت أن تقدم خنزيرة حبلي قربانا للتكفير . ومن هنا سميت الإلهة « جونو » بالناصحة ، فهل تجرو بعد هذا على أن تستخف بهذه النذر التي أرسلها الآلهة واعتبرها أسلافنا موضع ثقة وتقدير ؟

(١) يصور : Tite—Live V, 15 هذه القصة في صورة تختلف عن هذه الصورة اختلافا

يسيراً (جارنييه) .

(٢) قارن « ليفي » ج ٥ ص ٣٢ ، ٥٠ (لويب) .

الفأل والطيرة عند الفيناغوريين وغيرهم :

وكذلك لم يخلع الفيناغوريون اهتمامهم على صوت الآلهة وحدها ، بل أدركت عنايتهم أحاديث الناس التي يسمونها بالطيرة والفأل . وقد كان على هذا التقدير أسلافنا ، ولهذا فقد كان من عاداتهم أن يقولوا قبل البدء بتنفيذ عمل ما : « اللهم سدد خطانا في أعمالنا وهبنا السعادة والتوفيق » ، وقد كانوا يبدءون الاحتفالات العامة بالشعائر الدينية قائلين : « الزموا الصمت » وكان المؤلف في العيد اللاتيني أن يقال : « فليمسك الناس عن النزاع ، وليكفوا عن الشجار (١) » ، وكذلك كان الحال في احتفال التطهير المقدس الذي كان يعقده من يشرع في تأسيس مستعمرة ، كما كان هذا حال القائد حين يستعرض جيشه والرقيب حين يحصى الناس ، كانت العادة عند هؤلاء جميعاً أن يتخيروا أناساً يحملون أسماء ميمونة ليقودوا الضحايا ، بل إن هذا هو نفس ما يفعله القناصل عند تعبئة الجيش ، إذ يلاحظون أن يحمل الجندي الأول اسماً ميموناً ، وقد فطنت أنت نفسك إلى اتخاذ أعظم حيلة عندما كنت قنصلاً وحينما توليت القيادة ، وقد اهتم أجدادنا كذلك بأن يكون الصندوق الأول فألاً ميموناً في انتخاب جدير بالثقة (٢) .

٤٥ — والآن فلأقدم لك أمثلة للطيرة والفأل ، قد أصابت من الشهرة خطأً موفورا : « كان لوكيوس باولوس » : Lucius Paulus قنصلاً للمرة الثانية ، واختير ليشعل نار الحرب في وجه الملك « پيرزس Perses ولما عاد إلى بيته

(١) كانت أيام العيد أيام سلام ، فيها يتوقف الصراع من أجل الحياة ، وكانت طليقات الشعب على اختلافها — وطبقة المييد من بينها — تنسى الفوارق التي تفصل بينها — وكانت المدن التي يقاتل بعضها بعضاً تحتفل مشتركة في أيام هذه العطلة بتقديم القرابين . (جارنييه)

(٢) فارن : Pro Murena 18.38 omen praerogativae وكان نظام التصويت يقوم على القرعة ، وكان صوت أول من في جماعة المائة يؤخذ كفأل لصوت التالي — فيما يقول : Heitland (لويب) .

في مساء اليوم الذي عين فيه ، لاحظ حين قبّل ابنته الصغرى « تيرتيا »
Tertia — وكانت لم ترل بعد طفلة صغيرة — أن الحزن كان يغلب عليها ،
فقال لها : « مابك يا عزيزتي » تيرتيا . . . ؟ فيم هذا الحزن ؟ فأجابته قائلة :
وآسفاه يا أبتاه ، لقد مات « بيرزا » فضم « باولوس » طفلة إلى صدره في
حرارة وقوة وقال لها : سأعتبر هذا فألا يابنتي — وقد كان « بيرزا » اسم كلب
صغير أدركته المنية .

وقد سمعت « لوكيوس فلا كوس » Lucius Flacus (١) الكاهن
الكبير لاله الحرب ، يروي القصة التالية :—

رغبت « كايكيليا » Caecilia ابنة « متلوس » Metellus في أن تهبي زواجا
لابنة أختها ، فضت إلى معبد صغير لتتلقى فألها — جريا على عادة القدامى —
ومرت فترة طويلة قبل أن تجلس الفتاة الشابة ، واستوت خالتها على أحد المقاعد
وقد ساد المكان الصمت ، وأخيرا ضاقت الفتاة بهذا الانتظار ، وقالت
لخالتها : « دعيني أجلس قليلا في مكانك » .

فقال الخالة « من المؤكد يا طفلي أنك ستأخذين مكاني ، وقد كان هذا
فألا ميمونا يبشر بما وقع بعد ذلك ، إذ ماتت « كايكيليا » بعد مدة وجيزة ،
وبنت الفتاة بزواج خالتها .

أنا أعلم يقينا أن ضروب الفأل السالفة قد تكون موضع استخفاف ، بل
قد تثير السخرية ، ولكن الاستخفاف بالشواهد التي ترسلها الآلهة للناس ،
ليس أقل من عدم الاعتقاد في وجود الآلهة .

تأييد فن العبادة مع عمومهم أسبابه :

٤٦ — وما حاجتي إلى الكلام عن أهل العياقة ؟ إن هذا عملك ،
وأرى أن واجب الدفاع عن استنباء الطيور سائحة وبارحه معاق في عنقك ،

(١) ربما كان « ل . فاليريوس فلا كوس » حاكم روما عام ٦٣ ق . م وقد تولى
شيشرون « الدفاع » عنه في قضية اختلاس عام ٦٠ ق . م (لويب) وقد ناقش شيشرون
القصة التي رواها في الفقرة الأربعين من الكتاب الثاني .

فقد أنبأك الكاهن « أفيوس كلوديوس » Appius Claudius عند ما كنت قنصلا ، بأن الطيور قد أنبأت إبان السلام ^(١) ، بأن حربا أهلية عنيفة ضروسا توشك أن تحدث ، وقد اشتعلت هذه الحرب بعد ذلك بأشهر قليلة ، ولكنك أخدمتها في أيام قلائل . وإنى لأثق في تكهنات هذا الرجل ثقة كبيرة ، إذ لم يقنع بترداد العبارات الترتيلية في فن العياقة ، فوضع وحده نظاما صحيحا للتكهن بالغيب ، مستعينا في ذلك بالشواهد التي خلفتها الأعوام الطوال ، وأنا أعلم أن زملاءك يستخفون به ويعتبرونه موضع سخريه ويسمونه « بيسيديا » Pisidian حيناً و « سوراويا Soran » ^(٢) حيناً آخر ، ويأبون أن يسلوا بأن العياقة قوة تمكن من سبق النظر أو معرفة المستقبل معرفة صحيحة ، ويزعمون بأن العياقة مهنة خرافية ، وقد اخترعها أهلها بمهارة الخداع الجهلة والسذج ، ولكن الحقيقة على خلاف ما يزعمون ، فلا أولئك الرعاة الذين تولى « روميوس » حكمهم ، ولا روميوس نفسه ، قد أوتوا من الدهاء ما يكفي لاختراع المعجزات التي يضللون بها الناس . . . إنه العناء والعمل المرهق الذي يتعرض له طلاب هذا الفن (العياقة) في تعلمه تعلماً صحيحاً ، هو الذي أغرى المنكرين بهذا الاحتقار البليغ ، لأن الناس يؤثرون أن ينكروا في ذلاقة استنباء الطيور سائحة وبارحة ، على أن يتحملوا مشاق تعلمه .

والآن أي شيء أوضح في دلالة على الأصل الإلهي أو استنباء الطيور من قصيدتك التي نظمها عنه ، وجعلت عنوانها « ماريوس » Marius

(١) لعياقة السلام قارن : Dio Cass. XXXVII. P. 40, Tac. Annal. xii,23 وكان يمكن لإجرائها في أوقات السلام وحدها . والظاهر أنها كانت تنبئ عن إمكان صلاحية الصلاة للدولة أو عدم صلاحيتها ، ويشار هنا إلى مؤامرة « كاتيلين » Catiline (لويب) .
(٢) أي كقلد للبيسديين وأهل سورا والثانية مدينة صغيرة في « لانيوم » في توسكانيا — أي آتروريا — أما البيسديون فكانوا يقفون حياتهم على استنباء الطيور . قارت الفقرة الأولى في الكتاب الأول هنا ، أما أهل سورا فقد اشتهروا بالخرافات (لويب وديماريه) .

لأن هذا أستشهد بك — على قدر استطاعتي — كمرجع لي في تأييد الرأي الذي أعتنقه (١).

٤٧ — أما عن فن العيافة الذي يعزى إلى « روميلوس » والذي أسلفت الحديث عنه ، فإنه كان فنا ريفيا وليس مدنيا ، ولم يتدعه « روميلوس » ليخضع به الجملة ، بل تلقاه عن رجال موثوق بهم ، وقد سلوه إلى ذرياتهم من بعدهم ، ولهذا فإن « انيوس » يروي القصة التالية عن « روميلوس » وأخيه « ريموس » وقد كان كلاهما عيافا [ذلك أن كليهما قد احتكم إلى الآلهة عند تأسيس مدينة روما ، ولكن الشواهد التي رأها « روميلوس » قد تغلبت على شواهد أخيه] (٢)

٤٨ — فلنعد إلى مناقشة الرأي الذي جنح بنا الجدل بعيدا عنه : هب أنى لا أستطيع أن أقدم سببا يبرر ما أسلفت ذكره من أحداث التكنن بالغيب ، وأنى لا أقوى إلا على بيان أنها وقعت على وجه التحقيق ، فأليس هذا جوابا كافياً « لا ييقور » و « كارنيادس » ، وماذا يهم إذا كان شرح التنبؤ الصنعى سهلا ميسورا ، وتأويل التكنن الطبيعى عسيرا نوعا ما ، لأن النتائج التى انتهت إليها ضروب التكنن الصنعى عن طريق النظر فى الأحشاء والبرق ونذر الزجر والتنجم ، قد أسفرت عنها ملاحظات استغرقت زمانا طويلا ، وهذا الوقت المديد الذى تستغرقه الملاحظات المتصلة ، يمدنا فى كل ميدان من ميادين البحث ، بشرة تتجاوز الحد فى مجال المعرفة التى يمكن اكتسابها دون تدخل الآلهة أو وساطة إلهامهم ، مادام تكرار المشاهدة يوضح المعلول الذى يتبع كل علة ، ويبين عن الشاهد الذى يسبق وقوع الحادثة .

(١) نظم شيشرون هذه القصيدة الصغيرة فى شبابه المبكر — فى أهل العيافة — وفرظ فيها « مارنوس » الذى ولد — كشيرون — فى « أربنوم » قارن شيشرون De leg 1.1 وقد تكلم عنها فى الكتاب الأول من قوانينه (لويب وديماريه) وخلاصة الشعر الذى أغفلنا ترجمته ، أن نسرأ نشب أطفاره فى ثعبان وطار به ، وأخذ الثعبان يتلوى وينهش لحم النسر حتى يضطره الى تركه — وهو شعر سخيف يردده شيشرون طمعا فى تخليد اسمه كشاعر ، (فيجمع بين الشعر والنثر والخطابة والفلسفة) .

(٢) أنظر كتابي « قصة الكفاح بين روما « وقرطاجنة » ص ٢٨ — ٢٩ طبعة أولى ١٩٠٤ المترجم

تأثير النبؤ الطبيعي

أما الصنف الثاني من ضروب النبؤ بالغيب فهو التكهن الطبيعي — كما قلت من قبل — (١) وهو — استنادا إلى التعاليم الدقيقة في الفيزيكا — يجب أن يعزى إلى الطبيعة الإلهية التي صدرت عنها نفوسنا وفاضت فيما يقرر أحكم الفلاسفة ، والكون تغمره النفس الأبدية والعقل الإلهي ، ولهذا وجب أن تكون النفوس متأثرة باتصالها بالنفوس الإلهية . ولكن القاعدة تقرر بأن الناس عند ما يكونون أيقاظا تستبد بنفوسهم مطالب الحياة اليومية ، فتبتعد النفوس بهذا عن الاتصال بالآلهة ، لأنها تكون مقيدة بحاجات البدن ومطالبه .

استبعاد التدريل العقلي من مجال التكهن .

ومع هذا فإن هناك فئة من الناس — وإن قل عديدهم — يجردون أنفسهم من علائق البدن وشهواته ، ويتولاهم ميل قوى إلى التأمل في الشئون الإلهية ، وبعض هؤلاء الناس يلقون نبوءات ليست نتيجة لإلهام سماوي مباشر ، ولكنها صدى استدلالهم العقلية ، فمن ذلك أنهم يتنبأون — استنادا إلى قانون الطبيعة — بحوادث بعينها ، كالفيضان أو ما ينتظر أن يقع من تخريب النار للسماوات والأراضين .

أما أولئك الذين غمرتهم شئون الحياة العامة بفيض تياراتها — كسولون Solon الأثيني (٢) ، فيما يصفه التاريخ — فانهم يكشفون ظهور البغي والعدوان قبل وقوعه بزمان طويل ، وقد يطلق على هذا الصنف من الناس « الذين أوتوا سبق النظر في المستقبل » أي « القادرون على معرفة المستقبل قبل تكشفه » ولكننا لانستطيع أن نسميهم « كهانا » كما أننا لانستطيع أن نسمى « طاليس »

(١) في الفقرة السابعة عشرة والثامنة عشرة من الكتاب الأول « لوبيب » وانظر مناقشة شيشرون لرؤيا في الفقرة الثامنة والخمسين من الكتاب الثاني .

(٢) قارن : Val Mex V.3.3, Diog Laert 1.48 (لوبيب) .

Thales الملطي كاهنا ، لأنه - فيما تقول القصة المتواترة - أراد أن يثير حيرة نقاده ، وأن يبرهن لهم على أن الفيلسوف قادر على جمع المال إن رأى ذلك مناسباً له ، فابتاع محصول الزيتون في إقليم ملطية قبل أن يزهر^(١) وربما تراه له استناداً إلى بعض معلوماته حول الموضوع ، أن غلة المحصول ينتظر أن تكون وافرة . وقد قول بهذه المناسبة إنهم يقولون عنه إنه كان أول من تنبأ بكسوف الشمس الذي وقع في حكم « استياجس » Astyages^(٢) .

٤٩ - وفي الكثير من الحالات يتنبأ الأطباء وأدلاء السفن والفلاحون بأمور تتكشف بعد ، ولكن لا أسمى تكهناتهم جميعاً تنبؤاً بالغيب ، ثم هذا الفيلسوف الطبيعي « أناكسياندر » Anaximander قد أئذراً الاسبرطين بأن يبارحوا مدينتهم ، ويتركوا بيوتهم ، ويناموا في الحقول مسلحين ، لأن زلزالاً يوشك أن يقع ، ووقع الزلزال بعدئذ ، وأصاب بالتحريب المدينة كلها وهدم جزءاً من جبل « تايجتوس » Taygetus كما تحطم مؤخر سفينة وسط زوبعة عاصفة ، بل إن « فريكايديس » Pherecydes صاحب الصيت الطائر الذي علم

(١) قارن أرسطو Polit 1.11 و « بليني » هذه القصة تقلا عن ديمقريطس . قارن Pliny Hist. Nat. 11.28 « لوبي » ويضيف مترجم جارنييه أن « بلوتارك » يقول في كتابه « حياة سولون » إن هذا المشرع قد تنبأ بطغيان « بيزاستراتوس » وأن « فانيروس مكسيوس » يقول إن سولون كان الوحيد الذي جرؤ على أن يعلن ضرورة منعه بقوة السلاح من تنفيذ مشروعه ، وأن هذا يتفق مع ما يقوله « بلوتارك » ومع ما يرويه ديوجانس اللايرتي « ج ١ ص ٤٩ » - وأما فيما يتصل بالنظر العقلي الذي يضاف إلى « طاليس » الملطي فإن المؤلف الذي احتذاه شيمرون ربما كان « أرسطو » في السياسة - كما أشرنا في تعليق مترجم لوبي في مستهل هذا الهامس . إلا أنه لم يكن دقيقاً فيما نقل ، فإن « أرسطو » لم ير أن طاليس قد ابتاع محصول الزيتون كله ، بل أجره سلفاً بإعطائه عربوناً بسيطاً .

(٢) إن الكسوف الذي تنبأ به « طاليس » والذي يحتمل ألا يكون قد استخدم لمعرفة حساب العلماء ، بل اعتمد في اكتشافه على الخبرة والتجربة ، يبدو أنه هو ذلك الذي وقع عام ٥٨٥ ق . م . ويقول « هيرودوت » في الفصل الرابع والسبعين من الكتاب الأول إن طاليس قد تنبأ للأيونيين بالعام الذي يمكن أن تقع فيه هذه الظاهرة السماوية (جارنيته) .

« فيثاغوراس » Pythagoras لا يعتبر نبيا ، بقدر ما يعتبر فيلسوفا طبيعيا ، لأنه تكهن بوقوع زلزال استنادا إلى ظهور مياه تنفجر من بئر لا تفيض (١) .

التفسير العقلي للتنبؤ بالمس (الجنة)

ومن المحقق أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تتكهن بالغيب تكهنات طبيعيا إلا إذا كانت من الحرية وعدم التقيد بحيث لا تتصل بالجسم إطلاقا ، كما يقع ذلك في حالة المس والأحلام . ولهذا قرر هذين النوعين من التكهن « ديكياركوس » Dicaearchus وكذلك صديقه « كراتيبوس » Cratippus فيما ذكرت من قبل . فلنسلم بأن هاتين الطريقتين أسمى ما عرف من ضروب التكهن بالغيب ، لأنهما تصدران عن الطبيعة رأسا ، بيد أن لا نسلم بأنهما كل ما عرف من ضروب التنبؤ . ولكن إذا كان « ديكياركوس » و « كراتيبوس » يعتقدان من جهة أخرى بأن التكهن القائم على الملاحظة لغو وعبث ، فانهما يقرران بذلك نظرية تهدم الأساس الذي يقوم عليه الكثير من شئون حياتنا اليومية . بيد أن هذين الرجلين يسلمان معنا بعض التسليم بالتكهن عن طريق المس والأحلام ، وليس هذا بالشيء الهين العسير ، ولهذا فاني لا أجد مبررا يحمل على إثارة المناقشة الحارة العنيفة في وجههما ، ولا سيما وأن هناك فلاسفة يأبون التسليم بكل ضروب التكهن بالغيب ، مهما يكن أمرها .

وإذن فهؤلاء الذين تتجرد نفوسهم من علائق أجسادهم ، يخلقون بأجنحتهم خارج أبدانهم ، وقد اضطربت نفوسهم واحتاجت بنوع من العاطفة ، أقول إن هؤلاء الناس يرون على وجه التحقيق الأشياء التي يتكهنون بها في نبوءاتهم ، مثل هذه النفوس لا تعلق بالأبدان ، وهي تضطرب بكثير من مختلف التأثيرات ، فمن ذلك أن بعضها تهيجه بعض الألحان ، كالأغاني التي يترنم بها أهل « فريجيا » ، والكثير منها تهيجه الغابات والأحراج ، وبعضها تهيجه الأنهار والبحار ، وأنا أعتقد بأن هناك أبحرة تكمن في باطن الأرض ، تلمم الناس الوحي ، وفي كل هذه الحالات ترى النفس التي اعترأها المس المستقبل

(١) دل مظهر المياه على الاضطراب الباطني . قارن بلايني في : Hist. Nat. 11.83 .

قبل تكشفه بزمان طويل ، كما رأته « كساندرا » في حادثة باريس وعودة هيلين (١) .

في مثل هذه الحالة من سمو النفس ، قيل الكثير من ضروب النبؤات ولم يتبدد في النثر وحده ، ولكنه ظهر كذلك .

[شعرا كانت تغنيه قديما آلهة الرعاة وينشده السكبان] (٢) .

ونلاحظ أيضا أن «ماركيوس» Marcius و«بوبليكيوس» Publicius (٣) قد أعلنوا نبوءاتهم شعرا — فيما تقول القصة المتواترة — وبنفس هذه الطريقة قد أعلنت نبوءات « أبولو » الخفية (٤) .

التفسير العقلي للنبؤ عن طريق الرؤيا

٥٠ — « هذا هو التفسير النظرى العقلى للنبؤ عن طريق المس ، أما التنبؤ عن طريق الرؤيا فانه لا يختلف عنه كثيرا ، لأن الوحي الذى ينزل بالرئين وهم أيقاظ ، يهبط علينا ونحن نيام ، فعندما تنام ويمسحى الجسم كأنه جثة هامدة فارقتها الحياة ، تكون النفس فى أعظم حالاتها ، لأنها تكون عندئذ قد تحررت من علائق الحواس البدنية ، وتخلصت من الشئون الدنيوية التى تثقل كاهلها . ولما كانت النفس قديمة أزلية ، وكان يعرض لها الحديث مع نفوس أخرى لا يحصيها العدد ، فانها ترى كل ما يجرى فى الطبيعة ، بشرط

(١) تتحدث « كساندرا » فى أبيات قد أهملنا ترجمتها لسفاهتها عن حكم « باريس » وعودة « هيلين » . وناظم الأبيات غير معروف (لويب) وانظر الفقرة الخامسة والخمسين من الكتاب الثانى .

(٢) من « أنيوس » فى حولياته ج ٧ ص ٢ (لويب) .

(٣) ذكر « بوبليكيوس » مرة أخرى فى الكتاب الثانى فى الفقرة الخامسة والخمسين

ولا نرى يعرف عنه سوى هذا (لويب) .

(٤) ربما كانت « نيمفس » : Nymphes إلهة المياه والغابات هى مصدر الإلهام الرئيسى عند المجاذيب من الرئين والرئيات معا ، ولعل جانبها « ديونيسيوس » رفيقها ورضيعها — لذا جاز أن نقول ذلك — وهو ابن زيوس والأرض (جارنييه) وأنظر الفقرة الخامسة والخمسين من الكتاب الثانى .

أن يلتزم المرء الاعتدال و كبح شهواته في المأكل والمشرب، فإن النفس تكون عندئذ في حالة يقظة، بينما يعتري الجسم النوم - هذا هو تفسير التسكهن عن طريق الرؤيا .

نظرية أنتيفون Antiphon

تفسير الرؤيا

ومن الملائم أن نذكر الآن نظرية أنتيفون،^(١) الشائعة في تأويل الأحلام، وهو يرى أن التأويل يعتمد على المهارة الفنية ولا يستند إلى الإلهام . وكان يعتقد مثل هذا الرأي بصدده تأويل النبوءات التي يكشف عنها الوحي أو ينطق بها من اعتراف المس، إذ لكل من هذه الصور مؤولون، كما أن للشعراء شراحاً .

مبررات تفسير الرؤيا : غموضها

ومن البين أن الطبيعة الإلهية لا تكون قد أدت عملاً مجدياً، إذا كانت قد اقتضرت على خلق الحديد والنحاس والفضة والذهب، دون أن تكشف لنا عن العروق التي تجثم فيها هذه المعادن، إن نعمة غلات الحقول وفاكهة الحدائق، كانت تصبح عديمة النفع للبشر إذا لم تكن على علم بطريقة زراعتها، وكيفية إعدادها للطعام، ولا يفيد الناس شيئاً من مواد البناء (الخشبية)، إذا لم تحوّلها صناعة النجار إلى خشب مهيأ للاستعمال، وهكذا الحال مع كل شيء منحتة الآلهة لمصلحة الجنس البشري، فإنهم منحونا فناً أو صناعة تمكننا من استخدامه لصالحنا، ومثل هذا يقال في الأحلام والنبوءات والوحي، إذ أن الكثير منها يشوبه الغموض، ويعترينا الشك في أمره، ولهذا وجب أن نلجأ إلى مهارة المحترفين من المؤولين .

(١) قارن الفقرة المعبرين من الكتاب الأول (لويب) وانظر هامش الفقرة السبعين من الكتاب الثاني عن أنتيفون .

العناية الألهية بأفراد الشعب :

وثمة مشكلة عويصة بصدد الطريقة التي بها يتمكن الأنبياء وأهل الرؤيا الصادقة من أن يروا الأشياء التي لا يكون لها في نفس الوقت وجود فعلي في مكان ما ، ولكن هذه المشكلة يسهل حلها متى استقصينا بعض المسائل التي تتطلب التبصر بادى الأمر ، لأن النظرية التي تناولت فيها طبيعة الآلهة ، وأحسننا مناقشتها في الجزء الثاني من كتابك الذي وضعته عن هذا الموضوع ، تتضمن هذه المشكلة كلها ، فإذا قررنا هذه النظرية ، فإننا نقر نفس النقطة التي أحاول الآن علاجها ، وهي : « أن هناك آلهة ، وأنهم يهيمنون على الكون بما لهم من سبق النظر في المستقبل ، وأنهم يدبرون شئون الناس ، ولا أعنى الناس جملة فحسب ، بل أقصد كل فرد منهم على حدة ، فإذا وفقنا في تقرير هذا الرأى - وهو رأى متماسك فيما أظن - أسفر هذا - على وجه التحقيق - عن الاعتقاد بأن الآلهة تقدم للناس شواهد تنبئ عن الحوادث المقبلة .

٥١ - ولكن من الضروري - فيما يلوح - أن نقرر الأساس الذي تستند إليه هذه الشواهد ، إذ أن الآلهة - فيما تقرر نظرية الرواقيين - لا يحملون مباشرة تبعة كل شق يجرى في كل كبد ، أو كل أغنية يترنم بها طائر ، إذ أن من البين أن هذا أمر لا يليق بالإله ولا يتفق مع جلاله ، ثم إنه فوق هذا أمر مستحيل ، ولكن الكون قد خلق أول الأمر على هذا النحو ، حتى أن بعض النتائج ينبغى أن تسبقها شواهد بعينها ، تكشف عنها الأحشاء والطيور حيناً ، ويبين عنها البرق ونذر الزجر وأحكام النجوم حيناً آخر . وتوضحها الرياؤيا الصادقة تارة ، ونبوءات من تعزيمهم الجنة تارة أخرى ، وهذه الشواهد في أغلب حالاتها لا تخدع الذين يلتزمون الدقة في ملاحظتها ، فإذا تحقق كذب النبوءات التي تستند إلى استدلالات فاسدة ، وتأويلات باطلة ، فإن الخطأ في هذا لا يعزى إلى الشواهد ، ولكنه يرجع إلى نقص في مهارة المؤول .

موقف الآلهة من التكهن الصناعي :

فاذا افترضنا صحة القضية التي تقرّر وجود قوة إلهية تتغلغل في حياة الناس، فليس من العسير أن تتصور المبدأ الذي يهيمن على ما نلاحظ وقوعه من شواهد منذرة، فقد تشرف على اختيار الضحية التي تقدم قربانا، قوة عاقلة تشيع في الكون كله، أو ربما يقع في اللحظة التي تقدم فيها الضحية تغييره يصيب أحشائها، وقد يضاف إليها أو ينزع منها شيء ما، يشهد بهذا ما نلاحظه من وقوع مثل هذه التغيرات في لحظة قصيرة، وأعدل شاهد يمكن لهذه الحقيقة ويرفعها فوق كل شيء، يبدو في حوادث وقعت قبيل مصرع قيصر Caesar إذ كان يقدم القرابين في اليوم الذي استوى فيه لأول مرة على عرش ذهبي، وظهر في بداية الأمر أمام الجمهور في ثوب أرجواني، فلم يجدوا أثناء ذلك قلبا في أحشاء الثور الذي تذروه^(١)، فهل تظن أن من الممكن لأي حيوان يجرى الدم في شرايينه أن يعيش بغير قلب؟ ولكن قيصر لم تثره الحادثة، بل لم يكثرث بنذير « سبورينا » Spurrina^(٢) الذي حذره ليأخذ حيطته، مخافة أن ينضب معين فكره ويغيب فيض حياته، وكلاهما - فيما قال - يصدر عن القلب. وفي اليوم الثاني لم يجدوا لكبد الضحية رأسا، وقد بعث الآلهة المخلدون بهذه النذر المشئومة إلى « قيصر » ليرى مصرعه قبل وقوعه، لا يتمكن من اتقاء شره، وعلى هذا فان هذه الأعضاء التي لا تستطيع أن تعيش الضحية بدونها، إذا عزت وجودها في الأحشاء، وجب أن نفهم من هذا أن هذه الأعضاء قد اختفت في نفس اللحظة التي يذبح فيها الحيوان قربانا.

٥٢ - إن الإرادة الإلهية تؤدي في حالة الطيور إلى نتائج مماثلة للنتائج السالفة، فتنهى بالطيور التي تكشف بطيرانها عن الفأل والطيرة، إلى أن

(١) قارن « بلايني » Hist. Nat. XI. 71 وفاليروس ماكسيموس Plut., Val. Max

Caes 1.6.13 (لويب) .

(٢) كان العراف الذي أنذر قيصر أن يحد من منتصف شهر مارس . قارن : Suet. Iul.

Caes. 81 (لويب) .

تخلق في فضاء الجو هنا وهناك ، وتختفي في هذا المكان حيناً ، وفي ذاك حيناً آخر ، وهذه الإرادة نفسها هي التي تُففى بالطيور التي تكشف بصياحها عن الزجر^(١) ، إلى أن تغرد على اليسار حيناً ، وعلى اليمين حيناً آخر ، إذ لو كان كل طائر يتيامن في طيرانه أو يتياسر حسب إرادته ، أو يندفع إلى الأمام أو يتراجع إلى الوراء وفقاً لرغبته ، لكان يثني أعضائه وينحرف بها ، ويبسطها ويقبضها كيفابدا له ، ولكان يؤدي هذه الحركات المختلفة بطريقة تكاد تكون آلية ، ولكن ما أسهل أن يهيمن على هذه الحركات إله ، ينصاع لإرادته الإلهية كل شيء . وهذه الإرادة نفسها ترسل إلينا شواهد قد حفظ منها التاريخ كثيراً ، فمن هذا الذي سجله التاريخ تلك الأحداث :

خسف القمر قبيل طلوع الشمس عند برج الأسد ، فدل هذا على أن « داريوس » Darius والفرس سينهزمون في معركة أمام المقدونيين الذين يتولى إمرتهم الإسكندر^(٢) ، وأن داريوس سيلقى حتفه .

(١) الطيور التي تكشف الطالع بطيرانها (alites) كالنسر والصقر والباز الأصم ونحوه أما التي تكشف الطالع بأصواتها (Oscines) فكالغراب والبوم ونحوه — قارن Festus ص ١٦٣ فيما يقول مترجم لويب ويضيف مترجم جارنييه إلى هذا القول أن النظرية التي يعرضها « شيفرون » في هذه الفقرة تكاد تشبه نظرية سقراط التي يرويها اكسانوفون (Memorable, 1, 13) حين يقول : إنها ليست الطيور نفسها هي التي تصرف وجه النفع ، وليست الأحداث المرضية هي التي تنطوي بنفسها على معرفة شيء ما ، ولكنها الآلهة ، تستخدم شواهد مختلفة ، وربما استخدمتها بلغة ملائمة لتحذير الناس . ويتحدث « كليمان الأسكندري » (في Protreption) عن الأشقياء الذين يعتقدون بأن الله يمكنهم من العلم بالأمر عن طريق طيور يمينها . ويقول : Contra Celsum IV, 360 إن القائلين بهذا ليسوا على اتفاق فيما بينهم ، إذ يعتقد البعض بأن آلهة أو شياطين تصرف على حركات الطيور بطريقة ما (وهذا هو رأى كوتتوس) أو تضطرها إلى إخراج أصوات معينة بطريقة تمكن الناس من العلم بأمر يمينها . ويعتقد غير هؤلاء أن نفوس الحيوانات تنطوي على شيء إلهي يجعلها قادرة على المعرفة المفيدة ، ويضيف أوريجان Origène إلى هذا قائلاً إن هذه النظرية لا أساس لها من الحقيقة فيما يلوح .

(٢) تستطيع أن تربط ما يقوله « كوتتوس » هنا بالفقرة التي ذكر فيها Quinte—Curce (في الكتاب الرابع في الفصل المباشر) أن الإسكندر قد توقف يومين على ضفة نهر النيجر ، ونصر خسوف القمر الرعب في جيشه ، فاستدعى الملك كهنة مصريين يحسنون معرفة العلة الطبيعية لكل ظاهرة طبيعية ، ولكن المصريين أرادوا أن يطمشوا المقدونيين فقالوا لهم : إن الشمس للأغريق ، والقمر للفرس ، وخسوف القمر يهدد الفرس بنكبة تحيق بهم (جارنييه) .

ومن هذه الأمثلة أن طفلة ولدت برأسين ، فكان هذا تنبؤاً بفتنة تثار بين الشعب ، وغواية وزنى يقع في يديها .
ومن هذا أيضاً أن امرأة رأت في منامها أنها وضعت أسداً ، فكان تأويل هذا أن المملكة التي وقع فيها حلمها ستغزوها شعوب أجنبية عنها .
ومن أشباه هذا حادثة يرويها « هيرودوت »^(١) ، ذلك أن ابن « قارون » Croesus قد تكلم وهو لا يزال في المهد صيماً ، فكان تأويل هذا الخارق أن أباه سيفقد مملكته ، وأن أسرته ستقتوض .
وأى مؤرخ فاته أن يسجل تلك الحقيقة التي تقرر بأن «سرفيوس توليوس» :
Servius Tullius عندما اعتراه النوم اشتعل رأسه ناراً . ؟ وكما أن الإنسان تكون أحلامه صادقة واضحة متى تهباً للنوم وقد غدت الأفكار النبيلة عقله ، واتخذ كل حيلة تكفل راحته ، فكذلك يكون عند يقظته ، أكثر استعداداً لإجادة التأويل الصادق في تنبؤات الأحشاء والنجوم والطيور وسائر الشواهد متى كانت نفسه نقية غير مدنسة .

الرومي الأفرهي عن سقراط يؤيد التكريم الطبيعي :

٥٣ — وليس من شك في أن هذا الصفاء الذي تمتاز به النفس ، هو الذي يفسر لنا هذه الكلمة المشهورة التي يعزوها التاريخ إلى « سقراط » والتي كثيراً ما يصوره تلامذته في كتبهم وهو يردد ما مكرراً : « إن هناك شيئاً إلهياً — ذلك هو الذي أطيعه دوماً ، ورغم أنه لا يدفعني إلى عمل ما ، فانه كثيراً ما يمنعني من الإقدام على عمل ما » .
وقد كان سقراط نفسه — وأي مصدر أوثق منه نستطيع أن نقبس عنه — كان هو الذي استشاره « اكسانوفون » Xenophon^(٢) في أن يذهب في إثر « كايروس » Cyrus وبعد أن أشار سقراط بما بدا له خيراً ، قال له : ولكن

(١) هيرودوت ج ١ ص ٨٥ (لوبي) .

(٢) قارن اكسانوفون في : Anab. III. 1.4 (لوبي) .

رأي ليس إلا رأى بشر ، وإنى أنصح بأن يستشار وحي أبولو في الأمور التي تشير الشك وتدعو إلى الحيرة . وقد كان هذا الوحي كثيرا ما يستشيرهُ الأثينيون في شئونهم العامة الجديدة .

ويروى عن سقراط أنه رأى ذات يوم صديقه « أقریطون » ، Criton وقد عصب عينه برباط ، فقال له مستفسراً : « ماذا دهاك يا أقریطون ؟ » فأجابه هذا قائلاً :

« بينما كنت أتجول في الريف ، إذ بغصن شجرة مُسْنَحِن قد انطلق وأصاب عيني » فقال سقراط : « هذا معقول ، لأنك أبيت طاعتي عند ما أرسلت في طلبك لتعود من حيث كنت ، استناداً إلى النذير الإلهي الذي اعتاد زجرى . » ويروى عن « سقراط » كذلك أنه فر في ركاب قائده بعد انتهاء المعركة المشتومة التي وقعت في « دليوم » Delium تحت إمرة « لاشز » ، Laches فلما بلغوا مفرق طرق ثلاث ، أتى سقراط أن يسلك الطريق التي اختارها الآخرون ، ولما سئل عن سبب رفضه أجاب قائلاً : « إن الله يزجرني عن ذلك » . أما الذين سلكوا الطريق الأخرى فقد وقعوا أسرى في يد فرسان العدو (١) . وقد جمع « أنتيباتر » Antipater مجموعة من النذر المعروفة التي كان « سقراط » يتلقاها ، ولكن ساهم في ذكرها لأنك على علم بها ، وليس من المجدي أن أعيد روايتها . ولكن الكلمة التالية (٢) التي أعلنها هذا الفيلسوف عند ما صدر الحكم الأثيم بموته ، تعتبر مثلاً نبيلاً ، أكاد أعتبره إلهياً ، إذ قال :

« إنى لمغتبط لهذا الموت كل الاغتباط ، إذ أن الله لم يعطيني شارة عندما بارحت دارى ، ولا عندما اعتليت هذه المنصة لأتولى الدفاع عن قضيتى ، ومن عادة الإله أن يعطينى هذه الشارة كلما هددنى الشر » .

(١) يلاحظ أن بلوتارك في مؤلفه الوجيز الذي يتحدث فيه عن شيطان سقراط ، يسهب فيما يوجز فيه « شيمرون » هنا (لويب) .

(٢) قارن أفلاطون ، في الفقرة الحادية والثلاثين من محاوره الدفاع (لويب) .

٤٥ — ولهذا فاني أرى أن القدرة على التكهن بالغيب قائمة ، مع أن من المحقق أن هؤلاء الذين يعتمدون على الصنعة أو الحدس ، كثيرا ما يعتر بهم الخطأ ، ولكني أعتقد أن الناس كما يستهدفون للخطأ في شتى الحرف ، فكذلك حالهم إزاء التنبؤ بالغيب ، فقد يحدث أن يقبل الكاهن شاهدا مشكوكا في أمره ، باعتباره شاهداً يقينياً ، ومن الممكن كذلك أن تفوت الكاهن ملاحظة الشاهد ، أو إهمال شاهد آخر يلغى الشاهد الذي كان قد لاحظته .

ولست محتاجا إلى إقرار القضية التي أناقش في أمرها ، إلى كثير من المثل ، بل حسبي أن أجد القليل منها ، يصور نبوءات ونذرا كانت صدى لإلهام إلهي ، فاني إذا عثرت على مثال واحد من هذا النوع ، وكان الاتفاق بين التكهن والشئ المتنبأ به قويا بحيث يستبعد معه كل احتمال للصادفة أو الاتفاق العرضي ، فاني لا أتردد في أن أقول في مثل هذه الحال : إن التكهن بالغيب قائم لا محالة ، وأن من واجب كل امرئ أن يسلم بوجوده .

مصادر التكهن :

ولهذا فان من الضروري فيما يالوح — أن نفتدى بـ « بوسيدونيوس » ، Posidonius ، ونرد المبدأ الجوهري الذي يقوم عليه التكهن بالغيب إلى ثلاثة مصادر :

أولها : الإله ، وقد أسلفنا ما فيه الكفاية في مناقشة علاقته بهذا الموضوع .
وثانيتها : القدر^(١) ، وثالثها : الطبيعة .

القضاء والقدر في مجال التكهن :

وإن العقل ليحملنا على التسليم بأن كافة الأشياء تحدث قضاء وقدرأ ، وأقصد بالقضاء ما يعتبره الإغريق : « تابعا منطما للعلل ، وارتباطاً يقوم بين كل علة

(١) وللقدر كذلك ثلاث إلهات عند القدماء هن « كلوتو » و « لاشيزوس » و « أتروپوس » وهن اللاتي يحددن مولد الناس وحياتهم وموتهم .

وأخرى ، وتفضى كل منها في ذاتها إلى معلول ، وتلك حقيقة أبدية أزلية . وعلى هذا فان شيئاً لم يحدث إلا وكان وقوعه أمراً لا مناص منه ، ولن يقع في مقبل الأيام أمر ، دون أن تكون له في الطبيعة علة تكفي في تبرير وقوعه ، ونحن تعلم بالتالي أن القدر هو الذى تسميه لغة العلم - لا لغة الجهل - العلة الأزلية الأبدية في وقوع الأشياء « فهى علة الأشياء في الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل » . ومن ثم فقد يتمكن المرء بالملاحظة من أن يعرف أن معلولا بعينه يتبع في حالات كثيرة علة بعينها ، وإن لم تضح العلة في بعض الحالات ، إذ أن من الإسراف القول بوضوح هذه العلة في كل حالة ، ومن المحتمل أن يدرك الذين يعترهم المس أو تراعى لهم الأحلام وهم نيام ، تلك العلة عند ما تفضى إلى وقوع الأحداث المقبلة .

٥٥ - ثم مادامت جميع الأشياء تقع قضاء وقدرأ - كما سنبين في مكان آخر (١) - فانه متى وجد إنسان تستطيع نفسه أن تميز الحلقات التى تربط العلة بعضها ببعض ، فان من المؤكد أنه لا يخطئ في أى تكهن يحتمل أن يقوله ، لأن الذى يعرف العلة التى تفضى إلى الأحداث المقبلة ، يعرف بالضرورة ماذا تكون كل حادثة قادمة ، ولكن مثل هذه المعرفة لا تنهياً لغير الله ، وما يتبقى للإنسان بعد هذا إنما هو الهجس بالمستقبل استناداً إلى شواهد خاصة ، تنبئ بما يتبعها من أحداث ، والأشياء التى لا مناص من وقوعها لا تظهر إلى الوجود على غير انتظار ، فتطور الزمان يشبه فك أسلاك النفت بعضها حول بعض ، فان هذا التطور لا يخلق شيئاً جديداً ، ولكنه يرتب كل حادث في مكانه . « وهذه العلاقة القائمة بين العلة والمعلول ، واضحة لصنفين من مدركي الغيب ، لأولئك الذين وهبوا التكهن الطبيعى ، وأولئك الذين يعرفون مجرى

(١) حقيقة النص اللاتيني هنا مشكوك في أمرها لسببين : (١) أن قيا بقى لنا من كتاب (شيشرون) عن « القدر » نجد عكس ما يقال في هذا النص السالف (٢) ولأن ألفاظ النص تدل على أن ماركوس شيشرون يتصور أنه هو نفسه المتكلم ، وينسب - مؤقتاً - أن المتكلم إنما هو كوتوس ، إلا أن المخطوطات تؤيد هذا النص (لوب) .

الأحداث بملاحظة شواهدها ، وقد لا يرون العلل نفسها ، ولكنهم يرون شواهدها ، ويتبينون آيات علالها ، والملاحظ أن الدراسة الدقيقة مع جميع هذه الشواهد ، والاستعانة بالأدلة التي خلفتها العصور القديمة ، قد أبانت عن هذا النوع من التكهن المعروف بالصنعي ، وهو الذي يقوم على معرفة الغيب عن طريق النظر في الأحشاء والبرق والنذر الزاجرة والظواهر السماوية .

ولهذا فليس بدعا أن يهجم مدركو الغيب بأشياء لا وجود لها في العالم المادى إطلاقا ، لأن جميع الأشياء موجودة ، وإن غابت عن الوجود في فترة معينة ، وكما أن البذر قد كُنت فيه نواة ما ينتجه من نبات ، فكذلك الحال في العلل ، قد كُنت فيها حوادث المستقبل التي يكشف العقل أو الحدس وقوعها قبل حدوثه ، أو تراه النفس متى أدركها الإلهام عن طريق المس ، أو عند ما تتحرر من قيودها إبان النوم ، والذين لاحظوا مرارا أن الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى في مستقر لها ، وعرفوا شروقها وغروبها ودورانها (١) ، يستطيعون أن يتنبأوا بموقع كل كوكب من هذه الكواكب في وقت محدد ، قبل أن يستقر الكوكب في موقعه بزمان طويل ، ومن الممكن أن يقال هذا نفسه عن أولئك الذين تناولوا جريان الحقائق وعلاقة الحوادث بالدراسة والملاحظة فترة طويلة من الزمان ، لأنهم يعرفون على الدوام كيف يكون المستقبل ، أو إذا كان هذا التعبير أقوى مما ينبغي ، فلنقل إنهم يعرفون ذلك في معظم الحالات ، فاذا لم تسلم بهذا التعبير أيضا ، فمن المؤكد أنهم يعرفون في بعض الأحيان على أى وجه سيكون المستقبل ، وقد أحدث وجود التهكن بالغيب — مع حجج قليلة أخرى من نفس النوع — هذه الدلالة التي قامت على فكرة القدر .

طبيعة النفس الانسانية كصدر التهكن :

٥٦ — ثم إن التنبؤ بالغيب يجد سندا قويا آخر في الطبيعة ، التي تبين

(١) كان المعتقد عند صدور هذا الكتاب — في القرن الأول قبل الميلاد أن الأرض ناتجة لأنها مركز الكون ، وأن الشمس وسائر الكواكب تدور حولها .

عن مقدرتها على التهكن بالغييب عند ما تتجرد من علائق الجسد، وذلك ما نراه بوجه خاص إبان النوم، أو في الأوقات التي يعتري النفس فيها منس أو إلهام. وكما أن نفوس الآلهة يفهم بعضها بعضا، وتدر ك ما يفكر فيه كل منهما، دون الاستعانة بعين أو أذن أو لسان، إلى حد أن الناس لا يشكون في أن الآلهة تعلم أمرهم حتى عند ما يؤدون لها الصلوات الصامتة ويقدمون التندر في غير جلبة، فكذلك الحال في نفوس البشر، فهي عند ما تتحرر بالنوم من علائق البدن، أو حينما يحركها الإلهام، وتتخلص من أهوائها، ترى الأشياء التي كانت لا تقوى على رؤيتها وهي مقيدة بروابط الجسد، وقد يتعذر علينا أن نطبق مبدأ الطبيعة هذا، في تفسير ذلك النوع من التهكن الموسوم بالصنعي، ولكن «بوزيدونيوس» الذي يتعمق في دراسة الموضوع ما استطاع إنسان إلى ذلك سيلا، يظن أن الطبيعة تقدم للإنسان شواهد معينة تنفي عن حوادث المستقبل، ولهذا يروى «هراقليدس» — من أهل بوتوس Hiraclides of Pontus — أن العادة قد جرت عند أهل «كويس» Coes بأن يلاحظوا — ملتزمين الدقة في ملاحظتهم — ظهور نجم الشعري مرة في كل عام، ويحدثون استنادا إلى هذه المشاهدة بما إذا كانت السنة التالية ينتظر أن تدر على الناس صحة وعافية، أو تنزل بهم أمراضا مهلكة، إذ أن النجم إذ ظهر كدرا محوطا بالضباب، دل هذا على ما ينتظر من جو ثقيل كثيف يبعث أبخرة لا تلائم الصحة إطلاقا، فإذ ظهر النجم واضحا مضيئا، كان هذا شاهدا على أن الجو سيكون خفيفا ونقيا، وبالتالي سيكون مؤديا إلى الصحة الجيدة.

ويوضح «ديمقريطس» — الذي عبّر عن رأيه بأن القدماء كانوا حكماء حين أقر والنظر في أحشاء الضحايا — أن لون الأحشاء وحالتها العامة — فيما يظن «ديمقريطس» — تنفي بالصحة تارة وبالمرض تارة أخرى، وتكشف في بعض الأحيان عما إذا كانت الحقول سيصيبها المحل والإجداب، أو تدر كها الجصوبة والإنتاج، ثم إذا كانت المشاهدة والتجربة تقرر أن هذه الطرق

تحدّر في أصلها إلى الطبيعة ، فينبغي أن تكون المشاهدة التي استغرقت مدة طويلة ، والأدلة التي خلفها لنا الزمان المديد ، قد أضافت إلى معلوماتنا عن الموضوع شيئا كثيرا ، ومن ثم يبدو أن هذا الفيلسوف الطبيعي الذي قدمه « با كوفيوس » Pacuvius في روايته « كرايزس » Chryses كان يعوزه فهم قوانين الطبيعة فهما صحيحا عند ما قال :

« إن الذين يفهمون حديث الطيور ، ويعرفون من أكباد الحيوانات أكثر مما يعرفون من أكبادهم^(١) ، كانوا يحسنون صنعا — فيما يلوح — لو أنهم استمعوا لكل ما يقال في ذلك دون أن يعملوا به » .
ولست أدري لماذا يقول هذا الشاعر مثل هذا الكلام ، مع أنه يقول في وضوح تام بعد ذلك بأبيات قليلة :

« مهما تكن حقيقة هذه القوة^(٢) أو كنهها ، فانها تهب الحياة وتخلق وتشكل الأشياء ، وتزيدها وتغذيها ، وإليها مرجع كل شيء ، فهي أصل كل الأشياء جميعها منها يخرج كل شيء وإليها يعود كل شيء... »
وقال كوتوس : « هذا هو كل ما ينبغي أن أقوله عن التكنن بالغيب » .

سهاجمة الهمالين والمرترقة صم مدعى الكهانة :

٥٧ — ولكنني أعلن في نهاية حديثي أني لا أقر الذين يتكهنون بمحظوظ الناس ، ولا الذين يتنبأون طمعا في المال ، ولا الوسطاء ولا الذين يستدعون أرواح الموتى ويستفسرون منها عن الغيب^(٣) . وإن كان صديقك « أيوس »

(١) كثيرا ما يتحدث عنها كركز للانفعالات ، ولكنه يتحدث عنها هنا كركز للعقل (لويب) .

(٢) يشير هنا إلى الأرض ، ويخلع عليها شخصية إله العالم الأرضي . قارن « شيشرون » N.D. 11.26.68 (لويب) .

(٣) حفلت روما بأهل التنجيم والكهانة ممن كانوا يستغلون سرعة التصديق عند طمأن الناس — ويرى « شيشرون » ألا يخلط بين أخيه « كوتوس » وأولئك الذين يتخدعون بدجل المرتقة ومدعى الكهانة (جارنييه) .

Appius^(١) يستعين بهم ، لأن هؤلاء لا يعتبرون من مدركي الغيب لا بالمعرفة ولا بالمهارة^(٢) .

[لا قيمة عندى لعراف مارسي أو عياف قروي أو منجم يختلف إلى الملعب أو مفسر أزيسي أو معبر أحلام] لأن هؤلاء لا يتنبؤون عن علم أو صناعة [ولكنهم كهان خرافات ، وعرافون قد ذهب ماء وجوههم ، فهم كسالى أو مجانين أو أرباب عوز وحاجة ، إنهم لا يعرفون الطريق ، ولكنهم رغم هذا يرشدون إليه الناس ، يعدون الناس بالثراء ، ومع ذلك يسألونهم درهما ، فليأخذوا الدرهم من الثروة التي وعدوا ، وليردوا ما بقي منها بعد ذلك ..]
ذلك هو نص ما يقوله « إنيوس » الذي يشرح قبل هذا بأبيات قليلة^(٣) الرأي الذي يقرر وجود الآلهة ، ومع ذلك يقول بأن الآلهة لاتعبأ بما يفعل البشر .
وأما من جهتي فاني أعتقد أن الآلهة تهتم بالإنسان لا محالة ، وأنها تلقى إليه بالنصح والتحذير ، ولهذا فاني أعتقد بالتكهن الجدي الصادق ، ذلك الذي خلا من الزيف ، وبريء من الخداع والاحتيال .

فلما فرغ « كوتوس » من حديثه قلت له : إنك جئت يا عزيزي « كوتوس » معداً للكلام إعداداً طيباً باهراً .

(١) هو « أيوس كلوديوس » زميل « شيشرون » في ديوان العيافة . قارن الفقرة السادسة والأربعين في الكتاب الأول (لويب) وانظر كتاب قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٣٨ — ٤١ (طبعة أولى) .

(٢) ونظم « Giese » و « دايفز » و « موزر » هذه الكلمات شعراً في أربع أبيات ولكن « مولر » وضعها نثراً (لويب) وقد نقلها مترجماً لويب وجارنييه ، ونقلها ديماويه نثراً ، ولخصناها نحن نثراً .

(٣) قارن الفقرة الخمسين من الكتاب الثاني ، ثم الفقرة الثانية والثلاثين في الجزء الثالث من كتاب « طبيعة الآلهة » لشيشرون كذلك (لويب) .

الكتاب الثاني

ويتضمن رد شيشرون **Cicero**

أحد أتباع الأكاديمية الجليدة على أدلة كوتتوس **Quintus** الرواقى

فى تفنيد الاعتقاد بفنون التكهن

مؤلفات سيثرون الفلسفية :

١ - فكرت ملياً في تعرف الطريقة التي أودى بها الخير لأكثر عدد ممكن من المواطنين ، حتى لا تنقطع خدماتي للدولة ، فوجدت خير السبل في إرشاد مواطني إلى الطرق المؤدية إلى أنبل العلوم ، وأعتقد أنني أدبت هذا الواجب بما وضعت من عديد المؤلفات ، فمن ذلك أنني تحررت في كتابي الذي جعلت عنوانه Hortensius (١) أن أدعو إلى دراسة الفلسفة ما استطعت إلى التبشير سيلا . وفي كتابي Academics الذي يقع في أربعة أجزاء ، عرضت المنهج الفلسفي الذي ظننت أنه أقل المناهج صلواً ، وأكبرها في نفس الوقت اتساقاً في التفكير وتهدياً . ولما كانت الفلسفة تقوم على التمييز بين الخير والشر ، فقد استنفذت الجهد في معالجة هذا الموضوع في خمسة أجزاء (٢) ، بحيث نستطيع أن نتبين تطاحن الآراء التي ذهب إليها مختلف الفلاسفة . وبعد هذا أبتت في خمسة أجزاء أخرى عن Tusculan Disputations الطرق التي لا تستقيم الحياة بدونها ، لأنني عالجت في الجزء الأول الاستخفاف بالموت ، وتناولت في الثاني احتمال الألم ، وعرضت في الثالث إلى تخفيف الأحزان ، ودرست في الرابع سائر الاضطرابات النفسية ، وضمنت الخامس بحثاً يلقي أسطع ضوء على مجال الفلسفة كله ، لأنه يعلم المرء أن الفضيلة تكفي بذاتها لأن تسلم أصحابها إلى السعادة . ولما فرغت من نشر هذه المؤلفات السالفة الذكر ، وضعت كتاباً من ثلاثة أجزاء عن « طبيعة الآلهة » وناقشت في ثناياها كل مسألة تدخل في نطاق هذا العنوان ، ورغبة في تبسيط الموضوع الذي تناولته في الجزء الأخير وتوسيع آفاقه ، شرعت في كتابة الجزء الراهن عن التكهن بالغيب ، وفي نيتي

(١) فارن (Hortensius) August Confess iii.4.7 (لوب) .

(٢) عنوانه : De finibus bonorum et melorum (لوب) .

أن أضيف إليه كتابا عن القدر ، فاذا نشرت هذا المؤلف ، فاني أكون قد استوفيت مناقشة هذا الفرع الخاص من الفلسفة في مختلف صورته .

وإلى هذا التثبت من المؤلفات ينبغي أن نضيف الأجزاء الستة التي وضعها عند ما كنت أدير سياسة الدولة ، وجعلت عنوانها : حول الجمهورية De republica ، وهو موضوع له خطره ، ثم هو يلائم الجدل الفلسفي ، وقد استوفى علاجه « أفلاطون و « أرسطو » و « ثيوفراستوس » Theophrastus وأتباع مدرسة المشائين جميعا . ولست في حاجة بعد هذا إلى أن أقول شيئا عن رسالتي التي وضعتها عن السلوي ، فهي مصدر راحة عظمى لي ، وستكون - فيما يلوح - عوننا لغيري من القراء . وقد وضعت منذ عهد قريب كتاباً عن الشيخوخة ، بعثت به إلى صديقي « أتيكوس » Atticus . ولما كانت الفلسفة هي التي تجعل المرء على فضيلة وقوة ، كان كتابي « كاتو » Cato^(١) خليقاً بأن يجد مكاناً بين الكتب التي أسلفت بيانها .

وقد ربط « أرسطو » و « ثيوفراستوس » ، كذلك بين البيان والفلسفة ، وكلاهما معروف بحدة الذكاء ، وطلاقة اللسان على وجه الخصوص ، ولهذا فانه يبدو من الصواب أن أضع كتيبي عن البلاغة في نفس هذا التثبيت ، وعلى هذا فانا نذكر في هذا الصدد الأجزاء الثلاثة التي وضعتها عن الخطابة والجزء الرابع الذي جعلت عنوانه : « بروتس » والجزء الخامس الذي أسميته : الخطيب .

مكانة الفلسفة عند شيشرون

اهمال الفلاسفة بتدريب النفوس :

٢ - أسلفت الآن ذكر المؤلفات الفلسفية التي وضعتها منذ زمن بعيد . وقد حدثني الرغبة الحارة لأن أتم الحلقات الباقية في هذه السلسلة ، ولولا ما جد من أسباب بالغة الخطورة^(٢) ، لشرحت اليوم كل ما فاتني شرحه ،

(١) Latus Catonis الذي فقد ، وقد كتب له « شيشرون » رداً . فارن Ad. Att. XII, 40 (لوبي) .

(٢) يشير « شيشرون » إلى الفوضى التي أصابت الشؤون العامة بعد مصرع قيصر (لوبي) .

وأوضحته وجعلته سهل التناول في لغتنا اللاتينية ، إذ أى خدمة أستطيع أن أؤديها للصالح العام أعظم أو أنبل من أن أعلم الشباب وأهذب نفوسهم ، ولا سيما وأنهم قد ضلوا اليوم ضلالاً مبيهاً ، من جراء هذا الانحلال الخلقى الراهن الذى يتطلب بذل أعظم الجهود حتى يرتدوا عن غيهم ، وينقادوا إلى سبيل الرشاد .. ؟ ومن المحقق أنى لست على يقين من أنهم سيتجهون إلى هذه الدراسات الفلسفية جميعاً ، وليت القليلين منهم ينصرفون إلى دراستها ، فإن دارسها وإن قلّ عديدهم ، قد يكون نشاطهم بعيد الأثر في نفع الدولة ، ومن المحقق أنى أجنى ثمار ما غرست ، وأتلقى الجزاء حتى من رجال تقدمت بهم السن ، لأنهم يجدون في كتيبي عزاء وسلوى ، وحماستهم للقراءة تضاعف من رغبتى في مواصلة العمل ، وإن عددهم ليربى - فيما علمت - على ما كنت أقدر ، وإنه لما يزيد في شهرة الرومان ، ويرفع من مجدهم ، أن يستقل كتابهم في دراسة الفلسفة عن مؤلفي الإغريق ، ومن المؤكد أنى سأبلغ هذه الغاية متى آتممت لإنجاز مشروعاتى الراهنة .

أسباب استغاله بالفلسفة :

والسبب الذى أدى بى إلى عرض الفلسفة وشرحها ، يرجع إلى الاضطرابات التى أصابت الجمهورية إبان الحرب الأهلية ، عندما أدركنى العجز عن حماية الجمهورية على غير ما ألفت ، ولما وجدت أن من المستحيل أن ألبث على خمول ، لم أجد شيئاً جديراً بى ، أو ثره على دراسة الفلسفة لأقوم بعمله ، وإذن فليخفرلى أهل وطنى ، والأحرى أن يزجوا الشكر لى ، لأنى أبيت - حين استبدت بأمر الدولة رجل واحد - أن أخنى نفسى ، أو أن أتخلى عن مكاتى ، أو أذعن لليأس ، ولم أقبل أن أتمرد على الطاغية المستبد ، أو أثور على الزمن ، وفوق هذا فانى لم أتملق ثرياً ولم أعبطه على جاهه ، حتى أرتى لحظى في الحياة ، إذ أن خير ما تلقيت من « أفلاطون » ،^(١) والفلسفة شيء .

(١) Plats Rep. VIII.2. 545 (لويب) .

واحد، هو أن من الطبيعي أن تقوم الثورات في شؤون الحكم، فيتولاها الملوك حيناً، والشعب حيناً آخر، والفاصيون حيناً ثالثاً، ولما نزل بالوطن القضاء الذى أسلفت ذكره، وكففت عن مواصلة نشاطى السابق، شرعت فى أن أستأنف هذه الدراسات الفلسفية من جديد، فإن بها — لا بشئ سواها — أستطيع أن أخفف عن عقلى همومه، وأن أخدم فى نفس الوقت أهل الوطن، كأحسن ما تكون الخدمة فى هذه الظروف، وبناء على هذا سدت مؤلفاتى الفلسفية مسد خطى السياسية والقضائية، لأنى ظننت أنى قد استبدلت الفلسفة بالسياسة إلى غير رجعة، ولكنهم قد عادوا مرة أخرى إلى استشارتى فى الشؤون العامة، ولهذا وجب أن يكسر وقتى لخدمة الدولة، أو ينبغى بالأحرى أن ينصرف إليها فكراً واهتماماً اللذان لا يتجزأان، وأن أنفق فى دراسة الفلسفة من الوقت ما لا يتطلبه أداء واجبى الذى أقوم به فى سبيل الصالح العام، ولنرجى الإسهاب فى بيان هذا إلى فرصة أخرى، ولنعد الآن إلى الموضوع الذى شرعنا فى مناقشته من قبل :

صهراج بيثرون — أى الأوطاريمية الجريرة — فى صباه :

٣ — بعد أن أعلن أخى « كوتوس » Quintus آراءه عن التكهن بالغيب، كما أبانها فى الكتاب السالف، تمسينا طويلاً حتى اتخذنا مجلسنا فى المكتبة التى تقوم فى « الليكيوم » Lyceum، وقلت له « من المحقق أنك يا عزيزى « كوتوس » قد أسلفت دفاعاً دقيقاً عن مذهب الرواقية، كما يدافع عنه أحد أتباعهم، ولكن الشئ الذى اغتبطت له كثيراً، هو أنك زودت مناقشتك بكثير من الأمثلة استمدتها من المصادر الرومانية، وهى أمثلة من نموذج ممتاز نبيل، ومن واجبى الآن أن أجيب على ما أسلفت بيانه، ولكن ينبغى أن ألزم الشك وعدم الثقة بالنفس فى كل ما أقول، وألا أعلن أمراً على

سبيل اليقين ، وأن أستفسر عن كل شيء^(١) ، لأنى إذا زعمت أمراً وقتله على سبيل التأكيد ، كنت قد مثلت بهذا دور الكاهن الذى يقنّباً بالغيب ، مع أنى أقول أن ليس ثمة شيء اسمه تكهن بالغيب .. ١ .

التكهن لا يستقيم فى مجال العلم والفن والفلسفة :

إنى متأثر بوجاهة الأسئلة التى كان « كارنيادس » Carneades يبدأ بها مناقشاته : « ما هى الأشياء التى تدخل فى مجال التكهن بالغيب . ؟ أهى أشياء تدرك عن طريق الحواس .. ؟ إن هذه مدركات تراها العين وتسمعها الأذن ويذوقها اللسان ويشمها الأنف وتلمسها اليد ، وإذن فهل ثمة فى هذه المدركات صفة معينة تجعل إدراكها بمعونة النبوءات ومساعدة الإلهام ، أسهل من إدراكها بمعونة الحواس وحدها^(٢) . ؟ وهل ثمة كاهن على ظهر الأرض يستطيع إذا كان كيف البصر - مثل تيرزياس - أن يفهم عن الفرق بين الأبيض والأسود .. ؟ أو يستطيع إذا كان مصاباً بالصمم أن يميز بين مختلف الأصوات وشتى الأنغام .. ؟ ينبغى أن نسلم الآن بأن التنبؤ بالغيب لا يكون فى الحالات التى تكتسب فيها المعرفة عن طريق الحواس .

« وليس بنا من حاجة إلى التنبؤ بالغيب حتى فى الأمور التى تدخل فى ميدان العلم والفن ، لأن الناس إذا أدركتهم الأمراض ، لا يستدعون فيما جرت العادة نبياً أو رطباً ، ولكنهم يلتمسون طبيباً يداوى أمراضهم ، وكذلك الحال مع أولئك الذين تجنح بهم الرغبة إلى تعلم العزف على العود أو الناي ، فانهم لا يتلقون دروساً على يد عراف ، بل يتلقونها على يد موسيقار ، وتنطبق

(١) كانت هذه هى الخاصة التى تميز الاتجاه العقلى الذى عرف عن أتباع الأكاديمية الجديدة فى كل مباحثهم فيما يشير مترجم « لويب » . وقد أيا شيشرون منهجها فى آخر الفقرة الثانية والسبعين من الكتاب الثانى - وانظر هامش ٣ ص ١٤٤ .

(٢) لم يكتب « كارنيادس » شيئاً . و « شيفرون » نفسه لم يعرف نظريته إلا عن طريق « كليتوماك » ويمكن القول بأن رأى المشار إليه هنا يشبه رأى الذى يؤلف الجزء الأول من جورجياس (جارنييه) .

هذه القاعدة نفسها على مجال الآداب وسائر ميادين العلم ، إذ هل نعتقد حقاً أن الذين أوتوا القدرة على التكهن بالغيب ، يستطيعون استناداً إلى هذه القدرة أن يتنبأوا بأن الشمس أكبر من الأرض ، أو أنها تبلغ من الحجم النحو الذي تبدو لنا عليه .. ؟ أو بأن القمر مضى بنفسه أو يستمد من الشمس ضوءه .. ؟ أو هل نظن أنهم يفهمون حركات الشمس والقمر والكواكب الخمس الموسومة بالشهب .. ؟ إن كهانك المشهورين لا يدعون بأنهم يستطيعون الإجابة على إحدى هذه المسائل ، ولا هم يعترفون بأنهم يعرفون إذا كانت الإشكال الهندسية قد أحسن رسمها أو أسوأ ، لأن هذا من عمل الرياضيين وليس من عمل الرئين .

٤ - « فلنعرض الآن للحديث عن المسائل التي تدخل في نطاق الفلسفة : إذا أردنا أن نتبين الصواب أو الخطأ في مجال الأخلاق ، أو أن نعرف أن أمراً ما ، ليس بالخطأ ولا بالصواب ، هل جرت العادة بأن يكون الكهان هم الذين يزيلون شكوكنا بصدده هذه المسائل .. ؟ وهل نتجه فعلاً إلى استشارتهم في مثل هذه الحال .. ؟ كلا على التحقيق ، لأن الحكم في مثل هذه المسائل يتولاه الفلاسفة . وكذلك الحال فيما اتصل بواجباتنا ، منذا الذي يستشير عرافاً فيما ينبغي أن يكون عليه سلوكه إزاء والديه و إخوته ، أو حياال أصدقائه .. ؟ أو في كيف ينبغي أن يتصرف في ثروته ، وكيف يؤدي واجبات منصبه أو يستخدم قوته .. ؟ إن مثل هذه الأمور قد جرت العادة بأن يفصل فيها الحكماء لا الكهان .

« وهل من الممكن أن نحل بالتنبؤ بالغيب مسألة من مسائل الجدل أو الطبيعة .. ؟ فهل نستطيع مثلاً أن نعرف عن طريقه إذا كان في الوجود عالم واحد أو مجموعة عوالم ، أو ما هي العناصر الأولية التي صدرت عنها الكائنات جميعاً .. ؟ إن مثل هذه المسائل يفصل فيها علم الطبيعة ، وهب كذلك أن امرأ

أراد أن يعرف الطريقة التي بها يكشف عن مغالطة الكاذب^(١) أو أن يعالج مغالطة الكومة^(٢) التي أطلق عليها الإغريق «Sorites» (وإذ احتجنا إلى ما يقابلها في اللاتينية فهو *acervalis* ، وما نضن بنا من حاجة إلى ترجمتها إلى لغتنا ، فإن لفظة الفلسفة وغيره من عديد الألفاظ يوناني الأصل ، وقد جرت العادة باستعمالها كما نستعمل الألفاظ اللاتينية ، وهكذا الحال في لفظ Sorites الذي تلقيناه عنهم) إن الكلمة في كلتا هاتين المغالطتين للناطق ، وليست لأهل التكهن بالغيب .

ثم هب أنا نريد البحث في خير أنواع الحكومات ، أو في أي القوانين أو العادات نافع لأهله أو ضار بهم .. هل نستدعي العرافين من أتوريا أو نسلم بما يراه رجال نصطفئهم لخبرتهم بإدارة المدينة .. ؟^(٣) ولكن إذا لم يكن ثمة مجال للتكهن بالغيب في الأشياء التي تدرك عن طريق الحواس أو في

(١) أشبع الصيغ التي توضح هذه المغالطة قولهم : يقول إيميدس *Epimenides* الكريتي : جميع أهل كريت كذابون ، وهو نفسه من أهل كريت ، فهل صدق فيما قرر أم كذب ؟

قارن *Gellius XVIII. 2. 10, Cic. Acad. II, 29.95* (لوبي) وقد عرض الناطقة لبيان هذه المغالطة كثيراً ، قارن مثلاً *Keynes : Formal Logic. p. 457* طبعة رابعة .

(٢) أشبع الصيغ التي توضح هذه المغالطة تبدأ بهذا السؤال : هل تكفي الحبة الواحدة لأن تنشىء كومة . . ؟ الجواب بالسلب ، ولكن المعروف أننا إذا أضفنا حبة إلى حبة ، وكررنا هذا وصلنا أخيراً إلى عدد (س) من الحبات ، لو أضيفت إليه حبة لأصبح كومة وهذا يناقض الجواب الأول وهو أن الحبة لا تنشىء كومة قارن : *Reid's Acad. 11.16.49 note* (لوبي) . وقد عرف هذا النوع من المغالطات أوبوليدس *Eubulide* الملطي ، حين عارض منطق أرسطو « وكان هذا خصماً لدوداً له » فمن ذلك قوله : كم شعرة يجب أن تسقط من رأسك حتى يقال إنك أصلع ؟ إلى آخر مقالاته في الجمع والطرح ، ومن أمثلة هذه المغالطات ما ورد في مذهب المنفعة لجون ستوررت مل *J. Stewart* Mill وقد أبان *Mackenzi* عن هذه المغالطات (قارن : *Welton & Monahan Intermediate Logic* ص ١٥٣ الطبعة الثالثة) .

(٣) كانت إدارة المدينة عندهم تشمل شئون الحكم بأوسع معانيه ، من سياسة وعلم وفن وأخلاق ونحو ذلك .

معرفة الأمور التي تدخل في نطاق الفنون أو في باب الفلسفة، أو تتصل بشئون الحكم، فإني لا أرى بنا من حاجة إطلاقاً إلى هذا التكهن في أى مجال آخر، لأنه إما أن يكون مفيداً نافعا في كل حالة من هذه الحالات، أو ينشأ على الأقل علم يمكن أن يستخدم فيه هذا التكهن، ولكننا رأينا فيما أسلفته من وجوه الاستدلال، أنه لا يصلح لكل حالة - من الحالات السالفة - وليس من الممكن كذلك أن ينشأ مجال أو مادة بحث يهيمن عليها التكهن بالغيب .

هـ - « ومن أجل هذا فإني أميل إلى الظن بأن ليس ثمة شيء اسمه تنبؤ بالغيب، وهاك شعراً من نظم اليونان كثيراً ما يقتبس للدلالة على هذا الذى أقوله: [إن خير من يتكهن، بالغيب هو أقدر الناس على التخمين أو الحدس] (١)

وهل تظن أن نبيا يستطيع أن يحدس باقتراب هبوب العاصفة خيراً مما يحدس بذلك ربان السفينة ..؟ أو يكون حدسه في تشخيص المرض أدق من حدس الطبيب ..؟ أو مهارته في قيادة الحرب أعظم من مهارة القائد الحربى ..؟ « ولكنى لاحظت - يا كونتوس Quintus - أنك كنت لبقاً حين استبعدت التكهن بالغيب من حالات الحدس التي تقوم على المهارة والخبرة بالشئون العامة، ومن تلك التي تستمد من استخدام الحواس، ومن هاتيك التي تصدر عن أهل الحرف » (٢) .

(١) عن « ليرويدس » واقتبسه بلوتارك De orac defect 432 e. (لويب) .
(٢) قارن الفقرة الثامنة والأربعين في الكتاب الأول (لويب) وانظر تشابه هذا برأى جبهة مفكرى الإسلام في كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » .

تفنيد معنى المصادفة في التعريف

مناقشة تعريف التكهن عند كوتوس :

ولاحظت كذلك أنك تحدد التكهن بالغيب بأنه « المعرفة السابقة والتنبؤ بالأحداث التي تقع على سبيل المصادفة » (١) وأول ما يلاحظ على هذا التعريف أنه يناقض ما سلمت به من قبل ، لأن المعرفة السابقة التي تنبأ للطبيب وربان السفينة والقائد الحربي ، تكون عن أمور تقع على سبيل المصادفة ، ثم هل يستطيع رجل من أهل العرافة أو العيافة أو النبوة أو الرؤيا الصادقة أن يحدد خيراً مما يحدد الطبيب بأن مريضاً سيئاً من مرضه ، أو خيراً من ربان السفينة حين يحدد بأن سفينته ستلقى خطراً يهددها ، أو خيراً من القائد عند ما يحدد بأن جيشاً سيتجنب مكناً (٢) ؟..

وذهبت إلى القول بأن هذه المعرفة السابقة بالزوابع والأمطار التي توشك أن تقع ، ليست تكهننا بالغيب متى سبقتها شواهد معينة ، واقتبست بهذه المناسبة مجموعة أشعار من ترجمتي لـ « أراتوس » Aratus ، ولكن مثل هذه المصادفات تقع اتفاقاً ، لأن وقوعها وإن تكرر فإنه لا يحدث دواما . فما هو إذن هذا الذي تسميه تكهننا بالغيب ..؟ أي « ما تلك المعرفة السابقة بأحداث تقع على سبيل المصادفة ..؟ » وفيما يستخدمها أهلها ..؟ إنك تظن بأن « كل ما يمكن معرفته قبل وقوعه عن طريق العلم والعقل والتجربة والحدس ، تكون الكلمة فيه للخبراء والإحصائيين وليست للسكهان ، وعلى هذا يكون التكهن « بالأحداث التي تقع على سبيل المصادفة ، غير ممكن إلا فيما لا يمكن إدراكه

(١) قارن الفقرة الخامسة من الكتاب الأول (لويب) ويشير مترجم جارنييه إلى خلاف

بين هذا التعريف وتعريف « كوتوس » الذي ورد في الفقرة الخامسة .

(٢) الرأي عندنا أن مثل هذه الأحداث لا تقع مصادفة ، لأن لها مقدمات تبرر وقوعها

عند الطبيب وربان السفينة ومن اليهما ، فهي لا تعتبر في رأينا تنبؤاً بالغيب .

من قبل عن طريق المهارة والحكمة، ومن ثم إذا أعلن أمرؤ بأن «ماركوس مارسلوس» Marcus Marcellus^(١) صاحب الصيت الطائر الذي تولى القنصلية ثلاث مرات، سيلقى حتفه في سفينة تتحطم في عباب اليم، ووقع هذا التنبؤ قبل تحققه بعدة أعوام، فإن هذا وفقاً لتعريفك لا يكون تكهنًا بالغيب أبداً، إذ لم يكن من الممكن أن تعرف النكبة من قبل بالحكمة أو بمهارة من نوع آخر، وهذا هو السبب الذي من أجله تقول بأن التكنن بالغيب هو المعرفة السابقة لمثل هذه الأحداث التي تعتمد على المصادقة^(٢).

٦ - وإذن فهل ثمة معرفة تسبق وقوع الأشياء ولا تستند إلى سبب يبررها؟.. إننا لا نطلق هذه الحدود: «مصادقة - حظ - طارىء - إلا على حادثة تقع ولم يكن من المحتمل أن تحدث أبداً، أو كان من الممكن أن تقع على نحو آخر، وإذن فكيف يكون من الممكن أن يتفأ أمرؤ أو يتكنن بمجاذبة تقع عفواً، كنتيجة لمصادقة متغيرة أو لطارىء أعشى؟ إن استخدام العقل يمكن الطبيب من أن يعرف من قبل بأن المرض يوشك أن يستفحل، كما يتكنن القائد بما يعده عدوه من خطط، وكما يعزف ربان السفينة دنو العاصفة، ومع هذا فإن هؤلاء الذين يرتقون إلى نتائجهم على سلم الاستدلال العقلي الدقيق، كثيراً ما تعثرهم الأخطاء، فمن ذلك أن الفلاح إذا رأى شجرة

(١) ابن «ماركلوس» الذي غزا «سيرااقوس» وابتلمه اليم في بحر أفريقيا قبل الحرب البونية الثالثة بقليل (ديمارية).

(٢) يراد بهذه الفقرة أن الأحداث التي تقع على سبيل المصادقة يمكن معرفتها عن طريقين: (أ) الاستمانة بالخبرة الماضية والتفكير والذكاء ونحوه - أى الاعتماد على مقدمات تسلم إلى نتائج - وهذا هو مارجع جمهرة مفكرى الاسلام تسميته بالعرفاء ونحوها (ب) معرفة هذه الأحداث بغير مقدمات تبرر الوصول إليها - أى بالوحى والالهام - وقد تجلّى هذا عند مفكرى الاسلام في النبوة والولاية والرؤيا ونحوها. وقد كان كوثوس «بأبي أن يسلم بالتنبؤ الذي يصدر عن مهارة وخبرة بالشئون العامة» (فقرة ٤٩ من الكتاب الأول) فأغنى «شيصرون» بهذا عن مناقشته ودحضه وبقي على شيصرون أن يدحض غير هذا من أساليب التنبؤ، وسيبدأ بهذا في الفقرة التالية (السادسة).

الزيتون قد بدأت تزهر ، توقع لها أن تنتج ثمراً ، دون أن يكون هذا التوقع
بغير مبرر ، ولكن ظنه قد يخيب اتفاقاً . فاذا كان هؤلاء الذين لا يرون رأياً
إلا أقاموه على حدس معقول ومحتمل ، ليسوا في عصمة من الخطأ ، فاذا تظن
بحدس هؤلاء الذين يتنبأون بالمستقبل اعتماداً على النظر في أحشاء حيوان أو
تحليق طير في الجو أو تغريده وصياحه ، أو نذير زاجر أو وحى أو رؤيا ..؟
على أنى غير مستعد لأن أتناول التكهن بالغيب في شتى صورة واحدة بعد
أخرى ، وأبين أن الشق في كبد الضحية ، وصياح الغراب ، وطيران النسر
وسقوط النجم ، ونبوءات الذين يعتريهم المس ، والأنصبة والرؤيا ، ليس لها
قيمة في التنبؤ بالغيب ، بالغأ ما بلغ أمرها ، وسأناقش كلا منها في دوره ، أما
الآن فحسي أن أناقش الموضوع جملة :

افتراسه المصادر في منع من تعقل الإدراك الغيبي :

كيف يمكن أن يتنبأ امرؤ بحادثة ليس لها سبب يبرر وقوعها ، ولا
يميزها شاهد سابق ينبيء عنها ..؟ لقد تنبأ قرم ون بكسوف الشمس وخسوف
القمر قبل وقوعهما بأعوام طويلة مستندين إلى استخدام الرياضيات في
دراسة مسالك الأجرام السماوية ومعرفة حركاتها ، معتمدين على قوانين
الطبيعية الثابتة التي تساعد على تحقق نبوءاتهم ، فيعتمد علماء الهيئة على حساب
حركات القمر في نظامها الدقيق لمعرفة الوقت الذي يكون فيه القمر مقابلاً
للشمس وفي ظل الأرض - الذي يكون مخروط الليل (١) - واكتشاف
الوقت الذي يرى فيها بالضرورة ، وعلى هذا النحو يعرفون الوقت الذي يقع
فيه القمر بين الأرض والشمس تماماً ، ومن ثم يخفي ضوء الشمس عن عيوننا ،
ويعرفون الشكل الذي يتخذه كل كوكب في وقت معين ، والوقت الذي
تظهر فيه أو تختفي كل مجموعة نجمية في كل يوم ، ومن هذا ترى طريق
الاستدلال الذي يُستبع في الوصول إلى هذه التكهّنات .

(١) فارن : Pliny, N. H. ii. 7 « لوب » .

٧ — ولكن أى منطق ذلك الذى يستند اليه الذين يتنبؤون بالعشور على كنز أو وراثه ضيعة .. ؟ وعلى أى قانون من قوانين الطبيعة تعتمد مثل هذه النبوءات .. ؟ ثم إذا كانت النبوءات السالفة وغيرها مما يدخل فى بابها ، يهيمن عليها قانون طبيعى ثابت ، كهذا الذى ينظم حركات النجوم ، هل فى وسعنا أن ندرك شيئاً يقع مصادفة أو عرضاً .. ؟ إذ من المحقق أن ليس ثمة شئ يخالف العقل ولا يساير اضطراد القاعدة كالمصادفة ، ولهذا فليس فى مقدور أحد ، حتى الله نفسه — فيما يبدو لى — أن يعرف حادثة توشك أن تقع عرضاً أو مصادفة ، لأن الله إذا عرف ذلك ، كان من المؤكد وقوع الحادثه ، ولكن إذا كان من المؤكد وقوعها ، فإن المصادفة لا يكون لها وجود ، ومع ذلك فان المصادفة قائمة لا محالة ، وإذن فليس ثمة معرفة تسبق الأحداث التى تقع على سبيل المصادفة .

وإن أنت أنكرت وجود المصادفة ، وزعمت بأن الطريق الى معرفة كل شئ حاضر أو مقبل ، قد تحدد منذ الأزل تحديداً لا مناص منه ، للزم عن هذا أن تعدل حدك للتكهن ، الذى زعمت فيه أنه « المعرفة السابقة » للأحداث التى تقع على سبيل المصادفة ، لأنه إذا لم يكن فى الإمكان وقوع شئ أو حدوث أمر غير الذى تحددت منذ الأزل ضرورة وقوعه ، فكيف يمكن أن يكون للمصادفة وجود .. ؟ وإذا لم يكن للمصادفة وجود ، فأى مجال تراه لهذا التنبؤ^(١) الذى عرفته بأنه « المعرفة السابقة لأحداث تقع على سبيل المصادفة » .. ؟

(١) يستبعد مذهب القدر عند الرواقية كل ما يكون وقوعه ممكناً ، ولما كان « شيشرون » يحاول أن يقيم التكهن على أساس التعريف الذى وضعه له « كوتتوس » ، فانه يطبقه على أحداث تقع اتفاقاً ، بمعنى أن من المستحيل التنبؤ بها حتى ولو كان المتنبئ كائناً علياً بكل شئ ، وعلى هذا تكون نظرية الرواقين عقيمة ، لأنها تحمل على أحداث يستحيل معرفتها — فإنا هو مفروض — ولكن كوتتوس — شارح الرواقية — يتناول أحداثاً يعتقد المرء أنها تقع اتفاقاً ، وبهذا لا تكون نظرية الرواقية عقيمة . على أن فكرة هؤلاء فى القدر قد رفض التسليم بها مفكروا المسيحية والأفلاطونية الجديدة لأنها لا تتفق مع الدين ، لانه بارادة الله — أو الآلهة ، يقع كل شئ ، لا يفضل هذا القدر الذى يعوزه العقل . (جارجينييه) .

وقد ناقضت نفسك تناقضاً بيننا عند ما زعمت بأن القدر^(١) يهيمن على كل شيء في الماضي والمستقبل معاً . ! فإن تحت القدر يندرج الشيء الكثير من الخرافة وخزعبلات المسنات من النساء ، ومع هذا فإن الرواقية قد أطلوا الحديث في قضاتك هذا ، على أنى سأرجى مناقشة القدر إلى فرصة أخرى ، ما الآن فحسبي أن أتحدث عنه على قدر ما تدعو الضرورة :

افتراضه القدر يمنع من الاعتداع بالتكهن :

٨ - ثم ما نفع التكهن بالغيب إذا كان القدر يتحكم في كل شيء ؟ .. وعلى هذا الفرض تكون تكهنات الكاهن لامناص من وقوعها ، ولهذا فلست أدري ما قيمة الزعم القائل بأن نسراً قد أعاد صديقنا الحميم « ديوتاروس » Deiotarus من رحلته ، فانه لو لم يحدث منها ، لكان من المؤكد أنه سينام في الحجر التي تداعت في الليلة التالية ، ويسحق بهذا في الأنقاض ، ومع هذا فلو أن القدر أراد ذلك ، لما نجح صديقنا من هذه التكبئة ، والعكس في هذا صحيح ، ولهذا فاني أكرر ما قلته : ما قيمة التكهن بالغيب ؟ .. أو ما هذا الشر الذي تحذرنى لاتقائه طرق التكهن من أنصبة أو أحشاء أو غيرها ؟ .. فإن إرادة القدر لو شاءت أن يتحطم الأسطولان الرومانيان في الحرب البونية الأولى ، فيروح أحدهما غرقاً وثانيهما دماراً على يد القرطاجيين ، لكان من المؤكد أن يتحطم ويلقى نفس المصير الذي لقيه ، حتى ولو طابت نبوءة الكتا كيت المقدسة في عهد القنصلين « لوكيوس جونيوس » Lucius Junius و « بوبليوس كلاديوس » Publius Cladius^(٢) وإذا كانت الاستجابة للطيور سائحة وبارحة ، تمكن الأسطولين من اتقاء الدمار ، لما تحطمت استجابة لإرادة القدر ، مع أنك تقول في إصرار إن جميع الأشياء تقع قضاء وقدر ، وإذن

(١) قارن الفقرة الرابعة والخمسين من الكتاب الأول « لويب » .

(٢) قارن الفقرة الخامسة عشرة من الكتاب الأول « لويب » .

فليس ثمة شيء اسمه تكهن بالغيب . ثم إذا كانت إرادة القدر هي التي قضت بأن يهلك الجيش الروماني عند بحيرة « ترازمينوس » Trasminus في الحرب البونية الثانية ، أكان من الممكن اتقاء المصير إذا استجاب القنصل « فلامينوس » Flaminus للشواهد، وأصاخ للطيور التي زجرتة عن الاشتراك في القتال ..؟ كلا على التحقيق ، وإذن فيما أن يكون الجيش لم يهلك لأن إرادة القدر قد قضت بنجاته ، وإما أن يكون قد هلك بإرادة القدر — ومن المؤكد أنك كرواق مضطر الى التسليم بهذا — وتكون النتيجة لا مفر من وقوعها حتى ولو استجاب القنصل لنبوءات الطيور ، لأن قرارات القدر لا تقبل التغيير أبداً . وبعد ، فإذا تكون حقيقة هذا التكهن الذي تفاخرون به أيها الرواقيون ..؟ فان القدر إذا كان يتحكم في جميع الأشياء ، لما أدى لنا التكهن بها خيراً بتحذيرنا منها ، لتتقى شرها ، ما دامت الأحداث التي ستقع ، لا مناص من وقوعها ، أياً ما كان موقفنا حيالها ، ثم إذا كان من الممكن تغيير وجه الأحداث التي ستقع ، لما كان هناك شيء اسمه قدر ، وبالتالي فليس ثمة شيء اسمه تنبؤ بالغيب ، مادام التكهن ينصب على أحداث لا مفر من وقوعها ، ولكن ليس ثمة شيء يتحتم وقوعه ، ما دام هناك من الطرق ما يؤدي إلى تجنب حدوثه (١) .

مضار العلم بالغيب :

٩ — وفوق هذا فاني أظن أن معرفة الأحداث المقبلة لا فائدة من ورائها ، فانظر ماذا كانت تكون حياة « بريام » Priam ، لو أنه عرف منذ شببته الأحداث المروعة التي تنتظره في كهولته ؟ ولكن فلتتخط عصر الأساطير ، ولتتكلم عن أحداث تتصل ببلادنا :

لقد جمعت في كتابي عن « السلوى » حوادث موت فاجع وقع لبعض

(١) Procuratis اصطلاح في يراد به استخدام وسائل بتقديم القرابين أو نحوها لمنع وقوع طيرة أو نذير زاجر « لوب » .

مشاهير الرجال في حكومتنا ، فلتنخطّ رجال العهد القديم ، ولتحدث عن « ماركوس كراسوس » M. Crassus : خبرني أي فائدة كان ينتظر أن يجنيها عند ما كان في أوج قوته وطائل ثروته ، لو أنه عرف أن القدر كان يقضى بموته موتاً ذليلاً فيما وراء نهر الفرات ، بعد أن يكون ابنه قد قضى نجهه وجيشه قد تحطم .. ؟ أو هل تظن أن « جنايوس بومي » Gnaeus Pompey كان يمكن أن يستثمر المدة في قنصياته الثلاث وانتصاراته الثلاثة ، وإبان أعماله المجيدة التي حلقت شهرتها في كل مكان ، لو أنه كان يعرف بأنه سيذبح في مجاهل صحارى مصر ، بعد أن يفقد جيشه ، ويتبين أن مصرعه ستعقبه تلك الأحداث المروعة التي لا أستطيع أن أتحدث عنها دون أن تذرف عيناى الدموع .. ؟

أو ماذا تظن بقيصر لو أنه عرف أن مصرعه سيكون بين أعضاء مجلس الشيوخ الذى يرجع إليه الفضل في انتخاب معظمهم وفي ردهة بومي (١) .. ؟ أجل ، وأمام تمثال بومي ، وعلى مرأى كثيرين من قادة المائة من أتباعه ، وأن مصرعه هذا سيكون على يد أنبل مواطنيه الذين كان بعضهم يدين له بكل ما أصابوا من مجد ، وأن الموقف سيكون من المهانة بحيث لا يقترب من جسده صديق — لا بل ولا حتى عبد — فأى ألم نفسانى مرير كان قيصر يقضى به حياته ، لو أنه عرف هذه الأحداث قبل وقوعها . ؟

« وإذن فإن من المحقق أن الجهل بمتاعب المستقبل أجدى على الإنسان من معرفتها ، لأننا إذا زعمنا بأن الناس كانوا يعرفون المستقبل ، لما جاز في حكم العقل — وإن خالفنا الراوية في ذلك — أن يمتشق بومي جسامة ، وأن يعبر « كراسوس » نهر الفرات ، أو أن يخوض قيصر غمار الحرب الأهلية . وإن صح هذا فإن الموت الذى أصاب هؤلاء الرجال ، لم يكن — على هذا — استجابة لقدر محتوم ، ولكنك تقول بأن كل شيء يخضع لحكم القدر ، وبالتالي فإن معرفة المستقبل لم تكن لتؤدى خيراً لهؤلاء الناس ، بل إن من

(١) شيدها « بومي » واستخدمت مكاناً لاجتماع مجلس الشيوخ (لويب) .

المحقق أنها كانت مجرد المرحلة الأولى في حياتهم من كل متعة ولذة ، إذ كيف كان من الممكن أن يستشعروا السعادة بتفكيرهم فيما سينتهي إليه مصيرهم . . ؟ وعلى هذا فهما أجهد الرواقية أنفسهم ، فان كل حذقهم لا بد أن ينتهي إلى غير نتيجة ، إذ لو أن شيئاً ينتظر وقوعه ، قد يقع على نحو ما ، بغير قاعدة تحدد طريقة وقوعه ، لكانت المصادفة تلعب في هذه الحالة دورها ، وإذا كان ما ينتظر أن يقع لي بصدد أية مسألة ، وفي أى ظرف أمراً مؤكداً ، فكيف يعتبر تنبؤ العرافين بأنك قد ضروب النحس التي تنتظرنى ، خدمة يقدمونها إلى . . ؟

١٠ - ويجيب الرواقيون على النقطة الأخيرة بأن « كل شر لا مناص من وقوعه ، تخفف وطأته الطقوس الدينية » ولكن إذا لم يقع شيء إلا إذا كان متفقاً مع أحكام القدر ، فليس من الممكن أن تخف وطأة الشر بهذه الطقوس . ويعان « هوميير » تقديره لهذه الحقيقة عندما يصور « جوبتر » شاكياً من عجزه عن إنقاذ ابنه « ساريدون » Sarpedon من براثن الموت (١) حينما قضى القدر بعجزه ، ويوضح هذه الفكرة البيتان التاليان المنقولان عن شاعر يوناني (٢) :

[إن خوف نفسه وهو على كل شيء قدير ، لا يستطيع أن يمنع ما قضى به القدر المحتوم] (٣) .

إن فكرة القدر في أرحب آفاقها هي - فيما أظن - موضع سخرية ، حتى في روايات « أتلا » Atella العابثة الماجنة (٤) ، ولكن السخرية لا مكان

(١) الألياذة ج ١٦ ص ٤٣٣ « لويب » .

(٢) لا يعرف الشاعر الذي نظمها ، وكثيراً ما ترد هذه الفكرة . فarn 527 Aesch. Prom.

وهيرودوت ج ١ ص ٩١ ، أفلاطون في «النواميس» : (De leg. V. 10) « لويب » .

(٣) فكرة القدر الذي لا يفر منه ، لها مكان كبير في الأدب اليوناني ، ونراها كثيراً في

أشعار هوميير (جارنييه) .

(٤) نشأت خرافات « أتلا » في مدينة « أتلا » وتقع بين كايوا ونالي . وكثيراً ما نسمى

هذه القصص المأبثة : osci Iundi . قارن : Livy vii. 2, x, 208. وشيغرون :

Ad. fan. IX. 16. 7. « لويب »

لها في مناقشة موضوع جدى كهذا الموضوع . وإذن فلنلخص أداتنا فيما يلي :
إذا كان من المستحيل أن تتنبأ بالأشياء التي تقع على سبيل المصادفة لأن
وقوعها غير مؤكد ، فليس ثمة شيء اسمه تكهن بالغيب ، وإذا كان من الممكن
على عكس هذا — أن تتنبأ بالأشياء ، لأن القدر قد سبق إلى تعيينها وتحديدتها ،
فليس ثمة رغم هذا شيء اسمه تكهن بالغيب (١) . فان حدك للتكهن يجعله
ينصب على « الأشياء التي تقع على سبيل المصادفة ، ولكن هذا الجزء التمهيدى
في مناقشتى ، ليس إلا مناوشة تناولت هامش الموضوع ، فلا تغذ الآن إلى
صميمه ، وسترى أن تحطيم حججك لا يعجزنى .

مراهمة أساليب التنبؤ — صناعية وطبيعية :

١١ — لقد فرّعت التنبؤ بالغيب إلى ضربين : صناعى وطبعى (٢) ،
وقلت إن الصناعى يقوم بعضه على الحدس ، ويستند بعضه الآخر إلى الملاحظة
الطويلة المتصلة ، وجعلت التنبؤ الطبيعى هو الذى تحتويه النفس ، أو بالأحرى
تكسبه عن مصدر خارجى عنها هو الله ، الذى صدرت عنه كل النفوس
البشرية وفاضت ، ودرجت تحت التكهن الصناعى سائر التكهنات التى تنشأ عن
النظر فى الأحياء وتستمد من البرق ونذر الزجر ، وتستعار من نبوءات أهل
العيافة ، ومن يعتمدون على شواهد النذر الزاجرة اعتمادا ، تاما أو ضمنته من
ناحية عملية طريقة للتنبؤ يستخدم فيها الحدس .

أما التكهن الطبيعى فانه يكون — فيما تقول أنت — نتيجة إفراط فى التهبج
العقلى — الجذب — أو قدرة على التنبؤ تؤتاها النفس إبان النوم ، عندما تتجرد
من حواس البدن ومشاغل الحياة الدنيا . ثم إنك استمددت كل ضروب التكهن

(١) « شيبرون » يغالط — فيما يلوح — لأن ماسبق القدر إلى تعيينه ، يعتبر
وقوعه مصادفة بالقياس إلى كل من يجهل ما قضى به القدر ، فمعرفة قبل وقوعه تعتبر تكهنا
يدخل فى تعريف « كوثوس » للتنبؤ بالغيب .

(٢) قارن الفقرة السادسة والسابعة عشرة من الكتاب الأول « لويب »

بالغيب من مصادر ثلاثة : الله والقدر^(١) والطبيعة . ورغم أنك لم تستطع أن تقدم سبباً يبرر ضرباً من هذه الضروب ، إذ أنك — مع هذا — قد قدمت في دفاعك مجموعة من الأمثلة الخرافية التي تثير الدهشة^(٢) . وهذا هو الذي يدعوني إلى أن أؤكد لك بأن ليس من الملائم لفيلسوف أن يسلم بدليل يتفق صدقه عفوياً ، أو يكون باطل الدلالة أو صيغ من نسيج الخبث . وقد كان ينبغي أن تقدم أدلة وعللاً تبين بها صدق قضايك كلها ، وما كان ينبغي أن تلجأ إلى ما يسمونه أحياناً ، ولا شك أني أقصد تلك التي لا تستحق أن تكون على التحقيق موضع اعتقاد .

١ — مناقشة أساليب التنبؤ الصنعى

أسباب العرافة :

١٢ — ولنناقش الآن شتى ضروب التمكن بالتيب ، كلا منها على حدة ، مبتدئين بالعرافة ، وقيامها — فيما انتهى إليه بحثى وتفكيرى — تبرره دواعٍ سياسية ، وتدعو إليه الرغبة في أن يكون للحكومة دين تمكن له في نفوس الناس . ولكننا الآن على انفراد ، ولهذا فإن في وسعنا أن نناقش كل ما يقال في صدق العرافة ، دون أن يثير نقاشنا ضغينة أو حقداً في نفس أحد من الناس ، وفي وسعى أن ألتزم هذا على وجه التحقيق ، لأن فلسفتى تعتمد على الشك في معظم الحالات^(٣) .

(١) قارن الفقرة الرابعة والخمسين من الكتاب الأول «لوبي» .

(٢) نرى مثلاً لهذا في الفقرة الحادية والعشرين وغيرها في الكتاب الأول .

(٣) كان « شيعرون » من حوارىي الأكاديمية الجديدة . ولهذا فقد احتفظ لنفسه بحق النقاس في أية قضية دون اعتناقها . قارن الفقرة الرابعة من الكتاب الأول (لوبي) . انظر هامس ١ س ١٣١ . وينبغي أن نلاحظ بأن هذه الفقرة عظيمة الدلالة على حقيقة موقف شيعرون من العرافة .

١ — مناقشة التكهن بالنظر في الأحشاء

وإذن فلنتناول النظر في الأحشاء بالبحث أولاً : أيمنك أن تغرى أمراً بالاعتقاد بأن النبوءات التي قيل إنها نتيجة فحص أحشاء الضحايا ، قد اهتدى إليها العرافون ، بعد ملاحظات تكررت خلال زمان مديد ؟ خبرني ، كم من الزمن استغرقته هذه الملاحظات ؟ وكيف أمكن أن تستمر زماناً طويلاً ؟ وكيف اتفق العرافون فيما بينهم على جزء الأحشاء الذي يعتبر بشير خير ، وجزئها الذي يعد نذير شر ؟ أو أي شق في الكبد يحمل دلالة الخطر ، وأية نبيء عن خير مقبل ؟ وهل بين عراقي «أتروريا» و«إليس» و«مصر» و«قرطاجنة» انفاق بصدد هذه المسائل . ؟ إن مثل هذا الاتفاق مستحيل على وجه التأكيد ، وفوق هذا فان من المستحيل أن يتصوره الإنسان . والملاحظ أن بعض الشعوب يفسر الأحشاء بطريقة ما ، وبعضها يلتزم في تأويلها طريقة أخرى ، وإذن فليس ثم اطراد في طريقة التأويل فيما بينهم .

« ومن المحقق أن الأحشاء إذا كانت تحمل دلالة على التنبؤ ، فان هذه الدلالة بالضرورة إما أن تكون على وفاق مع قوانين الطبيعة ، أو تكون لإرادة الآلهة وقدرتهم قد صاغتها على نحو ما ، ولكن أية علاقة يمكن أن تقوم بين ما في نظام الطبيعة الإلهي من قوانين مجيدة عظيمة ، تهيمن على كل مكان ، وتنظم كل حركة ، وبين الكبد والقلب والرئتين في ثور يقدم قربانا للآلهة ، ولست أقول بين هذه القوانين وبين مرارة الكتاكت التي يزعم البعض أن أحشاءها تبين عن المستقبل إبانة واضحة ، وأي صفة طبيعية تتوافر في الأحشاء وتساعد على كشف المستقبل المحجب ؟

موقف ديمقريطس من النظر في الرؤساء :

١٣ — ومع ذلك فان « ديمقريطس » يمزح — وصدور هذا المزاح أو تلك الدعابة عن فيلسوف طبيعي يجعلها طريفة — وليس ثمة أكثر تبجحا

من الفلاسفة الطبيعيين فيقول : [إن امرأ لا يرى الأشياء التي تقع عند قدميه ، ولكنه يرى في دقة عالم السماء] (١) .
ومع ذلك فإن « ديمقريطس » يسلم بالتكهن بالغييب عن طريق الأحشاء ، في حدود الاعتقاد بأن حالتها ولونها ينيء بالكلاً والغلات ، من حيث مدى وفرتها أو مبلغ قلتها ، بل يذهب به الظن إلى أن الأحشاء تحمل الدلالة على الصحة أو المرض في مقبل الأيام . ياله من رجل سعيد لم تفته النكتة ! ، وهذا أمر مؤكد لا ريب فيه ، ولكن أكان « ديمقريطس » يتلمى بهذه السفساف إلى حد أن فاته أن يدرك أن نظريته لا تكون معقولة ، إلا إذا فرضنا أن أحشاء جميع المواشي كانت تتخذ لونا واحدا وحالة واحدة في وقت واحد ؟ ولكن إذا كان كبد ثور يبدو ناعما ومنتفخا ، بينما يبدو كبد ثور آخر في نفس اللحظة خشنا ومتقلصا ، فأى استدلال يمكن الوصول إليه من « حالة الأحشاء ولونها ؟ »

ومن دواعي النسلية كذلك ، تلك القصة التي رويتها عن « فرسايدز » ، Pherecydes ذلك الذي تطلع الى مياه أخرجت من بئر ، ثم تنبأ على أثر ذلك بوقوع زلزال (٢) . وإنه لما يثير الدهشة — فيما يلوح — أن يحاول الفلاسفة الطبيعيون شرح سبب الزلزال بعد وقوعه . ولكن هل يستطيع هؤلاء العلماء أن يتنبؤوا اعتمادا على النظر إلى ماء عذب ، بأن زلزالا يوشك أن يقع ؟ مثل هذا الهذر كثير أما يتردد عنه العلماء ، ولكننا لسنا مطالبين بأن نعتقد الصدق في كل شيء نسمعه . ومع التسليم بصحة الحماقات التي ذهب إليها « ديمقريطس » ، متى يمكن أن نستشير الأحشاء لنعرف منها شيئا عن الغلات أو الصحة ، ومتى نستمد العلم بهذه التفاصيل من عراف بعد أن يقوم بفحص الأحشاء ؟ إن العرافين يستندون إلى النار أو الفيضان حينما يندرون تنابا بالأمطار ، وقد يتنبئون بورائة مال حيناً ، وضياعه حيناً آخر ، إنهم يبحثون في الشق الذي يبشر

(١) النكتة المنسوبة هنا إلى ديمقريطس قديمة جداً فيما يشير مترجم جارنييه .

(٢) قارن الفقرة التاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب وجارنييه) .

بالخير أو يندر بالشر ، إنهم يلتزمون الدقة البالغة عندما يفحصون رأس الكبد في مختلف نواحيه ، فاذا امتنع وجود هذا الرأس مصادقة ، كان هذا عندهم أعظم شاهد يمكن أن يندر بالشر المقبل .

هذا التكمين لا يستند إلى قوانين طبيعية :

١٤ — ومن المحقق أن مثل هذه الشواهد ، لا يتضمنها — فيما أبنت من قبل — تصنيفك لضروب التكمين : « الذي يعتمد على المشاهدة ، وإذن فاستعمالنا لها لا يرجع إلى ماضٍ سحيق ، ولكنها من مبتكرات الفن — إن جاز أن يكون في الأمور الخفية المجهولة فن — ولكن ما العلاقة التي تربط هذه الشواهد بقوانين الطبيعة ؟ وإذا افترضنا أن جميع ظواهر الطبيعة تنتظم في كلِّ متسق ، ويرتبط بعضها ببعض الآخر ارتباطاً قوياً — وهذا فيما أرى رأى الفلاسفة الطبيعيين ولا سيما أولئك^(١) الذين يقررون بأن الكون وحدة — فأية علاقة يمكن أن تقوم بين الكون واكتشاف كنز ؟ وإذا أنبأت الأحشاء بنمو في ثروتى ، واتفق هذا مع قانون من قوانين الطبيعة ، فأن هذا يشهد أولاً بوجود علاقة بينها وبين الكون ، ثم يدل ثانياً على أن ربى المالى تهيمن عليه قوانين الطبيعة ، أليس يشعر الفلاسفة الطبيعيون بالحياء من إعلان مثل هذا الهذر ؟ ومع هذا فقد يسلم بوجود علاقة معينة تربط بين أجزاء الطبيعة المختلفة ، وأنا من يسلمون بهذا الرأى ، وقد جمع الرواقيون كثيراً من الأدلة ليبرهنوا بها على صحة هذه الحقيقة ، فمن ذلك أنهم يدعون بأن أكباد الجرذان تنمو في فصل الشتاء ، وأن الحبق (الريحان) الجاف يزهر في نفس يوم الانقلاب الشتوى ، وأن قربان الحبوب في هذا الحبق تمتلئ هواءً وتنفجر ، فتنثر البذور التي بداخلها في شتى الجهات ، وأن بعض أوتار القيثارة قد يقرع أحياناً ، فيصيدت غيرها من الأوتار ، وأن من عادة المحار وكافة الصدف أن يتمشى مع القمر

(١) بين الذين يقصدون « شيعرون » ، اكسانوفان من أهل كولوفون . قارن شيعرون في Acad 11.37.118 (لويب) .

طردا في نموه وتناقصه، وأن قطع الشجر أيسر في فصل الشتاء وفي محاق القمر، إذ يحف الشجر عندئذ من عصير النبات .

ليس بنا من حاجة للأسباب، ولا لذكر البحار والمضايق التي تهيمن حركات القمر على جزرها ومدها، فإن من الممكن أن نقدم أمثلة من هذا النوع لا يحصيها العد، للدلالة على وجود علاقة طبيعية تقوم بين الأشياء التي يلوح أنها على غير اتصال، فلنسلم بأن هذه العلاقة قائمة، فإن التسليم بها لا يتعارض مع الرأي الذي أقرره، في أن شقوق الكبد ليس فيها ما يحل الدلالة على ربح مال مقبل، إذ أى اتصال طبيعي، أو كما يقال أى إيقاع موسيقى أو أبة مشاركة وجدانية — كما يقول الإغريق — يمكن أن تكون قائمة بين شق في كبد، ومبلغ طفيف من المال يجده على كيس نقودي ؟ أو أية علاقة بين اخفائي في إقتناء المال من جهة، وبين السماء والأرض وقوانين الطبيعة من جهة أخرى ؟

دعوه الاستعجاب بالأرادة الألهية :

١٥ — ولكنى سأسلم حتى بهذا إن شئت، ولو أن التسليم بوجود علاقة بين الطبيعة وحالة الأحشاء، يضعف من قضيتي إلى حد كبير، ولكن هبني سألتي بذلك، فكيف نعلم بأن الانسان في بحثه عن شواهد تبشر بالخير، يجد ضحية تحقق مطلبه وتلائم غرضه ؟ إن هذا أمر عسير المنال، ولكن أى حل بديع ذلك الذي قدمته لتحقيقه ؟ إنى لا أجد معرة في موقفك فإن ذا كرتك تثير الدهشة في نفسى، ولكنى أستشعر الخجل من موقف « كريسبوس » Crysippus و « أنتباتر » Antipater و « بوسيدونيوس » Posidonius الذين يقررون هذا الرأي الذى قلته أنت من قبل، وهو أن « اختيار الذبيحة التي تقدم قربانا للآلهة، تشرف عليه القوة الإلهية المدركة التي تهيمن على الكون كله . »

« بل إن تصرّيحهم الذى سلمت أنت به ، كان أكثر من هذا تناقضا ، وهو أن تغيرا يطرأ على الأحشاء فى اللحظة التى تقدم فيها الضحية ، فتظهر أشياء كانت فى طى العدم ، وتختفى أخرى كانت فى عالم الوجود ، ذلك لأن كل شىء فى الكون يخضع للإرادة الإلهية . أقسم أن ليس فى الدنيا امرأة شمطاء بلغ من تسرعها فى التسليم بصحة الأمور ، أن تعتقد فى صدق هذا الأمر . . . ! وهل تظن أن الثور الصغير إذا تخيره أمرؤ كان كبده بغير رأس ، فإن تخيره غيره كان لكبده رأس ؟ وهل من المعقول أن يظهر رأس الكبد فجأة ، وأن يختفى على غير انتظار ، حتى تتلامم الأحشاء مع مطلب الشخص الذى يقدم الضحية ؟ وهل فاتكم أيها الرواقيون أن تدركوا أن اختيار الضحية فى أغلب حالاته يكون كرمية الرد (محض اتفاق) ، ولا سيما وأن الحقائق تؤيد ذلك ؟ فإن أحشاء الضحية الأولى متى كانت بغير رأس — وذلك عندكم أكبر الشواهد إنذارا بالشر — فإن الذى يحدث بعد ذلك ، أن تحمل الذبيحة فى الضحية الثانية بشار الخير إجمالا ، فخبرنى ماذا يكون مصير نذر الشر فى أحشاء الضحية الأولى ؟ وكيف تهبأت نعمة الآلهة على هذا الوجه الكامل ، وعلى غير انتظار سابق ؟

السخرية من استشهادات الرواقيين :

١٦ — ولكنك تقول « إن قيصر كان ذات مرة يقدم ثورا قربانا للآلهة ، فلم يجد فى أحشائه قلبا ^(١) ، ولما كان من المستحيل للثور أن يعيش بغير قلب ، فلا بد أن يكون القلب قد اختفى فى اللحظة التى ذبح فيها ، فكيف ساغ عقلك القول بأن الثور ما كان ليعيش بغير قلب ، ولا تعرف أن القلب ما كان يمكن أن يختفى فجأة إلى حيث لا أدرى ؟ أما عن رأي فإن من المحتمل أن أكون على جهل بالوظيفة الحيوية التى يؤديها القلب ، ولو أنى عرفت ذلك لاشتبهت فى أن يكون قلب الثور قد أصابه الضنى وأدركه التقلص

(١) قارن الفقرة الحادية والحسين من الكتاب الأول (لويب) .

إثر مرض اعتراه حتى فقد تشابهه بالقلب . وإذا فرضنا أن القلب كان في الثور الذي يضحى قبيل ذبحه بلحظة ، فلماذا تظن أنه اختفى فجأة في نفس اللحظة التي ذبح فيها ؟ أليس الأخرى أن نقول إن الثور قد فقد قلبه عندما رأى قيصر في ثوبه الأرجواني وقد فقد رأسه . . . (١)

« إنى لأقسم أيها الرواقيون أنكم تسلمون حصن الفلسفة نفسه أثناء دفاعكم عن استحكاماتها الخارجية ! (تمسكون بالفروع وتتساحون في الأصول) لأنكم يا صراركم على صدق العرافة ، تدمون علم وظائف الأعضاء هدمًا كاملاً ، ففي الكبد رأس وفي الأحشاء قلب ، ولكن سرعان ما يختفيان ، فجأة وفي نفس اللحظة التي تنثر فيها عليهما الدقيق والنيذاجل إن إلهاماً ، قد اختطفهما بغتة ، إن قوة مّا غير مرئية ، ستحطمهما أو تلتهمهما فجأة ، وعلى هذا يكون كون الأشياء وفسادها جميعاً لا يرجع إلى نواميس الطبيعة ، فإن في الوجود أشياء تظهر من العدم ، أو تصبح بعد كونها عدماً ، فجأة وعلى غير انتظار ، فهل ذهب لي هذا الرأي فيلسوف طبيعي . . ؟ إنك تقول إن « العرافين قد قالوا به ، فهل تظن أن العرافين أجدر بالثقة والتقدير من الفلاسفة الطبيعيين ؟

١٧ - ثم إذا قدمت الضحايا لأكثر من إله في آن واحد ، كيف يحدث أن يكون الفأل ميموناً في حالة وشثوما في أخرى ؟ أليس قلباً غريباً من الآلهة أن يضمنوا أحشاء ضحية وعيداً بنقمة ، وأن يحملوا أخرى بشيراً بنعمة ؟ وهل يقوم بين الآلهة مثل هذا الخلاف - حتى بين الذين تربطهم أواصر القربى - إلى حد أن أحشاء الضحية التي تقدمها قرباناً « لأبولو » تحمل أبناء الخير ، بينما تكشف الضحية التي تقدمها في نفس الوقت إلى «ديانا» عن شر مقبل ؟ وإذا كانت الضحية تربي عفواً وتنشأ صادقة ، فإن من البين الذي لا شك في أمره ، أن الشاهد الذي تتلقاه عن الأحشاء يقوم على ما يحتمل

(١) يستخدم « شيعرون » الجنس بالاستعمال الشائع لكلمة Cor بمعنى العقل . قارن ملاحظة قيصر في مناسبة شبيهة بتلك (Suet. Jul. Caesar 77) وقد أشار فيها إلى أنه لا يعتبر شيئاً خارقاً أن تموزه القوة المدركة حيواناً متوحشاً (لويب) .

أن تأتي به المصادفات . ولكن ربما قيل : « إن الله هو الذي يشرف على هذا الاختيار ، كما هو الحال في أمر الأنصبة تماما ، فإن السحب تهيمن عليه الآلهة ، فلتحدث الآن عن الأنصبة :

إبتار رأى الأبيقوريين على رأى الروافيين :

إنك بمقارنة اختيار الضحية بالأنصبة لا تُثَقِّمُ قضية الأولى ، بينما تضعف قضية الأنصبة بهذه المقارنة ، فإني إذا أوفدت عبداً إلى دايكويمايليوم ، *Aequimaelium* في طلب حمل أضحيه قربانا ، فأحضر إليّ حملاً إذا أحشاء تناسب مطالب حالتى الخاصة ، فإن هذه لا تكون مصادفة فيما يلوح لى ، ولكن إلهاً هو الذى هدى العبد إلى هذا الحمل المعين ! فاذا قلت إن المصادفة فى هذه الحالة كذلك نوع من القرعة يتفق مع الإرادة الالهية ، فإني أشعر بالأسف لأن أصدقاءنا « الروافيين » يهثون « للأبيقوريين » بذلك فرصة عظيمة للسخرية ، لأنك تعلم مدى الاستهزاء الذى يبذونه عند سماع مثل هذا الكلام .

وهم يستطيعون أن يسخروا فى تल्पف أكثر من هذا ، لأن « أبيقور » قد أراد أن يهزأ بالآلهة ويحيطهم بالسخرية ، فثَلَّمهم فى صورة شفافة تهب الرياح عليهم مخترقة إياهم ، وصَّورهم مقيمين بين عالمين (١) — كما كانوا بين غابتينا (٢) — خشية الهلاك . ثم يعنى فى سخريته فيجعل للآلهة أطرافاً على نحو

(١) فكان الآلهة يهثون فى أمان إذا تمزق العالم لإربا إربا (لويب) .

(٢) كان المنخفض القائم بين قمتى التل الذى يقوم عليه الكابول ويسمى ملجأ أو ملاذاً أى *Inter Duos Lucos* . وتقول الأسطورة إن فى هذا المكان أقام « رميلوس » ملجأه الذى كان يلوذ به المجرمون . وكانت النسابت تقوم أول الأمر على قنن الجبال . أنظر *Platner, Topography & Monuments of Ancient Rome* ص ٣٠٥ (لويب) . وقد أراد « رميلوس » بعد أن شاد روما أن يفرى الناس بالاقامة فيها لئلا يملأها ملاذاً للمجرمين والهاربين من عبيد جيرانه إلى آخر ما تراه مفصلاً فى كتابى قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٢٩ وما بعدها طبعة أولى . ثم انظر فيما يحصل بموضوع آلهة أبيقور الكتاب الأول من « طبيعة الآلهة » لشيرون ، ولا سيما الفقرات ١٦ — ١٩ حيث يعرض النظرية أحد أتباع الأبيقورية : *Velleius* وفى الفقرات ٢٦ وما بعدها حيث ينقد النظرية « كوتا » أحد أتباع الأكاديمية (الجديدة) (جارنييه) .

ما لنا من أطراف ، ولكنهم لا يستخدمونها في عمل ما ، ومن ثم فإن « أبيقور » الذي يحطم الآلهة بهذه الطريقة الملتوية المعوجة ، لا يتردد في تحطيم التكنهن بالغيب من أخصر الطرق ، ومهما يكن من شيء فإن في تفكير « أبيقور » اتساقاً منطقياً ، أما « الرواقيون » فليس في آرائهم انسجام ، لأن إله « أبيقور » الذي لا شأن له بنفسه ، ولا بأى إنسان آخر ، لا يسعه أن يخلع على الناس القدرة على التنبؤ بالغيب ، كما أن إله « الرواقيين » لا يستطيع أن يمنحهم هذه القدرة ، رغم أنه يتولى حكم الدنيا ، ويقوم بتدبير الخير لبنى الإنسان . فلماذا تورطون أنفسكم - أيها الرواقيون - في مثل هذه السفسطة التي لا تقوون على إيضاحها أبداً ؟ إن أتباع مدرستكم يتسرعون في إقامة هذا القياس :

« إذا ثبت وجود الآلهة ، استقام وجود التكنهن بالغيب ، ولكن وجود الآلهة ثابت ، وإذن فالتكنهن بالغيب قائم ، وأدنى إلى المنطق أن يكون القياس على هذا النحو :

« ليس ثمة تكنهن بالغيب ، وإذن فليس ثمة آلهة » .

ولاحظ كم تعجلوا ، وضلوا السبيل عندما أعلنوا هذه القضية : « إذا لم يستقم وجود التكنهن بالغيب ، استعصى وجود الآلهة » ، أقول تعجلوا ، لأن من البين أن التكنهن قد تحطم كيانه ، ومع ذلك فإن لزوماً علينا أن نسلم بوجود الآلهة .

ب - مهاجمة التنبؤ عن طريق البرق

١٨ - وبتحطيمنا للتنبؤ عن طريق الأحشاء ، نكون قد قضينا على فن العرافة قضاء مبرماً ، لأن هذا المصير نفسه ينتظر التنبؤ بالغيب عن طريق البرق ونذر الزجر ، فأنك تقول إن المشاهدة التي تتكرر أمدأ مديداً تستخدم في حالة البرق ، وأن العقل والحدس قد جرت العادة باستخدامهما في نذر الزجر ، ولكن ما هذا الذي انتهت إليه المشاهدات في حال البرق ؟ لقد قسم أهل « أتوريبا » السماء إلى ستة عشر جزءاً ، وكان من أيسر الأمور عليهم أن

يضاعفوا الأجزاء الأربعة التي قسمنا نحن — معاصر الرومان — السماء إليها ، ثم يكررون تضعيفه ، فينتهي إلى ستة عشر قسما ، ويخبرون بعد هذا بالقسم الذي هبطت منه الصاعقة . أي فائدة نجنيها من معرفة موضع سقوطها ، ثم ماذا ينبئ عنه هذا ثانيا ؟ إنه لمن الواضح كل الوضح أن من الدهشة والخوف الذي يثيره البرق والصواعق في نفس الرجل البدائي ، قد نبعت عقيدته في أن هذه الظواهر أنشأها الإله « جوف » Jove القادر على كل شيء ، ولهذا تقول أساطيرنا في فن العرافة :

« إن جوف إذا رعد أو أ برق ، كان من الشطط إجراء الانتخابات ، وربما كانت الأسباب السياسية التي قضت بذلك ، لأن أسلافنا كانوا يلتمسون الأعذار لالغاء الانتخابات أحيانا ، فكان البرق في عرفهم نذير سوء في حالة الانتخابات وحدها ، أما في سائر الحالات الأخرى فقد اعتبر البرق عندهم طالعا (فالأ) ميمونا متى التمع يسارا^(١) . ولكني سأناقش العال والطيرة في مكان آخر ، أما الآن فحسبي البرق موضوعا للحديث .

١٩ — وعلى هذا فليس ثمة كلام صدر عن فيلسوف طبيعي أقل قيمة من نبوءات يقولها كاهن على سبيل اليقين ، مستندا إلى شواهد ظنية لا تقوم على يقين ، وما أظن — على التحقيق — بأنك بلغت من سرعة التصديق حداً تعتقد معه أن صاعقة «جوف» قد أنزلها نوع من الشياطين^(٢) على جبل « أيتنا » إذ لو لم تكن لديه إلا صاعقة واحدة ، لكان إلقاؤها بين الحين والحين أمراً يثير الدهشة ، ثم إنه لا يستطيع أن يسدى إلى الناس بصواعقه كثيرا من النصائح ، لينبئهم بذلك إلى ما ينبغي فعله وما يجب الإمساك عن عمله ، ولكن « الرواقين » يصفون الصاعقة على هذا النحو :

(١) أنظر الفقرة السابعة من الكتاب الأول والناسمة والثلاثين من الكتاب الثاني .

(٢) Cyclopes جنس خرافي من الشياطين ، كانت صقلية مهدده الرئيسي ، ولكل شيطان عين تقع في منتصف جبهته ، وعدد هذه الشياطين كثير .

وصف الصواعق المنزرة عند الرواقية و مناقشة :

عندما تتصاعد من الأرض أبخرتها الباردة وتشرع في الدوران ، تتحول إلى رياح ، فاذا اقتحمت هذه الرياح سحبها ما ، أخذت (الرياح) في التشتت ، وانتثر الدقيق من أجزائها ، فاذا تم هذا في سرعة بالغة وقوة عنيفة ، حدث الرعد ونشأ الرق . وعندما تتصادم السحب كذلك تنسحب حرارتها في عنف ، وتنشأ الصاعقة عن ذلك^(١) . وعلى هذا فاننا إذا عرفنا أن هذه الظواهر ترجع إلى علل طبيعية وتقع بغير نظام مطرد ، وفي غير وقت معين ، فكيف ننظر إليها باعتبارها شواهد تنبئ عن مقبل الأحداث ؟ إنه لمن الغريب أن يزجرنا « جوبتر » بالصواعق يرسلها في سخاء لغير ما سبب ! فماذا يقصد مثلا من إلقاتها في عباب البحار ؟ أو على قنن الجبال الشماء — كما يفعل في غالب الأحوال ؟ ثم خبرني لماذا يلقيها عبثا في رحاب الصحارى المنعزلة عن كل نطاق معمور ؟ ولماذا يرمى بها على شواطئ شعوب لا تلتقي لها بالآ ؟

مناقشة استمرارات الرواقية والاصرار على تعليلها :

٢٠ — يا للعجب ! ولكنك تقول « إنهم عثروا على رأس التمثال في نهر التيبر »^(٢) كما قال العرافون تماما — كأنك اقترضت أني ذهبت إلى القول بأن عرافيك مجردون من كل فن^(٣) إن موضوع الخلاف بيننا هو أني أنكر وجود التكهن بالغيب ، فان تقسيم السموات على النحو الذي أشرت إليه من قبل^(٤) ،

(١) يرى الرواقية فيما يروى ديوجانس اللايرتي وجود علاقة بين ظاهرة النجم الذي ينتج عن حرارة الشمس وبين التيارات الهوائية ، والرياح عندما تسمى بأسماء مناطق السماء التي تهب منها ، والأصل هو فعل الشمس مع بخار الماء (جارنييه) .

(٢) قارن الفقرة العاشرة من الكتاب الأول (لوب) .

(٣) قارن الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثاني « لوب » ويلوح أن شيفرون يريد أن يقول إن الديافين كانوا على شيء من الذكاء يمكنهم من معرفة الاتجاه الذي يجب التزامه في البحث عن الرأس ، وفي أي مكان سقط في النهر (جارنييه) .

(٤) قارن الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثاني (لوب) .

وملاحظة ما حدث في كل قسم منها ، يمكّن العرافين من معرفة المكان الذي تهبط منه الصواعق أو تمضى إليه ، ولكن ليس في ذلك ما يحتمل أن يكشف لنا عن قيمة الصاعقة في مجال الغيب المحجب ، بيد أنك تسخر لمهاجتي أشعاراً نظمتها أنا من قبل (١) .

[وقف أبو الآلهة والبشر ذو الرعد السماوى على جبل أوليموس الذى يطاول النجم ، وأرسل شبهه ليدهر معابده وآثاره ، ورمى معبد الكايتول بنيرانه] .

وقد مضيت فى شعرى بعد هذا وقلت إن تمثال « ناتسا » Natta وصور الآلهة والقطعة الفنية التى تمثل « روميلوس » ، و « ريموس » مع الذئبة التى تعهدت تربيتهم (٢) ، قد نزلت بها صاعقة فهوت تلك الصور والتماثيل إلى الأرض جميعاً ، وقد تحققت النبوءات التى استنتجها أهل العرافة من هذه الأحداث بخدافيرها ، وفوق هذا فإنك تستشهد بى كمصدر تستقى عنه هذه الحقيقة المعروفة ، وهى أنه فى نفس الوقت الذى قدم فيه لمجلس الشيوخ الدليل على المؤامرة ، كان تمثال جوبتر الذى تقررت إقامته قبل ذلك بعامين ، يشاد فى الكايتول .

وكنت تناقشنى قائلاً : هل تقنع نفسك بمهاجمة التكهّن معلناً خصومتك لى ، رغم ما أسلفت من كتابات ، ورغم مهنتك التى تشغلها ؟ « إنك أخى ولهذا فإنى أحجم عن اتهامك بنفس الإثم الذى تتهمنى به ، ولكن معذرة يا أخى ، ما الذى يثير فى نفسك الضيق من هذه المسألة ؟ ، أهى طبيعة الموضوع ؟ أم هو إصرارى على اكتشاف الحقيقة ؟ إنى أتخطى شكواك

(١) يذكر هنا بعض الآيات التى سبق له أن ذكرها بعد الفقرة الحادية عشرة من الكتاب الأول وكنا قد أهملنا ترجمتها لقلة أهميتها كما أضربنا من قبل ، ولكنه ذكرها — فيما رجعتنا — اعترافاً بشعر نظمه ولم يجد من يقدره .

(٢) ترى قصة هذه الذئبة مع « روميلوس وريموس » فى الفصل الذى عقده عن « نشأة روما ونموها » — كما ترويه الأساطير — فى كتابى : قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٢٧ وما بعدها من الطبعة الأولى .

من تناقضى ، وأتس إليك إيضاحاً لموضوع العرافة كله ، ولكنك لجأت الى ملاذ غريب ، فقد تفتأت بأنى سأحرجك عند ما أطلب اليك إبداء العلة فى كل ضرب من ضروب التنبؤ بالغيب ، فوجدت فى ملاذك الكثير لنقوله بصدد هذه الحقيقة :

ما دمت أرى ما يفتى إليه التكهين بالغيب ، فإنى لا أستفسر عن السبب أو العلة التى أدت إلى ذلك ، والشئ الذى يعنيننا من هذا هو : ماذا يسفر عنه التكهين ؟ لا لماذا انتهى إلى ذلك ، كأتى أسلم معك بأحد أمرين : أن التكهين قد أدى إلى نتيجة ما ، أو أنه كان من الجائز لفيلسوف ألا يستفسر عن العلة فى حدوث شئ ما ١ ، وقد قدمت فى هذه المناسبة كتابى فى « النذر » (١) وبعض نماذج من حشيش « الأرسطولو كيا » و « المحمودة » قائلاً إنك استطعت أن تعرف فضلها وتبين نتيجة فطلمها ، ولكنك أخفقت فى معرفة السبب فى ذلك (٢) .

٢١ - ولكن شرحك هذا ليس فى صميم الموضوع إطلاقاً ، فإن « بيثوس » الرواقى (٣) - وقد أسلفت الإشارة إليه - وصديقنا « بوسيدونيوس » قد تناول بالبحث الأسباب التى تؤدى إلى الظواهر الجوية ، ولو أهمها لم يكتشفا هذه العلل ، فإن الظواهر نفسها يمكن أن تخضع للمشاهدة وتكون موضع دراسة ، أما فى حالة تمثال « ناتا » ولوحات القوانين النحاسية التى حطمها البرق ، فأية فرصة هناك تُمكن من المشاهدة التى تتكرر زماناً مديداً ؟ إنك تقول إن « ناتاس » من الأسرة « البينارية » - الرومانية - وأنها انحدرت عن أصل نبيل ، وعلى هذا كان من المتوقع أن يكون النبلاء مصدرأ لخطر داهم . ما أمهر « جوبتر » فى اختلاق الوسائل لجزرنا عن الخطر او قلت « إن تمثال الطفل « روميوس » قد أدركته صاعقة ، فتكهين العرافون

(١) قارن الفقرة الثامنة من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن الفقرة العاشرة من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن الفقرة الثامنة من الكتاب الأول .

استنادا إلى هذا الحدث ، بأن الخطر سيدهم المدينة التي شادها . ما أعقل جوبتر في استخدام الشواهد في حمل الأنباء اليها ، وتقول كذلك : « إن تمثال « جوبتر ، قد أقيم في نفس الوقت الذي كشفت فيه المؤامرة » وأنت تميل بغير شك إلى أن تردّ هذا الاتفاق في وقوع الأحداث إلى العناية الإلهية ، أكثر مما تميل إلى إرجاعه إلى محض المصادفة ، وإني أظن أن الرجل الذي عهد إلى « كوتا » و « توركاتوس » Torquatus في إقامة التمثال ، لم يرجح إتمام عمله لفتور في همته أو لعوز مادي ، ولكن يده لم تتحرك للعمل إلا في الساعة التي حددها الآلهة المخلدون !

اقرار المصادفة في مجال التكهن :

ليس بي من شك مئس بهدد هذه النذر التي أرسلتها الآلهة حقا ، ولكنني أجهل وجودها ، وأود أن أعرف منك وجه الحق في أمرها . وعندما وقعت أحداث أخرى كتلك التي تكهن بها العرافون ، ولاحظت أني أعزو اتفاق وقوعها إلى المصادفة ، أسهبت أنت في الحديث عن اتفاق المصادفات ، فمن ذلك أنك قلت : « إن رمية « فينوس » ، في زهرات النرد الأربع قد تعزى إلى المصادفة ، ولكن إذا أسفرت مائة رمية لفينوس ، فإن هذا لا يمكن أن يكون محض مصادفات »^(١) . وأنا لا أدري أولا لماذا يكون هذا مستحيلا ، ولكنني لا أصر على هذا الرأي ، لأن لديك من أمثلة هذا النوع كذا كبيرا ، ومن ذلك المثال الذي ضربته عن انتشار الألوان ، أو ذلك الذي سقطته عن خرطوم الخنزير وغير ذلك من الأمثال كثير ، ثم إنك ذكرت عن « كاريادس » تلك الأسطورة التي تدور حول رأس الإله « بان » ، كما لو كان التشابه لا يمكن أن تؤدي إليه المصادفات ، كما لو كانت قطعة الرخام لا تنطوي بالضرورة على رؤوس تشبه الرؤوس التي يبدعها « برا كستيليس » Praxiteles^(٢) لأن

(١) قارن هذا وما يليه من أمثال في الفقرة الثانية عمرة من الكتاب الأول « لوب » .

(٢) Praxiteles هو مثال يوناني ولد في أثينا حوالي عام ٣٩٠ ق . م وقد كانت تماثيله

التي نحتها لفينوس ذاتمة الشهرة في العصور القديمة .

الروائع الفنية التي أبدعها ، قد صنعها بنحته الرخام ، ولم يضاف إليها شيئا ما ، وبعد أن استنفد في النحت جهودا ، تكشففت ملامح وجه ما ، ومن هذا يرى المرء أن العمل الفنى الذى تم صقله وإعداده ، كان كامنا فى ثنايا قطعة الرخام ، وعلى هذا فإن من الممكن أن تظهر الصورة التى وصفها «كارنيادس» من تلقاء نفسها فى محاجر «شيان» Chian ، ثم قد تكون القصة - من جهة أخرى - من نسيج الخيال ، وهذا بالإضافة إلى إنك كثيرا ما لاحظت السحب وهى تأخذ شكل أسد أو صورة هيطر ، وإذن فن الممكن أن تحاكي المصادقة الحقيقة ، وهذا هو الذى أنكرت التسليم به الآن (١) .

ح - مهاجمة التكهن بنذر الزجر

٢٢ - قد استوفينا الآن مناقشة التكهن بالغيب عن طريق الأحشاء والبرق ، وبقي علينا أن تناقش نذر الزجر ، إذا كان لا بد لنا من أن نعالج العرافة فى مختلف صورها :

الجهل بالعدّة سائر الاعتقاد بالغيب :

لقد تحدثت عن بغلة تلد فلوا (٢) ، مثل هذا الحادث يثير العجب لأن وقوعه نادر ، لو أن هذه الحادثة كانت مستحيلة لما وقعت ، وربما قيل بحمق فى مهاجمة نذر الزجر ، إن الشيء المستحيل لا يقع أبدا ، والشيء الممكن لا يثير وقوعه فى النفس دهشة ، فإذا وقعت حادثة جديدة كان الجهل بعلتها مشار دهشتنا ، بينما لا يثير هذا الجهل بالأشياء التى يتكرر وقوعها دهشة ما ، لأن المرء الذى يتعجب من ولادة البغلة ، لا يعرف كيف تلد الفرس ، بل يجمل الولادة عند مختلف الحيوانات بوجه عام ، إن ما يراه كثيرا لا يثير الدهشة فى نفسه ، حتى ولو جهل كيفية وقوعه ، فإن وقع ذات مرة أمر لم يعهده من

(١) قارن الفقرة الثانية عشرة (فى نهايتها) فى الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن الفقرة السابعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) .

قبل بتاتا، اعتبره نذير سوء . وإذن فأيهما يكون النذير الزاجر : حمل البغلة أو ولادتها ؟ ربما كان الحمل لا يتفق مع ما ألف الناس في الطبيعة ، ولكن الولادة تبيح كنتيجة ضرورية للحمل .

نشأة علم العرافة وناقشتها :

٢٣ - « لعل من نافلة القول أن نقول عن العرافة شيئاً أكثر من هذا ، ومع ذلك فلنعرض للبحث في مصدرها ، وبهذا يسهل علينا أن نحدد قيمتها : يقول الأثر المتواتر إن فلاحاً كان يحرث حقلاً ذات يوم في إقليم « تاركويني » فخاص المحراث أعرق بما ألف أهل الحرث ، ثم ظهر شبح Tages^(١) وشرع يتحدث إلى الفلاح الذي كان يقوم بحراثة الأرض ، وتقول الأساطير عن أهل أتورريا ، إن هذا الشبح كان يبدو في صورة ولد ، ولكنه كان على حكمة نبي ، فأدركت الحيرة هذا الفلاح ، وأصابه الروع من جراء هذا المنظر المخيف ، فصاح يلتمس النجدة ، وأخذ الناس يتجمعون حوله ، حتى تكس أهل أتورريا في هذه البقعة في وقت وجيز ، وعندئذ شرع الشبح يتكلم في استفاضة إلى مستمعيه^(٢) الذين كثر عديدهم ، وكانوا يتلقون بلهفة كل ما كان يقوله واهتموا بتسجيله ، وكان خطابه منصبا على تغيير علم العرافة ، ثم اهتدى الناس بعد ذلك إلى معلومات جديدة ، خبروا أمرها في ضوء القواعد التي عرفوها عنه ، فأضافوا هذه الحقائق الجديدة إلى ما توافر لديهم من حديثه عن العرافة .

تلك هي قصة العرافة كما انحدرت إلينا عن أهل أتورريا أنفسهم : وكما دوتها أساطيرهم ، وهذا عندهم هو الأصل الذي نشأ عنه فنهم ، فهل ثمة من حاجة إلى « كارنيادس ، أو « أبيقور ، ليدحض مثل هذا الهذر ؟ من في الدنيا

(١) Tages هو حفيد « جوبتر » ولكن بعض المؤرخين يرون أنه وليد قصير القامة . نشأ عن كتلة طينية أخرجها محراث فلاح كما بلوح من النس ، وهو أول من علم أهل أتورريا علم التكهن بالغيب والعرافة .

(٢) قارن : Ovid, Met. XV.553 (لوبي) .

بلغت به الغباوة إلى حد أن يعتقد أن حرث الأرض يكشف عن إله أو إنسان، لست أدري ماذا أقول؟ فإن كان إلهاً فلماذا أخفى نفسه في جوف الأرض على غير ما تقضى به طبيعته، حتى يكشف عنه ويظهره للناس محراث؟ أما كان يمكن لهذا الإله المزعوم أن يعلن هذا الفتح للبشر من مكان أكثر من هذا سما؟ ولكن أرجو أن تنبئني، إن كان هذا الشبح رجلاً، فكيف أمكن أن يعيش مغطى بالتراب؟ وأخيراً أين تعلم هو نفسه تلك المعلومات التي أفضى بها للاغيار؟ ولكن من المحقق أني حين أستنفذ هذا الوقت الطويل في دحض هذا الذي يبدو هندياً، أكون أكثر (سخفاً) تمرداً على منطق العقل من أولئك الذين آمنوا بهذه الأسطورة.

٢٤ — وفي الحق لقد كانت ملاحظة بديعة قيمة تلك التي لاحظها وكاتوه منذ سنين طويلة عندما قال: «إنني لأعجب من عراف لا يضحك إذا رأى عرافاً آخر، إذ كم من النبوءات التي تكهن بها العرافون قد تحققت فعلاً؟ وإذا كان بعض هذه النبوءات يصدق، فأى سبب يمكن الاستناد إليه في التدليل على أن الاتفاق الذي كان بين الحادثة والنبوءة لا يرجع إلى محض المصادفات؟

عندما كان «هانيبال» في منفاه في بلاط الملك «بروزياس» أشار على الملك بأن يشعل نار الحرب، ولكن الملك أجابه قائلاً: «إنني لا أملك الإقدام على ذلك، لأن الأحشاء قد زجرتني عنه» فقال له «هانيبال»: «أنتق في قطع من لحم الثور أكثر مما تثق في قائد حنكته التجارب» (١) وكذلك الحال عندما حذر عراف طائر الصيت قيصر نفسه بألا يعبر أفريقيا قبل بدء الشتاء، ألم يعبرها قيصر؟ ولو أنه أحجم عن ذلك، لمسكتن قوات العدو من أن تتجمع للقاءه في مكان واحد.

ماذا أقول عن العرافة أكثر من هذا؟ إن من المحقق أني أستطيع أن

(١) عقدت في كتابي « قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة » فصلاً عن « هانيبال قائداً وشريداً » ترى فيه موقف بروزياس — ملك بئينيا — من هانيبال . أثار ص ٢٠١ وما بعدها من الطبعة الأولى .

أقدم من الأمثلة ما لا يحصيه العد ، لكي أدلل به على أن نبوءات العرافين كانت لا تنتهي إلى نتيجة ، أو أن النتيجة فيها كانت على عكس ما تقول النبوءة . كم من مرة — أيها الآلهة — أخطأ العرافون في الحرب الأهلية الأخيرة .؟ أية نبوءة هبط بها الوحي وبعث بها أهل العرافة من روما إلينا — نحن أعضاء حزب بومبي — وأرسلوها إلى بلاد الإغريق .؟ وكم من التأكيدات قدموها إلى بودي .؟ فقد كان «بومبي» يسرف في الاعتماد على نبوءات الأحشاء ونذر الزجر ، لست أريد أن أعيد إلى الذهن هذه الأحداث ، فليس وراء ذلك جدوى ، ولا سيما وأنت على علم يقين بأمرها^(١) ، ومع هذا فأنت تعلم أن النتيجة كانت على وجه التقريب عكس النبوءة دواما ، ولكن حسبنا الآن عن هذا ما أسلفناه ، ولنتحدث عن نذر الزجر :

٢٥ — « لقد سقت كثيرا من الأمثلة اقتبستها من أشعار نظمها وأنا قنصل ، وأوردت كثيرا غيرها لأحداث وقعت قبل الحرب المارسي^(٢) ، وكان «سيسنا» قد جمعها من قبل . وذكرت كما كبيرا رواه «كالستانس» لأحداث وقعت قبل معركة الأسبرطيين المنكودة عند «ليوكترا»^(٣) ومن المحقق أني سأتناول هذه الأمثلة مفرقة ، كلا على حدة بحسب ما تدعو الضرورة إلى ذلك ، ولكن فلأعرض الآن لمناقشة نذر الزجر إجمالا :

الاعتقاد في النذر لا يستقيم مع المنطق :

ما طبيعة هذه الدلالات الخفية ، أو هذه الأنباء السابقة التي يلقيها إلينا الآلهة لكي ينبشونا عن مقبل النكبات ؟ ولماذا — قبل كل شيء — يرى الآلهة المخلدون أن من الخير زجرنا بنذر لا نستطيع فهمها ، دون أن نستعين بمؤولين ؟ ولماذا — من جهة أخرى — يحنرنا الآلهة من أحداث لا نملك

(١) نلاحظ أن كوتتوس قد رد مقدما على هذا في الفقرة الثالثة عشرة من الكتاب الأول .

(٢) قارن الفقرة الثالثة والأربعين من الكتاب الأول (لوبي) .

(٣) قارن الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الأول (لوبي) .

اتقاء شرها . ؟ إن الانسان نفسه — وهو كائن فان غير مخلد — متى أوتى الإحساس بالواجب ، يكف عن تحذير أصدقائه من المصائب التي توشك أن تقع ، إن كان من المستحيل الهرب من مواجهتها ، فن ذلك أن الأطباء يعرفون في كثير من الحالات أن مرضاهم يشرفون على الموت من جراء مرضهم ، ولكنهم لا ينبثون هؤلاء المرضى بذلك أبدا ، لأن التحذير السابق من شر مقبل ، لا مبرر له ، إلا إذا اقترن ببيان الطريق الذي يؤدي إلى اتقاء هذا الشر ، وإذن فكيف أفاد الإسبرطيون من نذر الزجر ومؤوليا منذ زمان طويل ؟ وكيف انتفع بها أصدقاؤنا أتباع «بومي» بعد هذا الزمان . ؟ إذا كان لا بد من اعتبار هذه الشواهد التي تحدث عنها كندر أوحث بها الآلهة ، فلماذا شابهها الغموض على هذا النحو ؟ فلو كان من حقنا أن نعرف الأحداث التي توشك أن تقع ، لوجب أن يسدوا لنا ذلك في وضوح وجلاء ، أو إذا كان الآلهة لا يريدون أن يمكننا من معرفة ذلك ، لما أخبرونا به ، لا جليا ولا خفيا . كما لنا في أحجية وألغاز .

٢٦ — وكل ضرب من ضروب الحدس — والتكهن (عن طريق نذر الزجر) إنما يعتمد على الحدس — يستخدم الناس في أكثر الحالات ذكاهم في ممارسته ومزاوته ، ومختلف طرقهم في ذلك ، بل وتناقض ، وكما أننا نرى المدعى في الدعاوى القضائية يستنبط استدلالا ، ويستنبط المحامي للمدعى عليه استدلالا آخر ، وكلا الاستدلاليين مستنبط من مجموعة واحدة من الوقائع ، ومع هذا فقد يكون لكل من الاستدلاليين وجاهته ، فكذلك الحال في كل بحث يستند عادة إلى الحدس ، إذ نلاحظ أن الإبهام يشوبه . وفوق هذا فانا نجد في حالة الأحداث التي تقع على سبيل المصادفة حيننا ، وبالطريق المألوف الطبيعي حيننا آخر — وقد تنشأ أخطاء بالغة الكثرة من الظواهر الخداعة الباطلة — أن من الطيش البالغ أن نعتبر الآلهة علة مباشرة ، ولا نستفسر عن أسباب مثل هذه الأحداث .

التفسير المنطقي لاستشهادات الرواقية كقيل بدمعصرها :

إنك تعتقد أن شعراء « بيوتيا » في « لباديا » قد تذبذبوا بانتصار الطيبين ، استناداً إلى الديكة ، لأن الديكة — فيما تقول — من عادتها أن تلزم الصمت إذا أدركتها الهزيمة ، وتزحف إلى الصياح متى كانت منتصرة^(١). فهل تعتقد حقاً أن « جوبتر » كان يستخدم الكتاكيت في حمل مثل هذه الرسالة إلى دولة عظيمة كهذه الدولة .؟ وهل صحيح أن هذا الطير لم يتعود الصياح إلا إذا كان منتصراً .؟ ولكن الديكة قد صاحت في هذه المرة دون أن تكون منتصرة إذ ذاك ، ولكنك تقول : « إن هذا كان نذيراً زاجراً ، إنه نذير بديع حقاً . إنك تتكلم كما لو كان الصائح سمكة وليس ديكاً من عادته أن يصيح . ولكن خبرني ، هل ثمة وقت ما — في ليل أو نهار — لا تكون فيها الديكة عرضة للصياح .؟ وإذا كان الإحساس السار — أو سمّه المرح إن شئت — ذلك الذي ينشأ عن الانتصار ، هو الذي يحملها على الصياح ، فإن من الممكن على هذا أن يكون للمرح الذي ينشأ عن مصدر آخر نفس هذا الأثر . ونقول عرضاً إن « ديمقريطس » يقدم شرحاً طيباً قيماً يكشف فيه عن السبب الذي يدفع الديكة إلى الصياح قبل مطلع النهار ، فيقول « إن طعامها متى هضم ، خرج من الحوصلة ووزع على الجسم كله ، وفي الوقت الذي تتم فيه هذه العملية ، تكون الديكة قد استوفت حظها من النوم ، فتشرع في الصياح ، وإذن فهي حتى سكون الليل — كما يقول « أنيوس » — تنطلق حناجرها الشقراء بالصياح ، وترفرف بأجنحتها غير المرئية ، وعلى هذا فإن هذا الطير نزاع إلى الصياح بمحض إرادته ، ولهذا فمن المحتمل أن يدفع إلى الصياح تحت تأثير طبيعته أو على سبيل المصادفة . فكيف قال « كالليستانس » إن الآلهة تنقل النبوءات إلى الناس عن طريق الصياح الذي يصدر عن الديكة .؟

٢٧ — إنك تقول إن البعض قد رفع إلى مجلس الشيوخ أنباء بوجود

(١) قارن الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

مطرة من الدم ، وأن نهر « أتراتوس » قد فاض بالفعل دما ، وأن تماثيل الآلهة قد تصببت عرقاً (١) . فهل يمكن أن تتصور أن « طاليس » أو « أنكساجوراس » ، أو أى فيلسوف طبيعي آخر ، كان من الممكن أن يعتقد في صحة مثل هذه الأنباء .؟ إن الدم والعرق لا يصدران على وجه التحقيق إلا عن أجسام حية ، وقد يسفر امتزاج الماء ببعض أنواع التراب عن شيء بالغ الشبه في لونه بالدم ، والملاحظ أن الندى الذى يتكون على ظاهر الأشياء - على نحو ما نرى فوق حوائطنا الطينية عند ماتب الرياح الجنوبية - يبدو شديداً بالعرق ، ومثل هذه الأحداث التى تبدل للخائف الوجع أيام الحرب مألوقة صحيحة إلى أقصى الحدود ، قلما تلاحظ أيام السلام . ثم إن القصص التى تروى عن نذر الزجر ليست سهلة الاعتقاد فى الفقرات التى يشيع فيها الخوف وينفشو الخطر فحسب ، بل إنها كثيراً ما تختلق فى جو كله أمن وطمأنينة . ولكن هل بلغت بك السذاجة وعدم التبصر إلى حد أن تظن أن قرض الجرذان لشيء ، يعتبر نذيراً زاجراً ..؟ مع أن الجرذان لا عمل لها فى الحياة إلا قرض ما يصادفها من أشياء ... وتقول : « ولكن العرافين قد أعلنوا كنذر مروع للزجر ، أن الجرذان قد قرضت التروس فى « الأنوفيوم » قبل حرب المارسي (٢) ، كما لو كان هناك فارق ما ، بين قرض الجرذان للتروس أو للرايل - وهى التى لا تكف عن القرض ليلاً ونهاراً . . .

وقد وقع هذا النذر نفسه لى ، إذ قرضت الفيران فى بيتى كتابى « جمهورية أفلاطون » منذ عهد قريب ، فيجب أن أمثلء روعاً من أجل الجمهورية الرومانية . . . أو إذا كانت هذه الفيران قد قرضت كتابى الذى وضعه « أيقور » عن اللذة ، لكان يجب أن أتوقع ارتفاعاً فى أسعار الطعام (٣) .

(١) قارن الفقرة الثانية والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن الفقرة الثالثة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) من عادة شيمرون أن يشير إلى « أيقور » باعتباره داعية اللذات الحسية ، ولكنه هنا يداعبه فيفرض أن كتابه عن اللذات ينطوى على الرغبة فى إكثار عدد النهيئين =

دعوه النذرة كنتير زاجر:

٢٨ - « وهل نرتاع من قصص تلك النذر التي يتكشف عنها مولد حيوان أو إنسان ؟ وحسبنا أن نقول في إيجاز إن كافة نذر الزجر لها تأويل واحد لا ثاني له ، وهو : أن كل ما تكشف عنه الوجود أياً ما كان نوعه ، يجب أن نلتبس سببه في رحاب الطبيعة ، وليس من الممكن أن يكون على خلاف مع الطبيعة حتى ولو لم يتفق مع تجاربنا في الحياة ، وإذن فاكشف - إن استطعت - علة كل حدث يثير دهشتك ، فاذا عزّ الاهتداء إلى معرفة العلة ، فسكن على يقين بأن ليس ثمة شيء رغم ذلك يمكن أن يقع دون علة تبرر وقوعه . واستخدم مبادئ الفلسفة الطبيعية في إبعاد الخوف الذي قد يساورك من شيء نادر لم تألف ظهوره من قبل ، وبهذا فلن يثير روعك وقوع زلزال ، ولا انشقاق سماء ، ولا قطرات من الحجارة أو الدماء ، ولا سقوط الكواكب أو النجوم ذوات الذنب .

وإذا كان لا بد لي من أن أستفسر من « كريستوس » عن العلة في كافة الظواهر التي أسلفت ذكرها ، لما قال - هذا الكاتب الممتاز الذي كتب في التمكن بالغيب - إن هذه الأحداث قد وقعت على سبيل المصادفة ، ولكنه كان يجد في قوانين الطبيعة تفسيراً لكل منها ، إذ كان يقول :

« لا معلول بغير علة ، وما لا يمكن حدوثه ، لا يحدث بالفعل ، وإذا حدث شيء كان من الممكن أن يحدث ، لما اعتبر نذيراً زاجراً ، وعلى هذا فليس ثمة شيء اسمه نذير زاجر ، ولكن إذا كان ثمة شيء يعتبر نذير سوء لأنه نادر الظهور ، لكان ينبغي أن يكون الرجل الحكيم نذير سوء ، لأن المرات التي تله

في الطعام، وكلما ازداد عدد هؤلاء الأكوالين - سواء أكانوا ناساً أم جرذاناً - ارتفعت أسعار الطعام فيما يقول مترجم لويب . والعلاقة في المثالين واضحة ، ففي المثال الأول تظهر العلاقة بين جمهورية أفلامون والجمهورية الرومانية ، وفي الثاني يقول إن كثرة أكل الجرذان التي تطعم ، سيؤدي إلى نقص المواد الغذائية ، فينتهي هذا إلى ارتفاع في أسعارها (لويب) .

فيها البخلة فلوا ، أكثر — فيما أظن — من تلك التي تنتج فيها الطبيعة حكيمًا ..!! .
ويقدم « كريسبوس » في هذا الموضوع القياس التالي : إن الشيء الذي لم يكن في الإمكان حدوثه ، لا يمكن أن يكون قد وقع ، والشيء الذي كان يمكن وقوعه ، لا يعتبر نذيراً زاجراً ، وإذن فليس هناك شيء اسمه نذير زاجر بأى وجه من الوجوه . وهذا تفسره الإجابة الموفقة التي أجابها أحد الكهان ومؤولي نذير الزجر ، فقد طلب إليه رجل أن يفسر له قصة ثعبان باعتبارها نذير سوء ، وقال له إن هذا الثعبان قد ظهر في بيته ، وقد التف حول اسطوانة خشبية . فقال الكاهن : « ليس هذا نذير سوء ، وقد كان من الممكن أن يكون نذير سوء لو وجدت الاسطوانة الخشبية ملتفة حول الثعبان ..! فكشفت هذه الإجابة في وضوح مقنع عن « أن ما يمكن وقوعه لا يعتبر نذير سوء أبدا » .

٢٩ — إنك تشير إلى خطاب كتبه « جايوس جرا كوس » إلى « مار كوس بومبونيوس » ونص فيه على أن « تباريوس جرا كوس » ، أبا « جايوس » قد أمسك ثعبانين في بيته ، وأنه جمع العرافين^(١) ، ولست أدري لماذا يكون التشاور في أمر الثعبانين ولا يكون في أمر الجراذين أو الفيران . ؟ إنك تعلق على هذا قائلاً : « لأننا نرى الجراذين والفيران كل يوم ، وأما الثعبانين فانا لا نراها دواما » كما لو كان مدى تكرار الشيء الذي نعلم إمكان وقوعه ، يؤدي إلى فرق في هذا الصدد . ومع هذا فإن الشيء الذي يثير دهشتي هو هذا : إذا كان إطلاق أنثى الثعبان يؤدي إلى هلاك « تباريوس جرا كوس » وإطلاق الذكر ينتهي بموت « كورنليا » ، فاني لأدهش لماذا أطلق صراح أحدهما ولم يُبقي عليهما معا ؟ لأن « جرا كوس » لم ينص في خطابه على أن العرافين قد قرروا ماذا تكون النتيجة إذا أبقى الثعبانين ولم يطلق صراح أحدهما . ثم إنك تقول : ولنفرض الأمر كذلك ، وأن « جرا كوس » قد اختطفه الموت ، هذا أمر مسلم به ، ولكن موته قد نشأ عن مرض بالغ الخطورة ، ولم ينشأ عن إطلاقه صراح

(١) قارن الفقرة السابعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) .

الثعبان — هذا وليس العرافون من نكند الطالع بحيث لا تصدق نبوءاتهم أبداً — حتى على سبيل المصادفات . . . ١٠٠

٣٠ — « وسأعجب لا محالة بهذه القصة المعروفة التي اقتبستها عن هوميرو ، والتي تدور حول « كافكاس » الذي تذبأ بعدد السنين التي يستغرقها حصار ترواده ، من عدد العصافير — إن صح ذلك (١) — وقد ترجمت في فترة فراغ ما يقوله « أجاممنون » في إلياذة « هوميرو » (٢) عن هذه النبوءة ، ولكن أرجو أن تثبتني ، بأى قاعدة من قواعد العيافة تستنتج من عدد العصافير أعوام لا شهر ولا أيام . ؟ ثم لماذا يقيم العراف نبوءاته على عصافير صغيرة وهي لا تعتبر من المناظر الشاذة غير المألوفة ، ويهمل ما يدعيه الناس من أن إبليس قد تحول إلى حجر — وإن كان هذا مستحيل الوقوع — ؟ ثم ما حقيقة الأمر في تلك العصافير التي توحى بعدد السنين . ؟

وإني لأذكر ملاحظتين بمناسبة القصة التي رويتها عن الثعبان الذي ظهر أمام « سلا » عندما كان يقدم ضحاياه (٣) : أولها أن « سلا » عندما قدم القرابين وهو يتأهب للمسير للقاء عدوه ، ظهر له ثعبان كان تحت المذبح . وثاني الملاحظتين أن الانتصار الباهر الذي ظفر به « سلا » في هذا اليوم ، لا يرجع إلى فن العراف ، ولكنه يعزى إلى مهارة القائد .

٣١ — ليس فيما يزعمونه في نذر الزجر التي تدخل في هذا النوع الذي أسلفناه الآن شيء خليق بالذكر ، ولكن بعض المؤولين قد نقلوا الأحداث بعد وقوعها إلى مجال النبوءة ، فمن ذلك قصتك التي رويتها عن حبوب القمح التي تكدست في قم « ميداس » (٤) عندما كان طفلاً ، وعن النحل الذي

(١) قارن الفقرة الثانية والثلاثين من الكتاب الاول (لويب) .

(٢) إنه « عوليسس » Ulysses وايس أجاممنون — قارن الإلياذة ج ٢ ص ٢٩٩

(لويب وديماريه) .

(٣) قارن الفقرة الثانية والثلاثين من الكتاب الاول (لويب) .

(٤) قارن الفقرة الخامسة والثلاثين من الكتاب الاول (لويب) .

استقر على شفتي « أفلاطون » (١) وهو لا يزال في المهد صيا ، إن المعروف أنها تخمينات أكثر منها نبوءات حقيقية ، وهذا بالإضافة إلى أن هاتين القصتين ربما كانتا من نسيج الخيال ، فاذا لم تكونا كذلك ، فإن تحقق النبوءة كان أمرا عرضيا .

أما عن حادثة « روسكيوس » ، فربما كان اختلافا ما يقال من أن ثعبانا قد لف نفسه حوله ، ولكن ليس من الغريب أن يوجد في مهده ثعبان ، ولا سيما في « سولونيوم » ، حيث تتوافر في البيوت الأماكن المعدة للنار ، فيجذب الدفء كثيرا من الثعابين .

أما عن رأيك في أن العرافين قد تذبذبوا لـ « روسكيوس » ، بمستقبل في المجد لا يجارى ، فانه ليبدو غريبا على أن يتنبأ الآلهة المخلدون بمجد لممثل (هزلي) ، ولا يتنبئون بذلك للأفريقي « سيبو » ،

وقد جمعت قصصا عن نذر الزجر التي تتصل بفلاهيبيوس (٢) . وقلت « إن حصانه قد كبا وسقط الى الأرض » . هذا أمر غريب ، أليس كذلك ؟ وقلت « إن علم الفرقة الأولى قد استعصى اقتلاعه » ، فربما كان حامل العلم قد تمكن له حين غرسه ، فلما حاول اقتلاعه جذبته في رفق ، ثم أية غرابة في أن « فرس ديونييسيوس » قد نجا من الغرق ، أو أن نجلا كان على عرفه ؟ ومع هذا فقد اعتبر العرافون هذه الحادثة نذير سوء ، لأن « ديونييسيوس » قد تولى الحكم بعد ذلك بزمن وجيز ، الأمر الذي كان محض مصادفة .

وتقول : « إن الأسلحة قد صانت في معبد هرقل في اسبرطه ، وأن الأبواب في معبد هذا الإله في طيبه ، انفتحت من تلقاء نفسها ، رغم أنها كانت محكمة الغلق بقضبان ، وأن التروس المعلقة على حوائط هذا المعبد قد هوت إلى الأرض » (٣) . وإذا لم يكن في الإمكان أن يحدث شيء من هذا بغير قوة

(١) قارن الفقرة الخامسة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن الفقرة الرابعة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن في هذا وفي المتالين التاليين الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب)

خارجية ، فلماذا تزعم أنها وقعت بتأثير فعل إلهي ، لا على سبيل المصادفة . ؟
٣٢ - « إنك تذكر ظهور تاج من الحشيش البري على تمثال «ليزاندر»
في دلفي - وقد كان ظهوره فجائياً - فهل حقاً ما يقولونه في ذلك ..؟ وهل
تظن أن تاجاً من الحشيش يظهر إلى الوجود قبل أن تتكون بذوره . ؟ إنني
أعتقد - فوق هذا - أن هذا الحشيش قد نبت من بذور حملتها الطيور
ولم تغرسها يد بشرية ، ثم إن الخيال يصور للإنسان كل ما يعلو الرأس في
صورة تاج . وتقول : « إن النجوم الذهبية في الوقت نفسه قد هوت في معبد
«كاستر» ، و«بولوكس» ، في دلفي ، واختفت حتى لم يعثر عليها أحد ، ينجيل إلى
أن الأحرى أن نقول إن هذا عمل لصوص وليس عمل آلهة ..! وإنه لما يثير
دهشتي أن أرى مؤرخي الإغريق يسجلون ما قام به قرد «دودونا» من ألعاب
مشثومة ، إذ أى شيء أقل غرابة ، من أن يقلب هذا الحيوان القبيح وعاء
الأنصبة ويبعث ما يحويه . ؟ ومع هذا فإن المؤرخين يعلنون أن ليس ثمة نذير
وقع للأسبرطين وكان أكثر من هذا إثارة للربح . ؟

« ولقد تحدثت كذلك عن النبوءة التي أعلنها رجل من أهل «في»^(١) وقال
فيها : « إذا فاضت بحيرة «ألبانوس» ، وصبت في البحر مياهها سقطت روما ،
فإن عاقها عن ذلك عائق سقطت في » - حسن ، فقد حدث أن انسحب
ماء البحيرة ، ولكن خنادق الري هي التي سحبت ، ولم يكن هذا لإنقاذ
«الكابيتول» ، أو تأمين روما ، بل كان لصالح الأرض المنزرعة . وتعقب على
هذا قائلاً : « وبعد وقوع ذلك بأمد غير طويل ، سمع الناس صوتاً يحذرهم
ليتخذوا حيطتهم حتى لا تسقط روما في يد الغالين ، ولهذا أقاموا منبجاً على
الطريق الجديد ، تقديرًا لصاحب الصوت «أيوس المتكلم» ، ولكن لماذا -
هذا .. ؟ هل نطق هذا «الأيوس المتكلم» ، وتحدث قبل أن يعرف امرؤ من
هو ، فخلع الناس عليه اسم «المتكلم» ، من أجل ذلك . ؟ ثم هل أدركه الصمت

(١) قارن الفقرة الثالثة والأربعين من الكتاب الأول (لوب) .

وأصابه الخرس بعد أن ظفر بنفوذ وأقيم له مذبح وأصاب شهرة بين الناس ؟
ويمكن أن يقال هذا نفسه عن « جونو » الناصحة (١) إذ آية نبوءة أعلنتها لنا
إذا استثنينا نبوءة الخنزيرة الحلبى . ٤٠

د - مهاجمة التكهن باستنباء الطيور

٢٣ - حسبنا هذا عن نذر الزجر ، ولتحدث عن الفأل والطيرو والأنصبة ،
وأقصد بالأنصبة تلك التى يجرى سحيبها ، لا التى يعلنها الرمون ، والأصح أن
نسميها « وحيا » وسأعرض للحديث عن الوحي إذا انتهيت إلى التكهن الطبيعى
بالغيب ، ثم ينبغى مع هذا أن أناقش الكلدانيين ، ولكن فلنشرع فى الحديث
عن استنباء الطيور :

١ - سخفاف شيمرونه بالعيافة مع الاستئغال بها :

تقول « إن مهاجمة التكهن باستنباء الطيور شئ عسير على رجل من أهل
العيافة » أجل ربما صح هذا عن عياف مارسى ، ولكنه أمر سهل ميسور
لعياف رومانى ، لاننا معشر الكهان من الرومان ، لسنا من أولئك الذين
ينبتون بالمستقبل بملاحظة الطيور وهى تخلق فى الجو ، ونحو ذلك من شواهد ،
ومع هذا فإنى أسلم بأن « روميلوس » الذى شاد روما مسترشدا بهدى الطيور ،
كان يعتقد بأن العيافة فن مفيد فى معرفة الأشياء التى تقع ، لأن القدماء كانوا
يعتقون كثيرا من الآراء الخاطئة حيال كثير من الموضوعات ، ولكن فن
العيافة قد طرأ عليه الكثير من التطورات بفضل ما اهتمينا اليه من تجارب ،
وما بلغناه فى ميادين العلم ، أو بمضى هذا الزمان المديد ، ولكننا — تمشيا مع
رأى الجماهير وحرصا على صالح الجمهورية — قد عملنا على تقوية تقاليد العيافة
ونظمها وشعائرها الدينية وقوانينها ، كما رفعنا من شأن ديوان العيافة (٢) .

(١) قارن الفقرة الرابعة والاربعين من الكتاب الاول (لوب) .

(٢) كان شيمرون من أهل السياسة المتنازين فى عصره ، ومن شأن السياسة أن تطغى
على ما لاصحابها من آراء خاصة ، فهو لا يعتقد فى وجود التكهن بالغيب فى مختلف صورته ،
ولكنه كان يظهر بالاعتقاد فى صحته ، ويستغله فى تحقيق غايات كما يلوح من هذا النص .
وقد أشرنا إلى هذا فى المقدمة وقارن الفقرة الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين من
الكتاب الثانى أيضا .

أما القنصلان « بوبليوس كلوديوس » و « لوكيوس جونيوس » اللذان أبحرا على كره من زجر البارح من الطيور ، فقد كانا — فيما أرى — خليقين بما أصابهما من عقاب صارم ، إذ كان عليهما أن يحترما الديانة المرعية ، وما كان ينبغي أن يقفا من تقاليد أجدادهم هذا الموقف الذى يقوم على احتقار لا حياة فيه ، وإذن فقد كان عقاباً عادلاً أن يقرر الشعب إدانة الأول ، وأن يجهز الثانى على حياته .

وتقول : « إن » فلاننيوس « قد أبى أن يستجيب لما قضت به الطيور ، فلقى حتفه مع جيشه » . ولكننا نعلم أن « باولوس » قد أصاخ للطير بعد ذلك بعام واحد ، فهل استطاع أن يحتفظ بجيشه أو يبقى على حياته فى معركة « كاني » ؟ فلنسلم بوجود السانح والبارح فى الفأل والطيرة — وذلك ما لا وجود له — فإن من المؤكد أن هذا الذى نستخدمه الآن — سواء أسخرنا فيه الكتا كيت أم اعتمدنا فيه على ملاحظة السموات — لا يعتبر فألاً وزجراً بأى معنى من المعانى ، ولكنه مجرد طيف لها (١) .

امرات الحطام فى معرفة الطالع

٣٤ — إني ألتس معوتك فى معرفة الطالع يا كوتوس فايوس . فيجيب المساعد قائلاً : « ها أنذا مستعد لمعوتك » كان الحكام فى عهد أجدادنا يستدعون فى مثل هذه المناسبات كاهناً بارعاً فى معرفة الطالع ، أما فى هذه الأيام فإن أى امرئ يصلح لهذا العمل ، مع أن من الضرورى أن يكون المرء بارعاً ماهراً حتى يعرف ما يلائم لإجراء التنبؤ ، ونحن نقصد بهذا « خلو الظروف من كل ما يعرقل التنبؤ بالغيب » وتتوقف معرفة ذلك على خبير بفن العيافة ، فإذا قال الحاكم الذى يشرف على الطالع إلى مساعده :

(١) سيبدأ الآن شيشرون بشرح رأيه ، فيذكر تلك الصيغ الباطلة التى يستخدمها الحكام فى معرفة الطالع ميمونا كان أو شثوما — وهو يصور نفسه فى صورة الحاكم الذى يشرف على الطالع ، ويخاطب مساعده من أهل العيافة باسم « كوتوس فايوس » وهو ليس اسماً على معنى معين معروف ، (وشييه بهنا أن نسيه زبداً أو بكراً) (لويب) .

« نبتى متى يبدو أمامك الجو ملاماً ، أجب مساعده في سرعة دون بحث أو تردد أو تلفت : « يلوح أنه ملام ، فيقول الحاكم : « نبتى متى تشرع الكتاكيت في أن تطعم ، فيجيب هذا قائلاً : « إنها تطعم الآن » .

ولكن ما هذه الطيور التي يتبادلان الحديث عنها ، وأين توجد . . ؟
يقال : « إنها دجاج ، وأنها توجد في قفص ، وأن الشخص الذي أحضرها سمي بالدجاجي نسبة إلى عمله » .

أولئك إذن هم رسل « جوف » . . فأى فرق هناك بين أن تطعم هذه الطيور أو تمسك عن الطعام . ؟ لا علاقة لشيء من هذا بالطالع إطلاقاً ، ولكن الدجاج عند ما تطعم لا بد من أن تتساقط من فمها قطع من الطعام لا محالة ، فإذا سقطت ضربت بالأرض ، وإذن فعند ما تسقط كسرة صغيرة من الطعام من فم فرخة ، يعلن المياف للحاكم المشرف على الطالع ، أن كسرة الطعام قد مست الأرض (١) .

المضمون المياف :

٣٥ — ثم كيف يمكن أن يكون إلهيا ذلك الطالع المصطنع . . ؟ إن مثل هذه العادة التي لم يعرف أمرها بين عيافي العصور القديمة ، قد أيدتها سنة قديمة في كليتنا (ديواننا) ، مؤداها « أن الطائر قد يكشف عن طالع حين تسقط من فم كسرة الطعام عفوا ، فإن من الممكن أن يوجد الطالع متى كان الطائر حراً في أن يبين عن نفسه خارج قفصه ، في مثل هذه الحال يمكن أن يسمى الطائر ترجمان « جوف » ، وتابعه (٢) أما الآن ، وهو داخل قفص مغلق يؤذيه الجوع ، فإنه إن أمسك شريحاً بقطعة صغيرة من فضلات الطعام ، وسقط منها جزء من فمه ، اعتبروا هذا طالعاً ميموناً . . . وهل تظن أن هذه الطريقة هي

(١) قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) وقد عرض المؤلف بعد هذا تطور اللفظ في اللاتينية .

(٢) قارن هومير في الأوديسا ج ١٥ ص ٥٢٥ (لويب) .

التي كان « روميلوس » يكشف الطالع عن طريقها ؟ وألست تظن أن المشرفين على الطالع كانوا قديماً يكشفون عن الطالع بملاحظة السموات ؟ أما الآن فانهم يستمدون أنباءه من دجاجي يتكفل بالإجابة على ما يطلبون (١) . إننا نقول إن البرق متى التمع يسرة كان فلا ميمونا في كل حالة — إذا استثنينا حالة الانتخاب — ومن المحقق أن هذا الاستثناء كانت تهره مناسبات سياسية، هي تمكن حكام الدولة من الإشراف على نظام التصويت ، سواء أكان هذا لإصدار أحكام في قضايا جنائية أو لسنّ قوانين أو لانتخاب حكام .

ونقول إن القنصلين « فيجلوس » Figulus و « سيبيو » Scipio قد تنحيا عن وظيفتهما عند ما استند أهل العيافة إلى خطاب كتبه « تباريوس جراكوس » ، وقرروا أن هذين القنصلين لم يعينا تبعاً لقانون العيافة (٢) . فنذا الذي ينكر أن العيافة فن ؟ إن ما أنكره هو قيام التكهن بالغيب (٣) ولكنك تقول : « إن العرافين في وسعهم أن يكشفوا عن الغيب المحجب » وتروى هذه الحادثة التي تقول بأن رئيس المائة الأولى في الانتخاب كان يحمل نتيجة تصويت أعضائها إلى رئيس المجلس ، فأت فجأة وهو يحمل هذه الأصوات ، فاستند « تباريوس جراكوس » ، إلى هذا الحادث ، وقدم العرافين إلى مجلس الشيوخ ، فأعلنوا بأن الرئيس قد خالف قانون العيافة (٤) ولسنا نفهم من هذا — أولاً — أن العرافين قد قصدوا بالرئيس رئيس المائة الأولى ،

(١) من الواضح أن شيشرون يسخر هنا من فكرة الدجاجي لا من المشرف على معرفة الطالع (لويب) .

(٢) قارن الفقرة السادسة عشرة في الكتاب الأول (جارنييه) .

(٣) يراد بهذا فيما يلوح أن العيافة فن له قواعد ومبادئه ، ولكن هذا لا يمنع من إنكار صدق العيافة وغيرها من طرق التكهن .

(٤) وردت هذه الحادثة مسبهة في شيشرون : « طبيعة الآلهة » ج ٢ في الفصل الرابع ويراد بـ Prerogative Century فريق المائة الذي كان له حق التصويت في الانتخاب أولاً ، وقد كان له رئيس يقوم بجمع أصواته ، وكان يتألف المجلس من المنتخبين الذين حصلوا على أصوات الفرق المثوية ، وكان له رئيس أعلى جرت العادة بأن يكون القنصل الذي كان يتلقى تقارير رؤساء المئات التابعين له (لويب) .

إذ كانت المنية قد أدركت هذا الرئيس ، ولقد كان في وسعهم - ثانياً - أن يهتدوا إلى ذلك بالحدس دون الاستعانة بالتنبؤ بالغيب ، أو ربما قالوا هذا على سبيل المثال - وليس من الحكمة أن نفعل عن أهمية الاتفاق في مثل هذه الأحداث - إذ ما الذى يمكن العرافون من أهل أتروريا أن يهتدوا إلى معرفته - سواء ما اتصل بإقامة خيمة العرافة في مكانها اللائق بها ، أم بملاحظة الترتيبات التى تتعلق بتخوم المدينة . . ؟ وأنا من جانبي أميل إلى الاتفاق مع « جايوس مارسيلوس » فى رأيه ، ولا أميل إلى تأييد الرأى الذى ذهب إليه « أيبوس كلوديوس » ، فأظن أن قانون العياقة وإن كان قد قام فى أول أمره على عقيدة فى التكهن بالغيب ، فإن الدوافع التى أدت إلى حفظه وصيائه بعد ذلك ، إنما ترجع إلى اعتبارات سياسية .

صهاجمة العياقة عند غير الرومان :

٣٦ - ولكننا سنتناول النقطة الأخيرة بالإسهاب فى أبحاث أخرى ، فلننفل الآن الحديث عنها ، ولنمض إلى البحث فى فن العياقة كما تمارسه الأمم الأجنبية ، التى تستخدم طرقاً تغلب فيها الخرافة جانب الفن ، إنهم يستخدمون كافة أنواع الطيور على وجه التقريب ، أما نحن معاشر الرومان ، فإنا لا نستخدم إلا القليل منها ، والميمون من الشواهد عندهم قد لا يكون ميمونا فى عرفنا ، وقد كان الملك « ديوتاروس » كثيراً ما يستفسر منى عن النظام الذى تتبعه - نحن الرومان - فى فن العياقة ، وقد كنت أستفسر منه بدورى عن النظام الذى تتبعه أمته بصدد هذا الفن ، أيها الآلهة . اكم تبيان طرق العياقة بين شعب وشعب . ؟ إنها لتختلف اختلافاً بيناً حتى ليحمل الشاهد عند شعب عكس المعنى الذى يحمله عند شعب آخر ، إنه كان على الدوام يستنبه الطيور ليعرف السامح والبارح منها ، أما نحن فلا نستخدمها أبداً إلا حين تقضى إرادة الشعب باستخدامها ، وقد كان أسلافنا لا يقدمون على تنفيذ مشروع حرنى دون أن يستنبؤوا الطيور ليعرفوا فألها وزجرها ، أما

الآن فإن حروبنا يتولاها منذ ستين عديدة مساعداً القناصل ومساعدو الحكام الذين يلون القناصل في المرتبة ، وليس من حق هؤلاء أن يستنبوا طيراً ، بل ليس لديهم طائر يسخرونه في معرفة الفأل ، وهم يعبرون الأنهار دون أن يعرفوا الطالع فيما هم مقبلون عليه ، فإذا آل إليه التنبؤ بالغيب عن طريق الطيور ؟ إن الذين تولوا حروبنا لا يستخدمونه لأنهم لا يملكون الحق في استنباء الطيور لمعرفة فأطهاوزجرها ، وماداموا قد كفوا عن استخدامه في أمر الحروب ، فاني أظن أنهم يحتفظون به لاستخدامه في شئون المدينة وحدها ..

التكهن بأدوات القتال :

أما عن التكهن بأدوات القتال^(١) وهو ما كان في الشئون الحربية إجمالاً ، فقد كان . ماركوس مارسيوس ، يجهل أمره جهلاً قاطعاً ، وهو الذي شغل القنصلية خمس مرات ، وكان فوق هذا قائداً أعلى للجيش ، كما كان عرافاً دقيقاً . وكثيراً ما كان يقول إنه إذا شاء القيام بحركات عسكرية يخشى زجر الطيور في أمرها ، رحل في محفة مغلقة^(٢) . إن طريقته تتفق مع ما تنصح به نحن معاصر العيافين ، حين نأمر برفع النير عن الحيوانات اللذين يجران المحراث لمنع الفأل المشثوم^(٣) . . . فإذا بقي للاله «جوف» ، ليزجر به محذراً ، اللهم إلا أن يمنع من وقوع الطالع ، أو يحول بين رؤياه إن وقع ؟

(١) كان المفروض أن يكون هذا النوع من التكهن قائماً على الوميض الكهربائي الذي يبدو من رءوس الحراب والسيوف والمزاريق . قارن Seneca. Q.N.i.1, Pliny. H. N. .
ii. 37, Cic. N.D: ii. 3.9, Livy, XXii.1 Xliii.13 (لويب) .

(٢) حتى لا يرى شاهداً زاجراً لا يتفق مع مقصده (لويب) .

(٣) كان هذا يقع عندما يوضع النير على عنق زوج من الماشية ، فيزبلان في وقت

واحد (لويب) .

مناقشة استمرارات الرواقية :

٣٧ — « إن قصتك التي رويتها عن « ديوتاروس » ،^(١) تبدو على تناقض
يثن : « إنه لم يأسف على طالعه الذي تكشف له وهو يهيم بالحساق بيومي ،
ولقد أدى به هذا الطالع إلى أن يواصل طاعة الشعب الروماني وبني بصداقته ،
ويؤدى واجبه نحوه ، لأنه كان يحرص على سمعته وشرفه ، أكثر مما يحرص على
حيازة الملك واقتناص الغنى ، وإنى لأقول إن هذا لا يتمل بفأل الطيور وزجرها
في كثير أو قليل ، لأن الغراب لم ينبئ « ديوتاروس » ، بأنه كان على حق في تولى
الدفاع عن حرية الشعب الروماني ، وقد كان ينبغي أن يعرف هذا بنفسه ،
وفي الحق لقد اهتدى إلى معرفته ، فإن الطيور تنبئ بأن العاقبة ينتظر أن تكون
ميمونة أو مشثومة ، أما عن رأيي في هذا الصدد ، فهو أن « ديوتاروس » قد
استنبا طالع الفضيلة — لا طالع الطيور في فألها وزجرها — والفضيلة إنما
تقضى بالألا تسعى إلى اقتناء الثروة إلا بعد أن تستكمل أداء الواجب ، وإذا
كانت الطيور قد تكشفت لديوتاروس عن فأل ميمون ، فإنها تكون على وجه
التأكيد قد خدعته ، فقد لاذ من المعركة مع « بومي » ، فرارا — وهذا موقف
له خطره ..! وانفصل عن « بومي » — وهذا موقف يثير الأسف ، وسرعان
ما رأى قيصر ، عدوه وضييفه معا — أى شئ — أكثر من هذا مشارا للحزن ، وقد
اغتصب منه قيصر وظيفته كحاكم على « تروكومورى » ، وخلعها على رجل خامل
الذكر من أذنا به من أهل « بزجاموس » ، وانتزع منه أرمينيا — وكانت هبة من
مجلس الشيوخ — وتقبل من مضييفه أعظم إكرام ، ثم جرده من كل ما يملك ..!
ولكنى بعدت عن الموضوع كثيرا ، وينبغي أن أعود إلى النقطة التي كنا على
خلاف في أمرها : إذا بحثنا هذا الموضوع من ناحية نتأجه — وهذا هو

(١) قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول (لوب) .

الموضوع الذى تستشار الطيور فى أمره - وجدنا أن العاقبة لم تكن ميمونة لديوتاروس بأى معنى من المعانى ، وإن بحثنا فيه من ناحية الواجب ، لاحظنا أنه كان يلمس فى هذا الشأن أنباء تتصل بضميره ، ولا علاقة لها بقال الطيور وزجرها .

٣٨ - دع الحديث عن عصا « روميلوس » Romulus فى فن العياقة (١) ، تلك التى تقول عنها إن النار فى أشد أوارها ، لم تقوَ على إحراقها ، ولا تهم بمس « آتيوس نافيوس » ، إلا قليلا ، فإن الأساطير لا ينبغى أن يكون لها مكان فى مجال الفلسفة ، والأنسب لك كفيلسوف أن تبدأ بالبحث فى طبيعة التنبؤ بالغيب بوجه عام ، ثم تعقب على هذا بالبحث فى أصله ، ثم تنتهى بالكلام فيما فيه من توافق وعدم تناقض ، فما هى إذن طبيعة فن يستمد نبوءاته من طيور تتجول على غير هدى هنا وهناك ، ويجعل إقدام الناس على عمل أو إمساكهم عنه ، رهنا بتغريد الطيور أو سبجها فى فضاء الجو . . ؟ ولماذا وهبت بعض الطيور قدرة تمكنها من إعطاء الفأل الميمون إذا طارت يسرة ، بينما يعطى غيرها هذا الفأل إن تيامن فى طيرانه . . ؟ ثم كيف ، ومتى ، وإلى من نستطيع أن نعزو ابتكار هذا النظام . ؟ من الحق أن نقول إن أهل أتورريا يرون أن واضح نظامهم هو ذلك الصبي الذى كشف عنه حرث الأرض ، ولكن من الذى وضع هذا النظام عندنا - نحن معاشر الرومان . . ؟ - أهو « أنوس نافيوس » . . ؟ ولكن رميلوس وريموس - فيما تقول الأسطورة - كان كلاهما من أهل العياقة ، وقد عاشا قبل ذلك بأعوام طوال ، فهل نستطيع أن نقول إن البيسديين والكيليكين أو أهل فريجيا هم أصحاب الفضل فى ابتكاره . ؟ إذن فهو أنت الذى رأيت أن أولئك الذين تجردوا

(١) قارن فى هذا وفى المقال التالى الفقرة السادسة عشرة من الكتاب الأول ، وقد ناقش شيشرون الأمثال التى استعارها كوتتوس من الأمم الأجنبية فى الفقرتين السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين ، وسيشرح الآن فى مناقشة الأحداث الرومانية التى استشهد بها « كوتتوس » (لويب) .

عن كل علم إنسانى ، هم الذين قاموا بوضع علم إلهى^(١) .

٣٩ — وتقول : « ولكن جميع الملوك وكافة الناس وسائر الشعوب يستنبثون الطيور لمعرفة الفأل والطيرة ، كأنك لا تعرف أن ليس ثمة شيء أكثر عند الناس شيوعاً من حاجتهم إلى التفكير ، أو كما لو كنت — أنت نفسك — عند ما ترى فى موضوع رأياً ، تقبل فى ذلك رأى طغام الناس ! كم من رجل تراه يقول بأن اللذة ليست خيراً . ؟ وسواد الناس يراها « الخير الأسمى بالفعل » ، فهل يتخلى الرواقيون عن رأيهم فى اللذة لأن الجمهور لا يدين به . ؟ أو تظن أن الجمهور ينقاد للرواقيين فى كثير جداً من الأمور . ؟ فأى عجب إذن إن سلم ضعاف العقول فى استنباه الطيور وفى سائر ضروب التكهن بالعادات الخرافية التى أسلفت ذكرها ، وأى بدع إذا أعوزتهم القدرة على تمييز وجه الحق فيها . ؟ ثم إنا لا نجد بين أهل العياقة توافقاً فى الرأى ولا اتفاقاً فى كل الحالات ، وقد قال « أنيوس » مشيراً إلى نظام الرومان فى فن العياقة [إن رعد جوف يلتقى بالفأل الميمون يسرة من سماء صافية الأديم]^(٢) . ولكن « أجاكس »^(٣) قد أصاب عندما شكنا فى « هومير » ، إلى « أشيل » من بعض الأعمال الوحشية التى قام بها أهل ترواده ، فقال على هذا النحو : [إن جوف يرعد يمته منبثاً بنجاحهم] .

ولهذا فإننا نعتبر الشواهد التى تقع يسرة ميمونة ، أما الإغريق والبرابرة فإنهم يعتبرون ما يقع منها يمته ، ومع هذا فإنى أعلم أننا نطلق على الشواهد الميمونة : الشواهد اليسرى أو شواهد اليد اليسرى ، حتى ولو جرت على

(١) فى النص اللاتينى يستخدم شيمرون *divimatas* مكان *divinatis* ليصور التبان بين *humanitas* وليقوى أثر التهكم فى نفس القارىء (لويب) .

(٢) مقتبسة من : *Annales, II, 5.* (لويب) وانظر الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثانى هنا .

(٣) قارن الألياذة ج ٩ ص ٢٣٦ ، وقد خدعت شيمرون ذاكرته مرة أخرى ، فان الإشارة هنا لا بد أن تكون لفوليسس لا لأجاكس (لويب وديماريه) .

جانبنا الأيمن^(١). وما من شك في أن أسلافنا قد تأثروا في اختيارهم للجانب الأيسر، كما تأثرت الشعوب الأجنبية في اختيارها للجانب الأيمن، بتجاربههم ودلالاتها على أي الجانبين كان أكثر يميناً في معظم الحالات. ولكن ما هذا الجدل. إن النظر في الخلاقات القائمة بين الشعوب في إجاباتها، والطريقة التي تجرى بها مشاهداتها، وضروب الطيور التي تسخرها، والشواهد التي يستخدمها كل منها، لا يجعلني في حاجة إلى أن أؤكد بأن التكهّن بالغيّب، ليس إلا مزيجاً من قليل من الأخطاء والخرافات، يقترن بكثير جداً من وجوه الخداع.

٤٠ - وقد عزوت الطيرة والفال بالفعل إلى هذه الأساطير، فمن ذلك أنك قلت: « إن أميليا، قد أنبأت « باولوس، بأن « بيرزاس، قد أدركتها المنية، وأن أباهما قد اعتبر هذا زجراً^(٢). وذكرت أن « كيكيليا، قالت إنها تخلت عن مقعدها لابنة أختها، ومضيت في الحديث عن الجو الملائم للتنبؤ^(٣)، وتكلمت عن المائة الأولى أو طيرة الانتخاب. في الحق أني أجد في هذا براعة وفصاحة تتجاوزت الحد حتى انقلبت ضد صاحبها، إذ هل تستطيع وأنت منصرف إلى وحيك هذا أن تكون من الحرية وطمأنينة العقل، بحيث تسير بهدى منطقك، ولا تستمد الرشاد من الخرافات...؟ ثم إذا نطق امرؤ بكلمة يبدو لك أنها على اتصال طفيف بما تقوم بعمله أو بما يجرى على لسانك، فهل تعتقد حقاً أن مثل هذه الحادثة تثير في نفسك خوفاً أو مرحاً؟

(١) كان عيافو الرومان إذا أرادوا استنباء الطيور ولوا وجوههم شطر الجنوب، أما الأغريق فقد كانوا يولون وجوههم شطر الشمال، وعلى هذا فقد كان يسار الرقيب الروماني هو يمين اليوناني، ولكن بعض شواهد اليد اليمنى كان ميمونا عند الرومان، ومن أمثلة هذا تنيق الغراب (لويب) وانظر آخر الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثاني.

(٢) قارن الفقرة الخامسة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) ويلاحظ أن اسمها كان في تلك الفقرة « تيرتيا ».

(٣) قارن في هذا وفي المثال التالي الفقرة الخامسة والأربعين من الكتاب الأول (لويب).

عند ما كان « ماركوس كرا كوس » يودع جيشه في « برنديزيوم »^(١) ، صاح في الميناء بائع تين مكرراً صياحه باسم نوع من التين ينذر بالشرر نين اسمه^(٢) . . . لتعتبر هذه إن شئت نذيراً زاجراً يحذر كرا كوس قائلاً : « حذار من الذهب ، وأنه لو أطاع هذا النذير الزاجر ما هلك » ، ولكن إذا سلطنا بالالفاظ التي تجرى على ألسنة الناس عفواً واتفاقاً باعتبارها طيرة وزجرأ ، لكان الأدنى إلى الصواب أن نعطي بالنالما يصينا حين نكبوا أو نقطع رباط حذاتنا أو عند ما نعطس . . .

هـ — مهاجمة التكهن بالأنصبة

٤١ — بقي علينا أن نناقش الأنصبة ونجامة أهل الكلدان ، قبل أن نصل إلى نبوءات الجنة والأحلام ، وهل تظن أنا محتاجون إلى الكلام عن الأنصبة ؟ إنها قريبة الشبه بلعب النرد أو عظام مفصل الأصابع ، فإن الغلبة تكون للجازفة والحظ ، أكثر مما تكون للروية والحكم السديد ، فمنهاج التكهن عن طريق الأنصبة منهاج زائف ، قد ابتدعه أهله لغير ما غاية ، إلا مجرد التمسك والارتزاق ، أو ليكون أداة لتشجيع الخرافة وشيوع الأخطاء ، ولكن من الخير لنا أن نلتزم الطريقة التي اتبعناها في مناقشة العرافة ، فنبحث في الأصل الذي جرى الناس منذ القدم على أن يردوا إليه أمر هذه الأنصبة التي ذاعت ذيوماً واسع المدى .

(١) عندما تم بالرحيل في تجريدته العسكرية المشثومة التي أرسلها لقتال البارثيين (لويب)
(٢) مثل : "Caunian figs" ولكن من الممكن أن تسمها الأذن كأنها : Cavene eas
أى حذار أن تذهب — وقد كانت هذه الوحدة بين الكلمة وصداها موضوع مناقشة شائعة في علم الأصوات اللاتيني . قارن : Moser, Div. ad loc. (لويب) وقد ترجمها ديغاربه في نسخته الفرنسية à vendre أى للبيع ووجه الشبه فيما أشار في تعليقاته يكون مع à attendre أى ينبغي الانتظار ، وترجمتها طبعة جارنييه كما هي وقد فطن بعض مفكرى الاسلام إلى ما فطن اليه شيفرون (انظر في كتابنا التنبؤ بالتعب عند مفكرى الاسلام ١١٤ — ١١٥ و ١٥٩ — ١٦٠ طبعه أولى) .

نشأة الاعتقاد في الأنصبة :

نرى في حوليات « برينسته » Praeneste أن « نومير يوس سوفستيروس » Numerius Soffustius — وقد كان رجلاً ممتازاً انحدر عن أصل شريف — قد نبهته النذر في أحلام تكرر وقوعها ، واصطحبت آخر الأمر بالوعيد ابتغاء أن يشق صخرة من الصوان كانت ملقاة في مكان بعينه ، وقد أدركه الروح من نذر هذه الرؤى ووعيدها ، فاستجاب لها ومضى إلى تحقيق ما بها على مرأى من مواطنيه الذين كانوا يسخرون منه ، فلما حطم الصخرة ترامت له الأنصبة منقوشة على سندان بحروف قديمة ، ولا يزال المكان الذي وجدت فيه الصخرة باقياً يتولى الناس حراسته إلى يومنا الحاضر ، متأثرين بشعورهم الديني نحوه ، وهو لا يبعد كثيراً عن تمثال الطفل « جوبتر » الذي يتمثل جالساً مع « جونو » في حوض إلهة الحظ^(١) مقرباً من ثديها ، ويولى الأمهات هذا المكان أبلغ احترام .

وثمة أثر متواتر يقول إن في نفس الوقت الذي وجدت فيه الأنصبة ، وفي المكان الذي يقوم الآن فيه تمثال إلهة الحظ ، قد فاض العسل من شجرة زيتون ، فأمر العرافون — الذين تنبؤوا بما ينتظر هذه الأنصبة من ذبوع الصيت الذي لن يجارى — بأن يصنع من الشجرة صندوق توضع فيه الأنصبة ، وفي الوقت الحاضر تسحب الأنصبة من وعائها إذا هيمنت إلهة

(١) La Fortune إلهة عند الرومان واليونان ، تتعدد صفاتها كإلهة يونانية ، وتمثل القدر بدقة في بداها ، وتقف على عجلة تمثل المصادفة ، وفي ينها قرن الخيرات ، وعندئذ تكون رمزا لليسر والرخاء ، وأما عند الرومان فقد كانت تمثل صلحاء من الخلف ، وعمياء وذات أجنحة ، وتضع إحدى رجليها على عجلة تتحرك ، وكانوا يحتفلون بتكريمها في اليوم الرابع والعشرين من يونيو ، فيتوج البحارة سفنهم بالأزهار ، وكان لها ستة وعشرون معبداً في روما — أما عند اليونان فكان لها ثمانية معابد — فيما يقول معجم باشيلى وديزوري وهي عند شيشرون أم أو مرضعة جوبتر وجونو ، ويقول البعض إنها ابنة جوبتر الكبرى إلى آخر ما يرويه مترجم چارنييه كذلك .

الحظ^(١) ، فنخبرني كيف يمكن أن تثق في هذه الأنصبة التي تقوم بمزجها وسحبها يد طفل عند انحناءة من تمثال إلهة الحظ ١ وكيف عثروا على هذه الصخرة . ؟ ومن الذي قام بقطع شجرة السنديان . ؟ ومن صاغ هذه الأنصبة ونقشها بالحروف ؟ يا للعجب ! إن بعض الناس (الرواقين) يقولون : « إن الله على كل شيء قدير » ، فإذا كان الأمر كذلك ، فاني آتمنى لو أن الله قد وهب الرواقين حكمة تبرىء تفكيرهم من الخرافة ، حتى لا يكونوا مثاراً للشفقة والرثاء معا ، وتنتزع منهم الميل إلى الاعتقاد في كل شيء يسمعون . . . على أن هذا النوع من التمكن قد تخلى عنه الناس منذ اليوم ، فان جمال المعبد وقدمه لا يزالان يحفظان الشهرة التي كانت لأنصبة « برينسته » ، وهذا هو المعروف عند طغام الناس ، إذ أن هذه الأنصبة لا يستنبها حاكم ولا فرد ذو حيثية ، ولا تستخدم البتة في مكان ما ، وهذا يفسر لنا الكلمة التي يقول . « كليثوما كوس » ، إن « كاريناوس » كان يقولها دائماً ، وهي أنه لم ير في أي مكان إلهة للحظ أو فر حظاً من إلهة الحظ في « برينسته »^(٢) والآن حسبنا هذا عن ذلك الضرب من التمكن بالغيب .

و - مهاجمة علم أحكام النجوم

موقف خصوم مع الفلاسفة

٤٢ - ولننص إلى مناقشة الكلدانيين : إن « يودكسوس » تلميذ أفلاطون وخير أهل النجامة في عصره - فيما يرى خيرة العلماء^(٣) - قد خلف لنا الرأي التالي مكتوباً :

« لا ينبغي أن نولى أهل التنجيم من الكلدانيين أي نوع من الثقة ، عندما

(١) إذا كان تمثال الإلهة منحني الرأس أو مبدياً إشارة أخرى (لويب) .

(٢) فن ذلك أن شهرة الأنصبة في « برينسته » بقيت أطول مما بقي غيرها في أي مكان

آخر (لويب) .

(٣) أحد كبار الرياضيين وعلماء الهيئة القدامى ، وقد عاش من ٤٠٨ تقريباً إلى ٣٥٥

ق ٠ م (جارنييه) .

يدعون بأنهم يتنبؤون بمستقبل الإنسان من موقع النجوم في يوم ميلاده ،
ونلاحظ أن « بانياتيوس » كذلك — وقد كان الرواقى الوحيد الذى أبى
التسليم بنبوءات أهل النجامة^(١) يذكره أنكيالوس، — Anchialus و « كساندر»
Cassander باعتبارهما أعظم علماء الهيئة فى عصره ، ويقرر أنهما لم يستخدميا
فنهما أداة للتكهن بالغيب ، رغم أنهما كانا ممتازين فى سائر فروع علم الهيئة .
كما أن « سكيلاكس » من أهل « هاليكارناسوس » Hallicarnassus وهو
صديق « بانياتيوس » الحميم وأحد علماء الهيئة الممتازين ، بالإضافة إلى أنه كان
يتولى رئاسة الحكومة فى مدينته ، قد رفض رفضا جازما طريقة الكلدانيين
فى التنبؤ بالمستقبل .

ولكن فلندع جانبنا أقوال أولئك الذين نستشهد بهم ، ولنعتمد على منطقنا
فى البحث : إن أولئك الذين يتولون الدفاع عن نبوءات يوم الميلاد عند
الكلدانيين ، يقولون فى بيان رأيهم :

أصل التنجيم ومناقشته :

إن فى زنار النجوم^(٢) الذى يسميه الإغريق بمنطقة البروج ، تكمن قوة
معينة من طبيعتها أن كل جزء فى هذا الزنار يحدث فى السموات تغييرات
بطريقة تختلف باختلاف موقع النجوم فى إحدى المناطق أو على كئيب منها
فى وقت معين ، وهذه القوة يتفاوت تأثيرها بهذه النجوم التى نسميها شهبيا أو
كواكب سيارة ، فاذا دخلت هذه الكواكب منطقة زنار النجوم فى وقت
اتفق فيه مولد إنسان ما ، أو دخلت منطقة أخرى تتصل بها بعض الاتصال ،

(١) كلمة Astrologus تقابل دارس النجوم ، ومن الممكن أن تقال ويراد بها الباحث
فى علم الهيئة أو العالم بالتنجيم (أى بأحكام النجوم) (لوبيج) فارن مايقوله الأستاذ نلينيو
فى كتابنا « التنبؤ بالغيب » فصل « علم أحكام النجوم » ص ١١٦ وما بعدها .
(٢) يراد به فى الفلك الخطوط المزدانة بالنجوم ، وهى تشبه مناطق تحيط بالمشتري
وتوازي خطه الاستوائى .

أو تنفق مع منطقة يوم الميلاد ، فإنها تكون ما نسميه مثلثا أو مربعا^(١) .
وما دمنا نرى الاختلاف البين والتغير الواضح في فصول السنة وفي درجة
الحرارة باقتراب النجوم أو بعدها ، وما دمنا نرى بعيوننا أثر الشمس في
إحداث مثل هذه النتائج ، فإن الكلدانيين يعتقدون — بناء على هذا — أن ليس
من المحتمل فحسب ، بل من المحقق أن حرارة الجو مادامت تنظمها هذه القوة
السماوية ، فإن الأطفال عند ولادتهم لا بد أن تتأثر بها نفوسهم وأبدانهم ،
وأن تتحدد بهذه القوة عقولهم وأخلاقهم وميولهم وحالتهم الجسمانية
ومستقبلهم في الحياة ونصيبهم في الدنيا .

٤٣ — إن هذا جنون خارج عن نطاق التصور ..! فليس يكفي أن تسمى
الرأى « حماقة » متى وجدته مجردا عن كل منطق ، ولكن « ديوجانس » الرواقي
يسلم ببعض آراء الكلدانيين فيقول إنهم أوتوا القدرة على التنبؤ إلى الحد الذي
يمكنهم من التمكن بميول طفل ، ومعرفة خير الحرف التي تلائم استعداده ،
ثم ينكر بعد هذا إنكارا مطلقا سائر ادعاءاتهم في قوى التنبؤ ، فمن ذلك أنه
يقول إن التوائم يتشابهون في المظهر ، ولكنهم يختلفون عادة في مجرى الحياة ،
وفي الحظ الذي يصادفونه . وقد كان « بروكلز » و« ديوريستانس » اللذان توليا
حكم الاسبرطيين توأمين ، ولكن نصيبهما من العمر لم يكن واحداً ، لأن حياة
الأول كانت أقصر عاما من حياة أخيه ، وكانت أعماله أعظم جلالا^(٢) . بل
إني أرى أن صديقنا الفاضل « ديوجانس » باتفاقه مع الكلدانيين ، قد تأمر مع
خصومه^(٣) ، فوق أن رأيه لا يستقيم مع العقل ، لأن الكلدانيين يقررون
أنهم يعتقدون بأن نصيب المرء في الحياة يتأثر بحالة القمر وقت ميلاده ، ولهذا

(١) انظر في : Moser, Div. ad. loc. هامشا على « الثالث » و « الرابع » — قارن :
Se xt. Empir. Adv.mathen.V. 39. (لويب) وقد فحص ذلك مترجم طبعة جارنييه .
(٢) يمكن لاشياع الفكرة أن يدفوا رأى شيسرون في هذا المقال زاعمين أن التوائم
يولدان متعاقبين لا في لحظة واحدة .
(٣) Praevaricatis تستعمل في وصف الخماى الذى يتأمر مع خصوم موكله (لويب) .

فهم يسجلون مايجرونه من مشاهدات على النجوم التي تبدو على اتصال بالقمر يوم الميلاد، ومن ثم يعتمدون في تكوين أحكامهم على حاسة البصر ، وهي أقل الحواس موضعا للثقة ، بينما ينبغي أن يستندوا إلى العقل والمنطق ، لأن علم الرياضيات الذي كان ينبغي أن يلم به الكلدانيون ، يرينا كيف يقترب القمر من الأرض ، وكيف يوشك أن يمساها في واقع الأمر ، وكيف يتعد عن سيار عطارد — وهو أقرب النجوم — ولم يكن بعيداً مع هذا من الزهرة ، وأية مسافة شاسعة تفصله عن الشمس التي يستمد منها الضوء — فيما هو مفروض — أما المسافات الثلاث الباقية فإن تقديرها فوق الحصر وهي : من الشمس إلى المريخ ، ومن المريخ إلى جوبتر ، ومن جوبتر إلى زحل ، ثم هناك المسافة التي تقوم بين زحل وأطراف السماء — وهي مسافة لا نهاية لها — فاذا نظرنا إلى هذه المسافات التي تكاد تخرج عن التحديد ، أي تأثير يمكن أن يتهياً للكواكب السيارة على القمر أو بالأحرى على الأرض ؟

٤٤ — وكذلك عند ما يقول الكلدانيون — وهم مضطرون إلى هذا القول — إن جميع الذين ولدوا في يوم واحد في أي مكان فوق ظهر الأرض المعمورة تحت نجم واحد ، لا بد أن يتشابهوا وأن تتفق حظوظهم في الحياة ، فاليس من البين أن هؤلاء الذين يتعرضون لتأويل السماء ، هم من يجهلون طبيعة السماء جهلاً فاضحاً ؟ لأن الأرض مقسمة الآن ، وكما كانت في الماضي مناصفة ، وآراؤنا محدودة بهذه الدوائر التي يسميها الاغريق . والتي تسميها بكل دقة آفاقاً ، وهذه الآفاق تتغير بتغير حد تبعاً لموقع المشاهد ، إلا أن شروق النجم وغروبه لا يقع بالضرورة في وقت واحد لجميع الناس ، ولكن إذا اختلفت قوة النجم التي تؤثر في السموات من حين إلى حين ، فكيف يكون من الممكن لهذه القوة أن تؤثر بطريقة واحدة في جميع الأفراد الذين ولدوا في وقت واحد ، مادامت السموات التي ولدوا تحتها تختلف اختلافاً بينا ؟ وتظهر أن النجمة الشعرية في الواقع في هذه المناطق التي نعيش.

في رحابها بعد بدء الصيف (الذي يقع في ٢٢ يونيه) بأيام عديدة ، ولكنها فيما نعلم تغرب عن سكان الكهوف^(١) قبل بدء الصيف . ولكن إذا كان لا بد من التسليم الآن بأن تأثيرا نجميا ما ، يقع على الأفراد الذين ولدوا على ظهر الأرض ، فإن من الواجب أن نقول بأن جميع الذين ولدوا في وقت واحد ، قد تباين طبائعهم وتختلف باختلاف مشاهدات المنجمين للسموات في يوم الميلاد ، ومن المحقق أن هذه النتيجة لا ترضى أهل النجامة ، لأنهم يصرون على القول بأن كافة من ولدوا في وقت واحد ، يصادفون — بصرف النظر عن مكان ولادتهم — حظا واحداً .

٤٥ — ولكن أية حماقة يبدونها أولئك المنجمون حين يبحثون نتيجة ما يحدث في السموات من حركات واسعة النطاق ، وتخيرات عظيمة الأثر ، ويدعون بأن الرياح والمناخ والأمطار في شتى البقاع لا أثر لها عند الميلاد؟ إن هذه الأحوال في البلاد المتجاورة تختلف من هذه الماحية اختلافاً بينا ، حتى أننا كثيراً ما تقع لنا حالة من المناخ في «توسكولوم» بينما يكون المناخ في روما على حال أخرى ، وهذا أمر معروف ، ولا سيما عند البحارة الذين يرون ما يطرأ على المناخ من تغير شديد عند ما يدورون بسفنهم حول الروس الباردة من اليابسة في البحر ، وإذن فهل يجدر برجل عاقل أن يستند إلى صفاء السموات حيناً واضطرابها حيناً آخر ، ويقول إن هذا التخير لا أثر له في مولد الناس — ومن المحقق أنه معدوم التأثير — ثم يعود فيزعم أن هناك تأثيراً مرجعه إلى قوة خفية لا يدركها المرء بحسه ، بل لا يكاد يتصور أمرها ، وهي ترجع إلى حالة السماء ، تلك الحالة التي تردّ بدورها إلى عمل القمر وأثر النجوم . ثم أليس من الخطأ الفادح في الرأي أن يعجز الكلدانيون عن معرفة الأثر الذي تخلفه في الأبناء نطفة الآباء — وهي عنصر جوهرى في تكوين

(١) Troglodytes ثم سكان الكهوف ، ويقول ديماريه لأنهم شعب إفريقي يعيش على كشب من اثيوبيا ويسكن أفرادها الغاور .

الذرية ؟ فان من المحقق أن ليس بين الناس من يفوته أن يعرف أن الأطفال يأخذون عن آبائهم ملاحظهم وعاداتهم ، ويستمدون منهم بوجه عام سلوكهم وحركاتهم ، وما كان هذا يحدث لو أن خصائص الأطفال لا تحددها قوة الوراثة الطبيعية ، بل تهيمن على تحديدها وجوه القمر وحالة السماء ، وكذلك يقال في أن الأفراد الذين ولدوا في لحظة واحدة لا يتشابهون في الأخلاق ولا في المستقبل ولا في الحظ الذي ينتظرهم ، وهذه الحقيقة تجعل من البين الواضح أن وقت الولادة لا علاقة له بتحديد مجرى الحياة ، إلا إذا كان من الممكن أن نضطر إلى الاعتقاد بأن ليس ثمة أحد من الناس قد تكوّن في الرحم جنينا ثم ولد في نفس الوقت الذي تكوّن وولد فيه « سييو ، الإفريقي ، إذ هل ثمة إنسان يشبهه ؟ .

٤٦ — ثم من هذا الذي يحهل أو يساوره الشك في أن كثيراً من الناس الذين ولدوا مصابين بعاهات طبيعية ، قد برئوا منها تمام البرء ، بفعل الطبيعة نفسها حين غيرت مجراها بمبضع الجراح أو بدواء الطبيب ؟ . فمن ذلك أن الذين انعقدت ألسنتهم إلى حد أنهم كانوا لا يقوون على النطق ، قد عادت إليهم طلاقة اللسان بعد أن أعمل فيهم الجراح مبضعه ، وكثيرون غيرهم قد أصلحوا عاهة طبيعية بالمران الحاذق ، وإن في « ديوستين » لشاهد عدل على ما أقول ، فقد كان فيما يصفه « فاليريوس » لا يقوى على نطق الحرف اليوناني Bho ولكنه تعلم بالجهد المتواصل كيف يلفظه واضحا مفصلا ، فإذا كانت هذه العاهات قد نشأت وتأصلت في صاحبها بوساطة نجم في السماء ، فليس من شيء يقوى على تغييرها . وأليست تنتج البلاد التي لا مشابه بينها ناسا مختلفين ؟ . إنه لمن اليسير أن نحدد في سرعة تلك الفروق العقلية والجسمانية التي تميز الهنود من الفرس وأهل أتويويا من سكان سوريا ، إنها فروق بالغة الغرابة والوضوح إلى حد أن العقل لا يقبل التسليم بها ، ولكن من البين أن مولد المرء يتأثر بالبيئة المحلية أكثر مما يتأثر بحالة القمر .

ومن المحقق أن ليس صحيحا ما اقتبسته عن البابليين من أنهم لاحظوا منذ سبعين وأربعمائة ألف عام^(١)، ميلاد كل طفل وظروفه التنجيمية، ليتنبؤوا بأحداث حياته، وأنهم حققوا هذا بما هدتهم إليه نتائج تجاربهم، إذ لو شاعت عندهم هذه العادة لما هجروها، وهذا بالإضافة إلى أنا لا نكاد نجد كتابا يزعم أن هذه العادة قائمة عندهم، أو يعرف أنها كانت قائمة بينهم.

٤٧ - إنك تلاحظ أني لم أكرر أدلة «كارنيادس»، ولكني أعدت الاستشهاد بالحجج التي أدلى بها «بانياتيوس»، زعيم المدرسة الرواقية، أما الآن فاني أشرع في توجيه الأسئلة التالية التي لم يسبقني إليها أحد: هل ولد جميع الرومان الذين سقطوا في معركة «كاني» في ظروف تنجيمية واحدة؟ ومع هذا فقد لقي الجميع مصيرا واحدا، وهل تظن أن الذين يمتازون بالذكاء والعبقرية، قد ولدوا جميعا في ظروف تنجيمية واحدة؟ وهل ثمة يوم لم يشهد ميلاد ناس لا يحصيهم العد؟ ومع ذلك فإننا لا نصادف «هومير» آخر. ثم إذا كان المهم عندنا أن نعرف تحت أي منظر من مناظر السماء أو مجموعة من نجومها قد ولد كل كائن حي، فإن الظروف نفسها لا بد أن تؤثر في غير الحي من الكائنات كذلك.. فهل صادفك رأى أثار من سحريتك بقدر ما يثير هذا الرأى؟ وإذا صحح أن صديقنا الطيب «لوكيوس تارونيوس» من أهل «فيروم» ذلك الذي استوعب علوم الكلدانيين، قد اقترض في حسابه أن مولد روما قد وافق عيد «بالس»^(٢) - وهو اليوم الذي شاد فيه «روميلوس» مدينته فيما تقول الأسطورة - وأسرف في اقتراضه استنادا إلى هذا حتى زعم أن روما قد نشأت عندما كان القمر في برج الميزان، ولم يتردد - اعتمادا على هذا - في التنبؤ بالحظ الذي ينتظر أن يصادف هذه المدينة، فأى هذيان عجيب هذا الذي يقوله..! وهل خضع اليوم الذي نشأت فيه روما لتأثير

(١) قارن الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الأول (لويب).

(٢) كان يحتفل به في الحادي والعشرين من أبريل، وقد كان «بالس» Pales الإله

الذي يرعى الرعاة (لويب).

القمر والنجوم ؟ فلنفرض — إن شئت — أن المهم في حالة الطفل أن نعرف تحت أى نظام للأجسام السماوية قد تنفس أول نسمة ، فهل ينشأ عن هذا أن النجوم يمكن أن تكون ذات تأثير على الأجر والملاط الذى سيدت المدينة به ؟ ولكن ما الذى يدعونا إلى الإسهاب فى الطعن فى نظرية تتكفل تجارنا كل يوم بدحضا . ؟ إنى لأذكر الكثير من النبوءات التى قالها الكلدانيون لبومي وكراسوس ، وحتى لقيصر نفسه — الذى مات أخيرا — وقد تنبئوا فيها بأن هؤلاء لن يستوفوا أنفاسهم إلا متى كبرت بهم السن ، فيموتون فى رحاب بيوتهم ، بعد أن يصيبوا مجدا مخلدا ، وإنه لما يثير الدهشة فى نفسى ، أن أرى فردا ما — ولا سيما فى هذا العصر — يثق فى أولئك الذين تتكفل نتائج تجارنا اليومية بدحض تكهناتهم .

مهاجمة التكهن الطبيعى :

٤٨ — بقى علينا بعد هذا أن نبحث فى ضربين من ضروب التكهن بالغيب ، وقد أسلفنا القول بأنهما يصدران عن الطبيعة ، ولا تؤدى إليهما طرق صناعية ، وهذان الصنفان هما النبوءات إبان المس ، والرؤيا — أثناء النوم — فلنعرض لبحثهما يا عزيزى كوتوس — إن كان يروقك الحديث فيهما :
أؤكد لك أنى معتبط لأنى أؤيد كل التأيد تلك الآراء التى أوضحتها كل هذا الإيضاح ، وإذا شئت الصراحة ، فإن كل ما كان لأرائك من أثر هو أنها قوت من رأى الذى كنت أعتقه من قبل ، لأن محاجتى لك قد أقنعتنى بأن رأى الرواقين فى التنبؤ بالغيب ، تحتويه الخرافة ويستوعبه الوهم ، وقد أثرت فى نفسى أبلغ التأثير استدلالات المشائين ، و « ديكار كوس » فى العصور القديمة ثم « كراتيوس » الذى لا يزال على قيد الحياة^(١) ، فهم يقولون

(١) كان « كراتيوس » أثناء هذه المحاورة (عام ٤٥ ق . م) يحاضر فى أمينا ، وكان من بين تلامذته ماركوس — الابن الوحيد لماركوس شيشرون (لويب) .

إن في باطن النفس الإنسانية تكمن قوة من نوع ما - وقد أعزوها إلى الوحي - بها تتمكن النفس من أن تكشف المستقبل المحجب ، متى ألهمها مس إلهي ، أو تجردت بالنوم من علائق البدن ، فأضحت حرة تتحرك متى شامت ، إنى لشديد الرغبة في أن أعرف رأيك في هذين الضربين من التمكن الطبيعي بالغيب ، كما أنى تواق لأن أعرف الأدلة التي تستغلها في دحضها معا .

٤٩ - وبعد هذا الذي أسلفه « كوتتوس » استأنف الحديث قائلاً :

إنى أعلم علم اليقين يا عزيزي « كوتتوس » أنك تتردد على الدوام في التسليم بكافة ضروب التمكن - الصنعي - ولكنك تميل إلى تأييد الضربين اللذين أسلفت الآن ذكرهما : وهما التمكن في حال الجننة (المس) والتنبؤ أثناء النوم - والمظنون أن كليهما يصدر عن نفس تجردت من قيودها - وإذن فدعنى أبين لك عن رأيي في هذين الضربين من التمكن ، ولكن فلنبداً بمناقشة هذا القياس^(١) الذي ذكره الرواقيون ، ونادى به صديقنا « كراتيبوس » لنرى مبلغ ما فيه من حق ، إنك أسلفت قياس « كراتيبوس » Cratippus و « ديوجانس » و « أنتيباتر »^(٢) على هذا النحو :

مذهب الرواقية في صلة التنبؤ بالآلهة :

« إذا استقام وجود الآلهة من غير أن يكشفوا للانسان عن المستقبل المحجب ، كان هذا دليلاً ينهض على أنهم لا يحبون بني البشر ، أو أنهم هم أنفسهم لا يعرفون ماذا يخفي المستقبل المغيب عنا ، أو أنهم يظنون أن ليس للانسان مصلحة في معرفة ما ينطوى عليه عالم الغيب ، أو أنهم يظنون أن هذه النذر التي يرسلونها إلى الانسان عن المستقبل ، أمر لا يتفق مع كرامة الآلهة ، أو أنهم - أخيراً - وإن كانوا آلهة فانهم لا يستطيعون أن يقدموا شواهد

(١) قارن الفقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الأول (لوب) .

(٢) من قادة المدرسة الرواقية ، والمدافعين عن التمكن بالغيب ، قارن الفقرة الثالثة وأما

الاستدلالات التالية فقد وردت في الفقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الأول .

معقولة على الحوادث المقبلة ، ولكن ليس صحيحا أن الآلهة لا تحبنا ، لأنهم
أصدقاء الجنس الإنساني ، والمنعمون عليه ، وليس صحيحا أنهم يجهلون
ما أصدروا من أوامر وما رسموا من خطط — بشأن المستقبل — وليس
صحيحا أن ليس لنا مصلحة في معرفة ما ينتظر أن يقع لنا ، ما دام العلم يمكننا
من اتخاذ الحيطة له ، وليس صحيحا أن الآلهة يظنون أن الكشف عن النذر
السابقة لما يتجاوز عليه المستقبل ، أمر لا يتفق مع كرامتهم ، إذ ليس ثمة
سجية أفضل من أداء الخير للإنسانية ، وليس صحيحا أنهم لم يؤثروا القدرة
على معرفة المستقبل المغيب عنا ، وإذن فليس صحيحا أن هناك آلهة ، ورغم
وجودهم فانهم لا يكشفون للإنسان عن شواهد تنبئ عن المستقبل ، ولكن
هناك آلهة ، فهم إذن يقدمون مثل هذه الشواهد ، وما داموا يقدمونها فليس
صحيحا أن يضمنوا علينا بطرق فهمها ، وإلا كانت شواهدهم عديمة المنفعة ،
وإذا هم أرشدونا إلى طريق فهمها ، فإن إنكار وجود التمكن لا يستقيم ،
وإذن فالتكهن قائم موجود .

مناقشة المذهب الرواقى :

أى ذكاء وقادتها هؤلاء الناس . . . إنهم بهذه الكلمات المحدودة يظنون
أنهم قد فرغوا من البرهنة على كل شيء . بيد أنهم قد سلموا — رغبة في إقامة
قياسهم — بقضايا لا يقبل العقل التسليم بها إطلاقا ، ومع ذلك فإن الاستدلال
المنطقي لكي يكون صحيحا ، يجب أن يبدأ بمقدمات لا يناهها الشك ، ليصل
إلى النتيجة التي تكون مثار الجدل .

٥٠ — وأرجو أن تلاحظ الطريقة البارعة التي التزمها « أبيقور ، —
الذي اعتدتم أيها الرواقيون أن تصفوه بالبله ، وتنسبوا إليه كثرة الأخطاء —
في البرهنة على ما يطلق عليه اسم : « الكون لانهاى » ، فانه يقول :
« إن كل شيء محدود لا بد أن يكون ذا نهاية ، فنذا الذى يستطيع أن
ينكر هذا ؟ .

ثم يقول : « وكل ماله نهاية يمكن أن يرى من نقطة ما ، خارج ذاته .
— وهذا أيضا ما ينبغي التسليم به — ولكن الكون لا يرى من نقطة خارج
ذاته ، — وليس في وسعنا أن نجادل في إنكار هذه القضية كذلك .

« وعلى هذا فإدام الكون لا ترى له نهاية ، فينبغي أن يكون غير محدود — أى
لانهاية ، فأنت ترى من هذا كيف يتقدم « أبيقور » من مقدمات مسلم بها ،
حتى يصل إلى القضية المطلوبة ، وهذا مالا نزاه في استدلالكم أتم أيها
المناطقه الرواقيون ، لأنكم تعتمدون على مقدمات لا يسلم بصحتها كل إنسان ،
وليس هذا فحسب ، بل إنكم تبدون بمقدمات إن صادفت عند العقل قبولا ،
فإنها لا تنتهي — على أقل تقدير — إلى إقرار النتيجة التي تريدون البرهنة
عليها ، لأنكم تبدون بهذا الافتراض :

« إذا استقام وجود الآلهة ، للزم عن هذا التسليم بأنهم يلتزمون الرفق
في تصرفاتهم إزاء الانسان ، — فنذا الذي يسلم لكم بهذا ؟ أيسلم بهذا
الرأى « أبيقور » ؟ مع أنه يقول إن الآلهة لانعباً بنفسها ولا بغيرها من
الناس مثقال ذرة . فهل يسلم به « أتيسوس » ؟ الذي يقول في تأييدواستحسان عام :
[كنت أعتقد على الدوام في وجود آلهة في العلا ، ولن أتردد في إعلان
ذلك ، ولكنى أرى أنهم لا يجأون بما يصيب البشر من أقدار] .

وقد أراد أن يمكن لرايه ، فأضاف آبيانا أبان فيها عن السبب الذي دفعه
إلى اعتناق هذا الرأى ، ولكننا في غير حاجة إلى تكرار ما قاله ، فقد أسلمت
ما فيه الكفاية ، لأبين لك أن أصدقاك الرواقيين يعتقدون على سبيل اليقين
آراء تكون موضعا للشك ومجالا للناقشة .

٥١ — ويقول الرواقيون في قياسهم بعد هذا : « إن الآلهة تحيط علما بكل
شئ ، لأنهم هم الذين نظموا كافة الأشياء ، ولكن أية حملة شعواء قد شنها
على هذا الرأى العلماء الذين ينكرون القول بأن مثل هذه الأشياء قد نظمها
الآلهة المخلدون ؟

ولكن من صالحنا أن نعرف الشيء الذي يوشك أن يقع ، بيد أن
« ديكيار كوس ، قد وضع مجلدا ضخما يقيم فيه الدليل على أن جهلنا بالمستقبل
المغيب عنا خير من معرفتنا بآفاته .

ويقول الرواقيون كذلك : « إن الكشف عن مجاهل المستقبل لا يتناقض
مع كرامة الآلهة ، بل إنه ليلائم الآلهة — فيما أظن — أن يظهروا في كل
بيت ليعرفوا ماذا يحتاج صاحبة ا

« ليس صحيحا أن الآلهة عاجزون عن معرفة المستقبل ، ولكن
قدرتهم على المعرفة ينكرها أولئك الذين يصرحون بأن ما يتكشف عن المستقبل
ليس أمرا مؤكدا .

والآن ، ألسنت ترى بأن الرواقيين يسلمون بمقدمات ظنية تحوطها الشكوك،
ويعتقدونها مفترضين أنها قضايا يقينية مسلم بها عند جميع الناس ؟

وبعد هذا يلغون هذا السهم في جدلهم : « وإذن فليس صحيحا أن هناك
آلهة ، وأنهم مع ذلك لا يكشفون للناس عن شواهد تنبئ عن المستقبل ، ،
ومن المحقق أن الرواقيين يظنون بهذا أنهم قد فرغوا من بحث هذه المسألة .
« ولكن هناك آلهة ، — وحتى هذا لا يسلم به جميع الناس .

« وإذن فهم يكشفون للناس عن شواهد تنبئ عن المستقبل ، — وليس
من المحتوم أن يكون هذا صحيحا ، لأن من المحتمل أن يضلوا بالكشف عن
شواهد المستقبل ، ومع ذلك يكونون آلهة .

« وليس صحيحا أنهم إذا كشفوا هذه الشواهد ضنوا على الناس بطرق
تأويلها ، — ولكن من المحتمل أن تتوافر لديهم طريقة التأويل ، ومع ذلك
لا يطلعون الناس عليها ، إذ لماذا يمكنون من معرفتها أهل أتوريبا ولا يمكنون
الرومان من ذلك ؟

ثم يقول الرواقيون : « إذا كان الآلهة يرشدون الناس إلى فهم هذه
الشواهد ، كان هذا هو التنبؤ بالغيب ، ، فلنسلم بهذا — رغم ما فيه من

تناقض — ولكن ما الفائدة إذا كنا لا نفهم هذه الشواهد ؟
ثم ينتهي الرواقيون إلى هذه النتيجة : « إذن فالتكهن بالغيب قائم موجود » .
— هب أن هذه هي النتيجة التي انتهوا إليها ، ولكنها مازالت تفتقر إلى برهان ،
إذ أن الحقيقة — فيما علمنا الرواقيون أنفسهم — لا يمكن التدايل عليها من
مقدمات فاسدة باطلة ، ومن ثم فقد تداعت حججهم بحذافيرها .

٥٢ — فلنتناول الآن الأدلة التي استند إليها صديقنا الحميم « كراتيوس »^(١) ،
إنه يقول : « إن من المستحيل أن يؤدي المرء وظيفة البصر بغير العيون ،
ورغم أن العيون قد تعجز في بعض الأحيان عن أداء وظيفتها المعينة —
في الإبصار — إلا أن المرء الذي يستخدم عينه ولو مرة واحدة ، فيرى الأشياء
على حقيقتها ، يعرف على وجه التحقيق ما هي الرؤية الصحيحة ، وكذلك
الحال في التكهن ، فإن من المستحيل أن يقوم التنبؤ بوظيفته بغير ملكة التكهن
بالغيب . ورغم أن المرء الذي أوتي هذه الملكة قد يخطئ أحيانا ، فيصدر
نبوءات باطلة غير صحيحة ، إلا أن تنبؤ الكاهن تنبؤا صادقا ولو في حادثة
واحدة ، كفيل بأن يقر وجود التكهن بالغيب ، ويستبعد اقتراف المصادفات
في تأويله ، ولكن التكهن قد صدق في الكثير من الحالات ، وهذا يوجب
التسليم بصحته » .

إنه قد أحسن التعبير عن حجته في لباقة وإيجاز ، ولكنه بعد أن
أعلن مرتين فروضا يعوزها البرهان ، ورغم أنه وجدنا كراما في التسليم
بآرائه ، إلا أن من المحتمل ألا يصادف ادعاؤه الأخير قبولا منا ، وصفوة
ما نقول :

« إذا كانت العيون تخطئ أحيانا ، فإنها تحسن رؤية الأشياء في بعض
الأحيان ، وهذا يبرر القول بأن قوة الإبصار قائمة بها ، وكذلك الحال في
التكهن ، إذا استطاع امرؤ أن يتنبأ في بعض الحالات فإننا حتى حين نراه

(١) قارن الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الأول (لوب) .

يخطيء في تكهناته ، يجب أن نسلم بأنه أوتى القدرة على التكهّن بالغيب .
٥٣ — أرجو أن تحدد يا عزيزي « كراتيوس » وجه التشابه في هذه القضايا التي تقارن بينها ، إلى أعترف بأنه في خفاء عني ، لأن العيون حين ترى الأشياء رؤية صحيحة صادقة ، تستخدم في ذلك حساً منحته الطبيعة ، أما النفس فإنها إن استطاعت أن ترى المستقبل في حال الوجد (اللجنة أو المس) أو خلال الرؤيا ، فإنها تستند في ذلك إلى الحظ أو المصادفة ، ويجب أن تسلم بهذا ، إلا إذا كان من الممكن أن تظن أن هؤلاء الذين يعتبرون الرؤيا مجرد أحلام تمر بالخيال ، وليست شيئاً أكثر من ذلك ، يرون أن الرؤيا متى صدقت كان مردّ صدقها في كل حالاته إلى شيء غير الحظ ، وقد نسلم بمقدمتيك الكبيرين ، إلا أننا لا نسلم بمقدمتك الصغرى .

إن « كراتيوس » يضع مقدمته الصغرى على هذا النحو : « ولكن هناك أمثلة لا يحصيها العد ، لنبوءات تحققت دون أن يكون للحظ دخل فيها ، وأنا أقول على عكس هذا أن ليس ثمة من هذه الأمثلة ولا حادثة واحدة ، ولكن أنظر كيف تحتد المناقشة ! فما دمت قد آبيت التسليم بالمقدمة الصغرى فإن النتيجة تصبح باطلة .

ولكنه يرد على هذا قاتلاً : « إن العقل لا يسيخ رفضك التسليم بها ،

لأنها بينة الوضوح » — ولماذا عزوت إليها هذا الوضوح ؟

« لأن الكثير من النبوءات يثبت صدقه » — ولكن ما رأيك في أن ما يثبت بطالته من هذه النبوءات أكثر من ذلك ؟ أليس يدل هذا الشك نفسه — الذي يعتبر من خصائص الحظ — على أن صدق هذه النبوءات ، مرجعه إلى الحظ لا إلى قانون من قوانين الطبيعة ؟ وألست ترى يا عزيزي « كراتيوس » — لأنني أوجه الخطاب إليك — أن دليلك هذا إن صح ، فإنه ينطوي بالمثل على تأييد لضروب التكهّن التي يمارسها العرافون والعيافون والكلدانيون ومؤولو البرق ونذر الزجر والأنصبة ؟ لأنك ستجد في كل من هذه الأنواع مثلاً يشهد بصدق نبوءة واحدة على أقل تقدير . وعلى هذا فاما

أن تسلّم بانها جميعا وسائل للتكهن بالغيب - وهذا ما عنيت بإنكاره
ولما أن ينتج عن رفضك التسليم بهذا - فيما أستطيع أن أفهم - ألا يدخل
نطاق التنبؤ بالغيب هذان الضربان اللذان أبقيتهما في مجاله . وعلى هذا
الاستدلال المنطقي الذي استخدمته لتقرير هذين الضربين اللذين سلمت
يمكن استخدامه في إقرار الأنواع الأخرى التي أبيت التسليم بها -
التكهن الصنعي .

(١) مهاجمة التنبؤ في حال الجذب

مناقشة نبوءات سيبايل Sibyl المحجوزة :

٥٤ - ولكن أى وزن يمكن أن نقيمه لهذا « المس » الذى تسميه « إنا
والذى يمكن المعتوه الذى اختل عقله من أن يدرك ما لا يقوى على إد
الرجل الحكيم ، والذى يخلع على من فقد العقل البشرى عقلا إلهيا (١)
معاشر الرومان نوقر أشعار الكاهنة « سيبايل » التى يقال إنها فاهت بها
كان يعترها المس ، وقد تبينت منذ عهد قريب شائعة آمن الناس به
يوه ذلك ، ثم اتضح بطلانها بعد ذلك ، وتقول هذه الشائعة إن
مفسرى (٢) هذه الأشعار كان على وشك أن يعلن فى مجلس الشيوخ أن -
الجمهورية تتطلب أن يكون الحاكم الذى يتولى حكمنا بالفعل ملكا با

(١) رأى شيمرون على خلاف بين مع النظرية التى صاغها مؤلفو المسيحية وهى
الجاهل ذى القلب البرى ، الصافى على العالم ، وعلو الطفل على الرجل الناضج ، وتفوق
العقل على هذا الذى يعتقد أنه أوتى الحكمة (جارنييه) وهذه أيضا نظرية بعض
الاسلام ومفكره . أنظر كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام » ص ٤٥ وما
(٢) « لوكيوس كوتا » Lucius Cotta وهو أحد الذين كانوا منوطين بهذه الأ.
وقد روى القصة « سويتونيوس » Suetonius فى « يوليوس قيصر » فى الفصل
والسبعين ، وكان يشاع أن أشعار الكاهنة « سيبايل » Sibyl تقول بأن « البار
Parthians لا يمكن قهرهم إلا إذا تولى قتالهم ملك ، وعلى هذا يجب أن يعين قيصر ملك
بلوتارك : قيصر فى الفصلين الستين والرابع والستين (لويب وديماريه) .

كذلك ، فاذا كان هذا ما تضمنته كتب الكاهنة (١) ، فإلى أى رجل وإلى أى عصر كانت تشير ؟ إذ كانت فطنةً من واضعها أن يحتاط عند القول بأن الأحداث أياً كان نوعها ، قد تنبأ بها الكهان قبل وقوعها ، إذ أنه قد أهمل كل إشارة تعين أشخاصاً أو تحدد عصراً ، وقد أشاع الغموض كذلك فى كلامه حتى يمكن التسليم بهذه الأشعار فى مواقف مختلفة وعصور متباينة ! وذلك فوق أن هذه القصيدة ليست أثراً من آثار الجنة - المس - وهذا واضح من طريقة تأليفها ، ولأنها تبين عن عناية فنية أكثر مما تكشف عن تهيج عاطفى ، ويوضحه أكثر من هذا أنها نظمت على نحو القصائد التى تسمى acrostic وهى التى إذا أخذت الحروف الأولى فى أبياتها بانتظام ، كونت كلمة تحمل معنى ، كما نرى مثلاً فى أشعار « أنيوس » ، فان الحروف الأولى من أبياتها تكون الكلمات اللاتينية التى تقول : « وضعها كوتوس أنيوس » ومن المحقق أن هذا عمل فكر مركز وليس عمل مخ مهتاج أصابته جنة ، ثم إننا نلاحظ أن كتب الكاهنة « سيبايل » قد نظمت أشعارها بحيث إن كل نبوءة تتضمنها ، تجرى على النحو السالف ، فتحمل الحروف الأولى فى أبياتها موضوع هذه النبوءة الخاصة ، مثل هذا العمل يصدر عن كاتب مدقق لم يصبه مس ولا خجل ، وإذن فلنحرم قراءة « سيبايل » إلا بإذن من مجلس الشيوخ ، كما تقضى بذلك تعاليم أجدادنا ، وحتى تكون أبلغ أثراً فى نحو الخرافات منها فى تشجيع انتشارها ، ولنضرب مع الكهان فى ألا تتضمن هذه الكتب فكرة « ملك » لأن مثل هذا

(١) قال « أولوجلا » فى حديثه عن هذه الكتب إن عجوزاً اقترحت ذات يوم على « تاركوين الفاخر » أن يبتاع تسعة كتب قدمتها له ، ولما قدم لهذه الكتب ثمناً بخساً قذفت المرأة أمامه بثلاث منها فى النار ، فطلب إليها « تاركوين » أن يعرف ثمن الكتب الستة الباقية ، فطلبت نفس الثمن ، فعاد وعرض عليها ثمناً بخساً ، وعادت هى كذلك إلى قذف ثلاثة كتب أخرى فى النار ، وعندئذ استفسر منها عن ثمن الكتب الثلاثة الباقية ، فأجابت بأن ثمنها هو ثمن التسعة جميعاً ، فأدى لإصرار هذه المرأة إلى أن يظن تاركوين أن لهذه الكتب قيمة كبيرة فدفع الثمن الذى طلبته . وهذه الكتب الثلاثة هى التى تسمى بكتب « سيبايل » (ديجارىه) .

الملك ان تحتمل وجوده الآلهة ولا الناس في روما .

٥٥ - ولكن كثيراً من الأفراد كثيراً ما ينطقون إذا اعترافهم المس
بكثير من النبوءات الصادقة ، كما وقع هذا لكساندرا (١)

فهل تريد أن تكرهني على الاعتقاد بصحة الخرافات ؟ فلتكن هذه
الخرافات جذابة كما يروقك ، ولتكن قد بلغت الكمال الممكن في اللغة
والفكر والوزن والإيقاع ، ولكن لا ينبغي مع ذلك أن نضع ثقتنا في هذه
الأحداث الخرافية ، أو أن نقتبسها كشاهد يؤيد وجهة نظرنا ، وعلى هذا
الأساس لا ينبغي فيما أرى أن نخلع ثقتنا على النبوءات التي قال بها
«بوبيكوس» (٢) أياما كان - ولا نسلم بنبوءات منشدى المارسي (٣) ، أو نبوءات
وحى أبولو المبهم الغامض (٤) ، فإن بعضها كان بين الخطأ ، وبعضها الآخر
مجرد هذر لا معنى له ، وليس بينها نبوءة كانت موضع اعتماد هند رجل عادي
الفكر قصير الباع في مجال الحكمة .

مناقشة شاهر روافي :

ولكن يا للعجب ! ما قصة هذا الجذاف الذي كان يعمل في أسطول
«كوبونيوس» (٥) الذي تقول عنه : «ألم يتنبأ بالأحداث التي وقعت بعد ذلك؟»
حقيقة قد تنبأ بذلك ، وبنفس الأحداث التي كان كل منا يخشى يومئذ وقوعها ،
لأن الأنباء قد ترامت إلينا بأن جيوش قيصر وبومبي قد تلاققت في «تساليا»

(١) قارن الفقرة الثلاثين من الكتاب الأول . وقارن الفقرة التاسعة والأربعين من
الكتاب الأول (لويب) وفيها إشارة إلى تنبؤ كساندرا بمحاذة باريس وعودة هيلين .

(٢) قارن الفقرة التاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٤) قارن الفقرة التاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٥) قارن الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

وقد بدا لنا أن جيوش قيصر كانت أكبر جراءة وأكثر حماقة لأنها كانت تقاتل وطنها، وأنها كانت أعظم قوة لأنها تدربت تدريياً عسكرياً زمنياً طويلاً. وفوق هذا لم يكن بيننا فرد لا تهوله مغبة المعركة، ولكن خوفنا لم يظهر صريحاً سافراً، ولم يكن بحيث يحط من قدر قوم أرتوارصانة الأخلاق، أما عن ذلك البحار اليوناني فهل ترى غرابة في أن يفقد عقله وتخونه شجاعته ويفلت منه قياد نفسه، وهو في سورة خوفه، كما يقع لسواد الناس في مثل هذه الحالات؟ وقد أعلن وهو في ثورة عقله وتيه فكره، وقوع هذه الأحداث التي كان هو نفسه في خوف من وقوعها. فأرجو باسم السماء أن تنبئني عن ترجح أنه أرتق القدرة على تأويل أوامر الآلهة المخلدن، أهذا البحار المعتوه محتل العقل، أم أحد أفراد فرقنا — التي كانت في البر يومذاك — من كانوا وقارو^(١) وكونيوس أو أنا؟

مفهوم النبوءات وكثرة التفسيرات في تفسيرها :

٥٦ — فلنعد الآن إلى حديثنا، لقد وضع « كريسيبوس » مجلداً كاملاً بنبوءاتك^(٢)، وقد كان بعضها — فيما أظن — باطلاً، وقد صدق بعضها الآخر على سبيل المصادفة . كما يقع في الأغلب والأعم في الحديث العادي المألوف، وكان بعضها من التعقيد والغموض بحيث يحتاج تفسيره إلى مفسر، ويرد الوحي فيها إلى وحي، وكان بعضها مشتركاً (يحمل معنيين) بحيث يتطلب رجلاً من أهل المنطق ليفسر مغزاها، فمن ذلك أن الوحي عندما كشف عن هذه النبوءة التالية إلى أغني ملك في آسيا :

[عندما يجتاز قارون نهر هلايس Halys تنحطم مملكة عظيمة لا محالة]

ظن « قارون » أنه كان يحطم مملكة عدوه، ظن هذا في نفس الوقت

(١) « ماركوس فارو » M. Varro أعظم أهل عصره من الرومان علماً (لويب) .

(٢) قارن الفقرة الثالثة والثامنة عشرة والتاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

الذى كان يحطم فيه مملكته، ولكن من الممكن في كلا الحالين أن يكون الوحي صادقا . ثم لماذا تضطرنى للاعتقاد بأن « قارون » قد تلقى هذا الوحي ؟ أو لماذا أعتبر « هيرودوت » ، (١) أصدق من « أنيوس » ، في هذا ؟ وهل كان « هيرودوت » ، أقل مقدرة في اختلاق القصص التى تدور حول « قارون » ، من « أنيوس » ، فى اختراع الحكايات التى قالها عن « بيروس » Pyrrhus ؟ فمن ذلك لا تجد أحدا يثق فيما يقوله أنيوس عند ما ينص على أن وحي أبولو قد كشف إلى بيروس عن النبوءة التالية :

[أى يا ابن « أياكوس » ، Aeacus ، إنى أتكهن بأنكم يا جنود الرومان ستهزمون] (٢)

ونلاحظ أن أبولو كان قبل كل شيء لا يتكلم اللاتينية أبداً ، ثم إن الإغريق كانوا يجهلون هذه النبوءة ثانياً ، ثم إن أبولو كان قد كف عن نظم الشعر فى أيام بيروس ثالثاً . ونلاحظ أخيراً أن أبناء أياكوس وإن كانوا فيما يقول أنيوس :

[جنسا بليداً اشتهر بشجاعته لا بحكمته]

إلا أن بيروس ربما أوتى من النظر ما يمكنه من أن يفهم أن هذا البيت الغامض المشترك : « ستهزم جنود الرومان » ، لم يكن فى صالحه ولا فى صالح الرومان ، أما عن هذه النبوءة المشتركة (التي تحمل معنيين) ، والتي خدعت « قارون » ، فإنها قد تخدع « كريسيديوس » ، مثلاً ، وأما الإجابة التى قيلت لبيروس ، فإنها لم تخدع حتى أبيقور !

(١) يلخص هيرودوت هذه القصة فى الجزء الأول ص ٥٣ (لوبيج) .

(٢) من « الحوليات » التى نظمها أنيوس (لوبيج) وكلمة « ستهزمون » يتغير معناها إن بنيت للمجهول عنه إن بنيت للمعلوم . وفى البناء الأول تدور الدائرة على الرومان . وفى الثانى ينتصرون . . . !

مناقشة نبوءات دلفي :

٥٧ - إلا أن السؤال الجوهرى هو هذا : لماذا لا تقال في الوقت الحاضر نبوءات دلفي التى سقت لك الأمثلة والشواهد عليها ، ولا يتلقاها أحد منذ زمان مديد ؟ ولماذا ينظر الناس الآن اليها باحتقار بالغ ؟ فاذا وقفنا عند هذه النقطة لنعرف السبب فيها ، أكد المدافعون عن هذه النبوءات أن «مرور الزمان الطويل قد لاشى بالتدريج ميزة المكان الذى صدر عنه هذا البخار الأرضى الذى ألهم الكاهنة « بيثيا » لتتلق بهذه النبوءات ، . . . وربما خطر للبره أنهم يتحدثون عن نبيذ أو ماء أجاج يقبل التبخر مع أن المسألة تنصب على ميزة المكان - تلك الميزة التى لانسميها طبيعية فحسب ، بل إلهية معاً - ثم كيف تبخرت هذه الميزة ؟ إنك تقول : «على مر الزمان الطويل ، . . . ولكن أى زمان هذا الذى أمكنه أن يمطم قوة إلهية ؟ وأى شىء إلهى كهذا البخار الأرضى الذى يلهم النفس بقوة التفؤ بالمستقبل . مثل هذه القوة لا تدرك الأحداث قبل وقوعها فحسب ، بل تصوغ تكهناتها في شعر منظوم ؟ ومتى اختفت هذه الميزة ؟ أكان اختفاؤها بعد أن أخذت سرعة التصديق تزايل عقول الناس ؟ ولا بأس من أن نقول عرضاً إن «ديموستين» الذى عاش منذ ثلاثمائة عام كان يقول إن كاهنة بيثيا قد حابت فيليب في نبوءاتها (١) ، أى كانت حليفته بمعنى آخر ، وقد قصد بهذا التعبير أن يقول إن فيليب قدر شاها ، ويمكننا أن نقول استناداً إلى هذا إن نبوءات دلفي لم تخلُ في غير هذا الحدث من الغش والخداع خلوا تاماً ، ولكنى لا أدرى لماذا يبدو فلاسفتك الخرافيون الواهنون على هذا النحو من التناقض البين . ثم إنكم أيها الرواقيون بدلا من أن ترفضوا التسليم بصحة هذه القصص التى لا تقبل التصديق ، آثرتم أن تعتقدوا بأن قوة قد تلاشت بالتدريج حتى انتهت إلى العدم ، مع أن هذه القوة لو وجدت ، لكان من المؤكد أن تظل موجودة قائمة إلى الأبد .

(١) قارن : 1. Dem. 287, Aeschin 72, (لويب) .

(ب) مهاجمة الرؤيا الصادقة

مناقشة آراء الفلاسفة :

٥٨ - وشييه بهذا خطأهم في موضوع الرؤيا ، وما أبعد المعين الذي استقوا منه دفاعهم عنها ! « إن نفوسنا - فيما تزعم مدرستكم - إلهية ، وقد وفدت إلينا من مصدر خارجي عنا ، والكون يزخر بالنفوس المنسجمة ، وعلى هذا فإن النفس البشرية تنبأ إبان النوم بأحداث المستقبل لأنها إلهية ، وعلى اتصال بغيرها من النفوس المنتشرة في الكون كله^(١) . ولكن « زينو ، يظن أن النوم ليس شيئاً أكثر من تقلص ، وكأنه هبوط وإغناء يعترى النفس الإنسانية^(٢) .

ثم إن فيثاغورس وأفلاطون - وهما من أوثق المصادر في هذا الصدد - يقترحان علينا إذا رغبتنا في أن تقع لنا رؤيا صادقة ، أن نهيب للنوم أنفسنا باتباع نظام معين في السلوك والطعام ، فالفيثاغوريون يحرمون أكل البقول - كما لو كانت النفس لا البطن - هي التي تمتليء بذلك رياحاً ، وأياً ما كان الأمر فإننا لانصادف - عند فيلسوف ما - كلاماً أكثر من هذا تناقضاً . وإذن فهل تعتقد بأن نفوس النيام تتحرك من تلقاء نفسها أثناء الحلم ؟ أو أنها - كما يظن ديمقريطس - مضطرة إلى الحركة بتأثير أطيايف تفد إليها من الخارج ؟^(٣) وسواء أصححت هذه النظرية أم صدقت النظرية الأولى ، فإن الحقيقة التي تظل قائمة هي أن الناس يظنون إبان النوم أن الكثير من

(١) أنظر الفقرة الثامنة والأربعين من الكتاب الأول فان كورنتوس يعرض فيها هذه الأفكار عن طبيعة النفوس (جارنييه) .

(٢) ويذكر « أرنيو » Arnium في كتاباته النصوص الرئيسية التي تنصل بالنوم وهي تلخص رأى الرواقين بأن النوم تراخ في النفس يزيد من إحساسها . ونجد في ديوجانس اللايرتي ما شبه هذا الرأي (VII, 158.) (جارنييه) .

(٣) هي أطيايف من خارج النفس تجلت في العقل عن طريق الجسم . فارن شيمرون Acad. في الكتاب الأول في الفقرة الخامسة عشرة (لويب) .

باطل الأخيلة حقائق لا يأتها الشك ، كما تبدو الأشياء الثابتة على الشاطئ متحركة في عين السائح ، وكما يؤدي بنا الخداع البصرى أحياناً إلى أن نرى عند النظر إلى المصباح لهين بدلا من طب واحد . وما حاجتى إلى القول بأن كثيراً من الأشياء التى لا وجود لها ، يراها السكرى أو المعتوهون ومختلو العقول ؟ وإذا كان لا بد لنا من أن نسحب ثقتنا من مثل هذه الأخيلة التى تبدو للرجل اليقظان ، فانى لا أفهم لماذا نضع ثقتنا فى أحلام المنام ؟ وقد يبدو لك أن تجادل فيما أسلفناه من خداع البصر ، كما جادلت فى الأحلام من قبل ، وتقول على سبيل المثال إن الأشياء الثابتة عندما تبدو متحركة تنبئ مقدماً عن زلزال أو فرار جيش مفاجيء ، وأن طب المصباح إذا بدا مزدوجاً ، أندر بقيام فتنة أو ثورة ا

الرؤيا الصادقة وانقراض المصادقات :

٥٩ — وباستخدام الحدس فيما نراه عند السكرين والمعتوهين من هذيان يبدو فى صور لا يحميها العد ، قد نهتدى إلى ما يلوح أنه نبوءة صادقة ، إذ منذ الذى يسدد المرمى إلى هدف معين طوال يومه ، ولا تحالفه المصادفة فى إصابته ؟ إننا ننام كل يوم ، ومن النادر أن تمر ليلة لاتقع لنا فيها أحلام ، فهل تعجب إذا تحققت أحلامنا فى بعض الأحيان . ؟ لاشيء يجرى عفوياً على غير وتيرة مؤكدة كرمية النرد ، ومع ذلك فليس ثمة فرد يلعب كثيراً إلا ويوفق إلى رمية فينوس عرضاً فى مرتين أو ثلاث مرات متعاقبة . وإذن فهل أصابتنا الحماقة حتى نميل إلى القول بأنها وقعت بفضل فينوس ، ولم تقع على سبيل المصادفة . ؟ وإذا كان لا بد لنا من أن نشك فى أمر الأحلام الباطلة

(١) إله الطب وهو ابن أبولو وأرسينوى Arsinoé أو كورونيس Coronis ، وقد تولى تربيته كائن وهمى نصفه لإنسان ونصفه الآخر فرس ، ومنه تعلم فن العلاج ، كما يقول معجم باشليه وديزوبرى ، أما « سيرابيس » Serapis فإنه إله مصر القديمة فى عصر البطالة والرومان ، وقد أصبح أخيراً « أيسكولايوس » نفسه .

في أوقات أخرى ، فاني لا أرى في النوم ميزة ما ، تجعل من أحلامه الفاسدة رؤيا صادقة . ثم إذا كان نظام الطبيعة من جهة أخرى قد قضى على النيام أن ينفذوا الأحلام التي طافت بخواطرم ، لوجب أن أيشد وثاق الناس على الدوام كلما مضوا إلى سرهم ، لأنهم يرتكبون من الحماقات في أحلامهم أكثر مما يرتكب أي رجل مجنون !..

وإذا كان لا بد من أن نشك في الرؤيا التي تترامى لمختلى العقل - لأنها غير حقيقية - فاني لا أدري لماذا نثق في أحلام هي أكثر اضطراباً من هذا بكثير ؟ فهل نثق فيها لأن المجانين لا يقصون هذيانهم لمعبرى الأحلام كما يفعل ذلك أصحاب العقول السليمة ؟

النك في منفعة الأوهام :

إني أوجه إليك هذا السؤال : هب أني أردت أن أتعلم القراءة والكتابة أو الغناء أو اللعب على العود ، أو أن أتمكن من حل تمرين في الهندسة أو مسألة في الطبيعة أو قضية في المنطق ، هل يجب أن أنتظر حتى أهتدى إلى معرفة هذا فيما يقع لي من أحلام ؟ أم يجب أن أعتمد على ما يتطلبه كل من هذه الفنون أو العلوم من معرفة خاصة بدونها لا يهتدى أحد إلى العلم بها ، ولا إلى التفوق في ميدانها ؟ كلا ، بل حتى إذا أردت أن أطلق في الماء سفينة ، لما التزمت في قيادتها الطريقة التي ينبغي اتباعها في قيادة السفن كما تبدو فيما يترامى لي من أحلام ، لأنني إن فعلت ذلك ، لقيت العقاب سراعاً . وماذا يكون الرأي في مريض يلتمس الخلاص من دائه عند معبر الأحلام ، لا عند طبيب يداوى الأجسام...؟ أو هل تظن أن «أيسكولابوس» Aesculapius و «سراپيس» Serapis قد أوتيا القدرة على تشخيص العلاج

لأمراضنا الجسدية^(١) عن طريق الأحلام؟^(٢) أو هل تظن أن « نبتيون،^(٣) لا يستطيع أن يساعد أدلاء السفن بهذه الطريقة نفسها؟ أو هل تظن أن « مينرفا،^(٤) وإن كانت تصف للمريض دواءه في حلم يقع له دون معونة يقدمها الطبيب، فإن آلهة الشعر لا تمتح في الرؤيا طريقة العلم بالقراءة والكتابة وسائر الفنون الأخرى.؟ إذا كانت الرؤيا تحمل العلم بدواء المرض، فإن الفنون السالفة الذكر يمكن أن تعرف بدورها عن هذا الطريق نفسه. ولكن ما دمنا لا نهتدى إلى معرفة هذه الفنون عن طريق الرؤيا، فإن العلاج كذلك لا يشخص في الأحلام. وما دمنا قد دحضنا النظرية التي تقول بأن فن الطب يوهب عن طريق الرؤيا، فإن الأساس الذي قام عليه الاعتقاد في صدق الرؤيا قد تداعى وانهار تماما.

استبعاد الوحي الألهي منه مجال الرؤيا :

٦٠ - ولكن رغم ما نراه من وضوح النتيجة التي انتهينا إليها الآن، فانا نريد أن نتناول هذا الموضوع يبحث أعمق مما أسلفنا، ومن المحقق أنك مضطر إلى التسليم بأحد هذه الفروض الثلاثة :

(١) هناك علاقة بين الوحي عن طريق الرؤيا وبين هذين الالهين . وبالوحي السالف كان يوصف الدواء املاج المرضى (لويب) .

(٢) كان المعتقد في العصور القديمة بوجه عام أن المريض الذي ينام في المعبد يبرأ من مرضه، ونرى أحد أشخاص رواية « بلوتوس » Plutus لأرستوفان، كان مضطراً لكي يبرأ من مرضه أن ينام في معبد الاله « أيسكولايوس » وأن « هروديان » Herodien يقول إن الإمبراطور « كرا كلا » Caracalla قد سارع إلى « برجان » Pergan بآسيا الصغرى لكي يشفيه الاله السالف (جارثيه) .

(٣) إله البحر عند الرومان وهو ابن « ساتيرن » Saturne وأخو « جوبتر » و « بلوتون » Pluton وفي قصره القائم بقاع البحر كان يحتجز الحيتان البحرية التي كانت تبحر عربته على سطح الأمواج .

(٤) هي إلهة الرقمان في الحكمة والفنون والعلوم والشجاعة والعدل وقد ولدت من منح « جوبتر »، وهي عنراء بكل معاني الكلمة وقد عاقبت « بيرزياس » على نظراته الخبيثة بجرمانه من البصر (باشليه وديزوبري) .

أولها : وجود قوة إلهية تعنى بتدبير خيرنا فتكشف لنا الأنباء عن طريق الرؤيا .
وثانيها : أن معبرى الأحلام يستندون إلى وجود علاقة وتداع طبيعيين بين الأشياء (١) ، ويسميها الإغريق بالمشاركة ، ويعرفون نوع الحلم الذى تتطلبه كل حالة ، كما يعرفون النتيجة التى تتبع كل حلم .
وثالثها : أن كلا هذين الفرضين غير صحيح ، وأن هناك مجموعة من القواعد المتسقة (المنطقية) التى تقوم على ملاحظات استغرقت زمنا طويلا ، وهذه القواعد تعرف النتيجة فى كل حلم .

وعلى هذا ينبغى أن نفهم - قبل كل شيء - أن ليس ثمة قوة إلهية تخلق الرؤيا ، إنه لمن البين الواضح أن ليس شيء من هذه الرؤيا التى تتراعى فى الأحلام ، يصدر عن إرادة إلهية ، لأنها لو كانت كذلك لتدخل الآلهة لصالحنا ، بحيث تمكننا الأحلام من كشف المستقبل . ولكن كم من الناس يعطى للأحلام باله ؟ أو يفهم مغزاها أو يذكر فحواها ؟ ثم كم من الناس لا يوليها احتراما ، ويعتبر الاعتقاد فى صحتها خرافة عقل ضعيف عليل !
ثم لماذا ينقل الإله حين يدبر خير الجنس الإنسانى نذره عن طريق الرؤيا التى يعتبرها الناس غير خليقة بالتقدير ، فيضنون عليها بالاهتمام ، ويبخلون حتى بتذكرها ؟ لأن من المستحيل أن يجهل الإله نظرة الناس إلى الأحلام بوجه عام ، والإقدام على عمل لا حاجة للناس به ولا مبرر له ، أمر لا يليق باله ، ولا يتفق حتى مع إنسان دأبه التفكير السليم ، وعلى هذا فإن الناس إذا كانوا لا يعباون بأكثر الأحلام ، ويستخفون بأمرها ، فإن الإله إما أن يكون على جهل بهذه الحقيقة ، أو أنه يعمل عملا غير مجد حين ينقل الأنباء

(١) يعتقد الرواقية أن بين أجزاء العالم علاقات خفية مردها إلى نفس واحد يتغلغل فيها ويهبها الحياة ، وكثيرا ما يعبّر مؤلفو الرواقية عن هذه الفكرة فيقولون إن العالم واحد وجميع أجزائه متصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا بحيث لا تحدث حركة ما ، إلا ويكون السكل علتها . (جارنييه) .

عن طريقهما ، ولكن كلا الفرضين لا يتفق مع طبيعة الإله ، ولهذا يجب التسليم بأن الله لا ينقل عن طريق الرؤيا أنباء .

٦١ - وإني لأوجه إليك هذا السؤال كذلك : إذا كان الله يهبنا هذه الرؤيا كمنذر سابقة للأحداث ، فلماذا لا يمنحها لنا ونحن أيقاظ بدلا من أن يهبها لنا ونحن نيام ؟ إذ أن نفوسنا سواء أكانت في حالة النوم تدفعها للعمل قوة خارجية وغريبة عنا ، أم كانت تتحرك بذاتها ، أم كان ثمة سبب آخر يجعلنا نتخيل أثناء الحلم أنا نرى أو نسمع أو تؤدي أعمالا معينة ، فهما كان هذا السبب ، فليس ثمة من حرج في أن يظل قائما إذا وهبت لنا الرؤيا إبان اليقظة . وإذا كان الآلهة قد أرسلوا إلينا نذرا إبان نومنا وقصدوا بها خدمتنا ، فإن من الممكن أن يرسلوها إلينا ونحن أيقاظ ، ولا سيما وأن الأشياء التي تبدلنا أثناء اليقظة ، تكون أكثر تميزا وأدعى إلى الثقة والاطمئنان من تلك التي تترامى لنا في الأحلام - كما يقول كريستوس في دحضه لأراء أتباع الأكاديمية . وعلى هذا يكون الأكثر تمشيا مع حب الآلهة لخيرنا ، أن يهبوا لنا هذه الرؤيا واضحة إبان يقظتنا ، لا أن يرسلوها إلينا في أحلامنا محجبة يستعصى على العقل فهمها ، ولكن الآلهة لا تفعل ذلك ، ولهذا وجب أن نرفض التسليم بأن الرؤيا إلهية . ثم ما حاجتنا إلى طريقة معوجة غير مستقيمة تضطرنا إلى استخدام معبرين للأحلام ، بدلا من الطريقة الواضحة المباشرة التي لا تكلفنا هذا العناء ؟ وإن صح أن الإله يهب الخير لصالحنا ، فقد كان الأنسب أن يقول : « افعل هذا ، - لا تقدم على ذلك ، ، ذلك خير من أن يوحى إلينا بأحلام أثناء اليقظة أو إبان النوم .

٦٢ - ثم هل يجرؤ امرؤ على أن يدعى أن الرؤيا تصدق دواما .؟ إن « أنيوس » يقول : « إن بعض الأحلام صادق ، وليست كلها كذلك بالضرورة ، ولكن كيف تميز بين الصادق منها والباطل ؟ . ما آية الأحلام الباطلة وما آية الرؤيا الصادقة ؟

إرجاع الأوهام الى طبيعة النفس :

وإذا كانت الرؤيا الصادقة من وحى الآلهة ، فمن أين تصدر الأحلام الباطلة ؟ إن من المحقق أن الله إذا كان يوحى بالباطل من الأحلام كذلك ، فأى شيء يكون أدعى للشك وأبعد عن الثقة من الله ؟ ثم أى شيء أكثر حماقة من أن تثير نفوس الناس بأحلام باطلة وكاذبة ؟ ولكن إذا كانت الرؤيا الصادقة من وحى الآلهة ، أما الأحلام الباطلة التي لا تحمل معنى فتصدر عن الطبيعة ، فأى ضرب من الهوى أدى إلى القول بأن الله قد أوحى بالاولى ، وأن الطبيعة قد صاغت الأخرى ، بدلا من أن يقال إن الله قد أوصى بهما معا — وهذا ما تأبى مدرستك الرواقية التسليم به — أو أن الطبيعة قد صاغتهما معا ؟ وما دمت تنكر أن يكون الله هو الموحى بهما معا ، فعليك أن تسلم بأن الطبيعة قد صاغتهما جميعاً ، وأنا أقصد « بالطبيعة » في هذه المناسبة ، تلك القوة التي من أجلها لا تستطيع النفس أن تكون ثابتة مجردة من الحركة بعيدة عن النشاط . ثم إن النفس متى أعجزها إعياء الجسم عن استخدام الاطراف والحواس ، جنحت إلى إنشاء أحلام مختلفة باطلة لا تدعو إلى الثقة ، تصدر عما يسميه أرسطو (١) « بالآثار العالقة بما ينشأ عن أعمال النفس وخواطرها إبان اليقظة » ، وهذه الآثار إذا أثرت أنتجت في بعض الاحياء نماذج للأحلام غريبة . فاذا كان بعض هذه الأحلام صادقا ، وبعضها الآخر كاذبا ، فإني تواق لمعرفة الآية التي تميز أحدهما عن الآخر ، فاذا لم تكن ثمة آية تيسر هذا التمييز ، فلماذا نعير معبريك سمعاً أو نعطي لهم بالا . ؟ أما إذا قامت هذه الآية المميزة ، فإني أكون تواقا لأن ينبئ أصحابها عن حقيقتها ، ولكنهم لا يجدون جوابا إذا استفسرت منهم وعز عليهم الجواب .

٦٣ — والآن نتساءل عما هو أكثر احتمالا : هل نقول إن الآلهة

(١) الاشارة هنا الى شرح أرسطوفى بجمته : De Insomniis في الفصل الثالث (جارييه ولويب) وانظر مذهب أرسطوفى في الرؤيا في كتابنا « الأحلام » في كثير من الصفحات .

المخلدين الذين يمتازون بالسمو والتفوق الذى لا يجارى ، لا يحومون على الدوام حول أسرة الناس فحسب ، بل يدورون حول القش المتواضع الذى يرقد عليه الفقراء أنى كانوا ، حتى إذا سمعوا شخيراً يدوى ، بعثوا إلى صاحبه برؤيا مبهمة ملتوية تفزعه في نومه ، فيحمنها في الصباح إلى خبير بالأحلام ليحل ألغازها ؟ أو نقول إن الطبيعة قد هيأت أقدارها بحيث إن النفس في نشاطها الدائم ترى في نومها أطيافا ما رآته والجسم يقظان ؟ أيهما أكثر انساقا مع الفلسفة ؟ أن تفسر هذه الأخيلة بالنظريات الخرافية التي تصدر عن المسنات من النساء اللاتي يتنبأن بمحظوظ الناس ، أم تفسرها تفسيراً يقوم على كشف عللها الطبيعية ؟ ولكن ، حتى إذا كان في الإمكان أن نستمد من الأحلام استدلالاً يوثق في أمرها (١) ، فإن هذا لا يقع لأولئك الذين يتظاهرون بأنهم أتوا هذه المقدره ، لأن طائفة المعبرين تضم أقل الناس عمقاً في التفكير وأبعدهم غوراً في الجهالة ، ومع هذا فإن أصدق الرواقين يؤكدون بأن الإنسان لا يستطيع أن يكون كاهناً إلا إذا كان حكماً .

مناقشة قيام فن التعبير :

ويصف « كريسيوس » التنبؤ بالغيب في هذه الألفاظ : « إنه القدرة على أن ترى الشواهد التي يكشفها الآلهة للناس نذيراً بما يقع ، مع إمكان فهمها والقدرة على تأويلها (٢) . ويمضى في حديثه قائلاً : « ومهمة التكهّن هي الكشف سلفاً عن ميول الآلهة نحو الناس ، والطريقة التي بها تظهر هذه الميول ، والوسيلة التي بها يكسب الناس عطف الآلهة ، ويتقنون شروهم التي توشك أن تنزل بهم » .

(١) يبدو هنا أن شيفرون يتنبأ بنظرية علمية للأحلام كان مقدرها لها أن تنتظر طويلاً ، وهي لم تستقر حتى في أيامنا الراهنة استقراراً نهائياً ، بالرغم مما أثير حول هذا الموضوع من أبحاث كثيرة هامة (جارنييه) .

(٢) يشير إلى الفقرة الثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين من الكتاب الأول وفيها يعرض كونتوس نظرية الرواقين في التنبؤ بالغيب باعتباره فن تفسير النذر التي يقدمها الآلهة للناس باسم العناية بهم (جارنييه) .

ويجد هذا الفيلسوف نفسه تعبير الأحلام على هذا النحو : « إنه القدرة على فهم الرؤيا التي توجى بها الآلهة إلى الناس إبان النوم ، مع إمكان تأويلها ، فان صح مايقول ، فهل يكفي لهذا مجرد الفطنة العادية ، أو هل لا تحتاج على الأجرى إلى الذكاء الغلاب والعلم الكامل كالأ مطلقاً ؟ أما أنا فإني لم أصادف مثل هذا الرجل (الذى تهبأت له هذه الصفات) .

٦٤ - وحتى إذا سلس برأيك فى قيام التمكن بالغيب - وهذا ما لا ينتظر أن يكون بتأناً - فإنه ينبغى أن نكون على يقين بأن من المستحيل أن نعتز على كاهن . وإذن فإذا يقصد الآلهة بما يوحون به من رؤيا فى أحلامنا لانملك نحن القدرة على فهمها ، ولا نستطيع أن نجد امراً يؤولها لنا ؟ إذا كان الآلهة يرسلون فى أحلامنا هذه الرسائل التي لا تقبل الفهم ولا تخضع للتفسير ، فإنهم بهذا يشبهون القرطاجيين والأسبان إذا اضطروا إلى مخاطبة مجلس شيوخنا بلغة بلادهم ، دون الاستعانة بمرجم يفسرها لأعضاء المجلس . ثم أى خير ترجوه من وراء هذه الأحلام الغامضة البهمة ؟ من المحقق أن الآلهة يطمعون لا محالة فى أن نفهم النصيحة التي يسدونها إلينا خدمة لنا ، ولكنك ترد على هذا قائلاً : « ألا يلتبس علينا شعر الشعراء ومذاهب الفلاسفة الطبيعيين ؟ » . فى الحق إنها كذلك : فمن ذلك أن « ايوفريون » Euphrion^(١) غامض كل الغموض ، ولكن « هومير » ليس على هذا الإبهام ، فأيهما أشعر من الآخر ؟ وهرقليطس مسرف فى الغموض^(٢) ، وديمقريطس ليس كذلك على أقل تقدير . فهل يمكن أن نعقد بينهما مقارنة ؟ بيد أنك تسدى إلى النصيحة خدمة لى فى كلمات لا أقوى على فهمها ، فلماذا النصيحة إطلاقاً ؟ إن

(١) كان شاعراً يونانياً فى القرن الثالث قبل المسيح واشتهر بالرثاء ، ووضعه كلياين الاسكندرى Clément d'Alexandrie فى تصنيفه من هذه الوجهة مع كلياكوس Callimaque وليكوفرون Lycophron وهما من الكتاب المقدين فى كتاباتهم ويحب فى شرحها أهل اللغة (لويب وجارنييه) .

(٢) كان هرقليطس يسمى « الغامض » قارن شيسرون : De fin 11. 5. 15. (لويب)

هذا شبيه بالطبيب الذى يأمر المريض أن يتعاطى « شيئاً نبت من الأرض ولا دم فيه ، وهو يزحف حاملاً مسكنه على ظهره ، بدلاً من أن يقول باللغة الدارجة المألوفة « قوقع ، .. » ويتحدث أمفيون في رواية وضعها با كوفوريوس (١) إلى الأثينيين عن كائن من ذوات الأربع قصير القامة ، خشن خجول بطيء حاد البصر ، دقيق الرأس تشبه رقبته عنق الثعبان ، إذا نزعت منه أحشاؤه وحرمت الحياة ، لبث يردد إلى الأبد أغنية شجية ..

ولما كان المعنى الذى يحمله هذا التعبير غامضاً مسرفاً فى الغموض فقد أجابه الأثينيون قائلين : « أوضح فيما تقول وإلا استعصى علينا أن نفهمك ، وعندئذ وصف هذا الكائن فى كلبه واحدة فقال : سلحفاة .. أما كان فى وسعك أن تقول هذا أولاً أيها اللاعب على القيثارة ؟

مناقشة استفسارات الرواقية :

٦٥ - روى كرايسبوس فى كتابه عن الأحلام قصة رجل الشمس مشورة كاهن فى حلم رأى فيه بيضة معلقة فى السرير فى غرفة نومه فقال له : « تحت سريرك كنز مغيب فى جوف الأرض ، ولما حضر الرجل تحت سريريه عثر على كمّ من الذهب تحوطه فضة ، فأرسل إلى الكاهن كمّاً من الفضة ظنه مناسباً ، فقال له الكاهن بعد : ألا يصينى شيء من مح البيض ؟ وقصد بالبحر الذهب ، وبالفضة بياض البيض ، فهل لم يظهر البيض فى حلم إنسان آخر ؟ فإذا كان قد تراءى فى حلم ما ، فلماذا يعثر على الكنز هذا الرجل وحده - أياً من كان - لأن البيضة قد تراءت فى حلمه ؟ وكم فى الدنيا من المعوزين الفقراء يستحقون معونة الآلهة ، ولكن الرؤيا لم ترشدهم إلى طريق الكشف عن الكنز ، ثم لماذا آثر الآلهة مع هذا الرجل ذلك التلبيح الغامض المبهم الذى يصور بعض التشابه الموهوم بين البيض والكنز ، ولم يصرح الآلهة بذلك فى

(١) الأبيات مقتبسة من كتابه « أنتيوب » Antiope وتجرى فى مناقشة دارت بين

أمفيون Amphion وأخيه « زيتوس » Zethus (لوب) .

جلاء سافر كما وقع في رؤيا سيمونيدس^(١) عند ما جرته الآلهة عن الإبحار على ظهر سفينة؟ وصفوة القول في هذا أن الرسائل التي تتراعى في الأحلام مشوبة بالغموض والإبهام، لا تتفق مع كرامة الآلهة بتاتاً:

٦٦ - فلنتناول الرؤيا التي يشيع فيها الوضوح، وتنصب على موضوعها في غير التواء، كرؤيا الرجل الذي أجهز عليه مدير الفندق في ميغارا^(٢)، أو رؤيا سيمونيدس، الذي تلقى من الرجل الذي دفعه إنذاراً يجره عن الإبحار، ورؤيا الإسكندر، ويدهشني يا عزيزي كوتنوس إنك مررت بها دون أن تعيرها اهتماماً، فقد أصاب سهم مسموم في إحدى المعارك « بطليوس »، Ptolemeus صديق الإسكندر الحميم، وأشرف على الهلاك متأثراً بجراحه، وعانى مرارة للنزع الأليم، وبينما كان الإسكندر جالساً على كשב من صديقه غشيه نوم عاجل، وعندئذ رأى رؤيا - فيما تقول القصة - ظهر فيها ثعبان أمه « أولمبياس »، الأليف يحمل في فمه جذعاً، ودله في نفس الوقت على اسم مكان يقوم على كشب من المسكان الذي يقال إن الجذع قد نما فيه، وأنباء الثعبان بأن هذا الجذع كان له من الفضل العظيم ما عجل بعلاج بطليوس، وما أن استيقظ الإسكندر حتى قص رؤياه على أصدقائه وأرسل الرسل في طلب الجذع. وقيل إن الجذع عندما عثروا عليه لم يصلح لعلاج بطليوس وحده، بل استغل في علاج الكثيرين من الجنود الذين أصابتهم الجروح التي نشأت عن هذا النوع من السهام المسمومة . . . !

لقد استعرت من تاريخ الرؤيا مجموعة أحلام حملت إلينا أنبأها، فمن ذلك أنك تحدثت عن أم « فالاريس »، و « كايروس الأكبر »^(٣) والرؤيا التي وقعت

(١) قارن الفقرة السادسة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن الفقرة السادسة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن في هذا وفي مثال كايروس الثاني الفقرة الثانية والعشرين من الكتاب الأول

(لويب) .

لام « ديونيسيوس »^(١)، ورؤيا هملكار^(٢)، وهانيبال القرطاجيين ورؤيا « بوبليوس دكيوس ». وذكرت الرؤيا التي أثارته الاهتمام، وترامت للعبد الذي كان أول راقص في الألعاب النذرية^(٣) ثم رؤيا « جايوس جراكوس »، وتلك التي رأتها حديثا « كيكيليا »^(٤)، أخت « بلابريكوس »، ولكن هذه أحلام ناس من شعوب أجنبية عنا^(٥) ولهذا فانا لا نعرف من أمرها شيئا، وربما كان بعضها محض اختلاق، إذ أي مؤلف عرض للكلام عنها؟ وماذا لدينا لنقوله عن أحلامنا ..؟ وعن رؤياك التي رويتها عنى، وعن جوادى الذى خرج من النهر وظهر على الشاطئ^(٦)، وعن رؤياى التي رأيت فيها « ماريوس » وقد أقبل بأكليله التي صاغها من الأشجار، وأمرنى بالمضى إلى معبد الذكرى الذى يحمل اسمه^(٧).

إرجاع الأعلام الى مكونات النص :

٦٧ — كل الأحلام يا عزيزى كوتنوس لها تفسير واحد، فها باسم السماء حتى لا تتغلب خرافاتنا وعنادنا على هذا التأويل . أى « ماريوس »، هذا الذى تظن أنى رأيت فى حلمى؟ أحسب أنى رأيت « صورته » أو « ظيفه »، هذا على الأقل هو ما يظنه ديمقريطس^(٨). ومن أين جاء ظيفه؟ ربما كان من رأيه أن

-
- (١) قارن الفقرة التاسعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) .
 - (٢) قارن فى هذا وفى المثاليين التاليين الفقرة الثالثة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .
 - (٣) قارن فى هذا وفى المثال التالى الفقرة الخامسة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .
 - (٤) قارن الفقرة الثالثة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .
 - (٥) هكذا فسّر Kühner, Giese, Moser الكلمتين : haec externa فيما يشير مترجم لويب ، وقد ترجمها (ديمارىه) أحلام أجنبى .
 - (٦) قارن الفقرة السابعة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .
 - (٧) قارن الفقرة السابعة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .
 - (٨) يبدو أن المراد بالمناقشة التى تدور هنا هو النظرية الأبيقورية فى الإدراك الحسى المتصل بحاسة البصر كما عرضها « لوكريس » Lucrèce لا نظرية ديمقريطس كما يشير النص (جارنييه) .

والأطياف، تصدر عن الأجسام المادية، أو تنشأ عن أشكال موجودة بالفعل، وإذن فقد صدر الطيف الذي رأته عن جسم «ماريوس»، ولكن «ديمقريطس» يقول: «كلا بل صدر عن جسمه الذي كان له فيما مضى». ولهذا فقد كان طيف «ماريوس» يطاردني إلى سهول «أتينا؟» يا للعجب! ولكن الكون زاخر بالأطياف،، وليس في الإمكان أن تتصور الأشياء إلا عن طريق أطيافها التي تغد إلى العقل من الخارج. وإذن فهل هذه الأطياف التي تتحدث عنها مطيعة تستجيب إلى إشارتنا، إلى حد أنها تخف إلينا في اللحظة التي نستدعيها فيها؟ وهل يصدق هذا على أشباح الأشياء التي لا وجود لها؟ إذ ما عسى أن يكون هناك من أشياء وهمية لا حقيقة لها ولم نسمع بها إلى حد أن يتعذر علينا أن نكوّن عنها صورة عقلية؟ بل قد نكوّن (صور) أشياء لم نرها إطلاقاً، كواقع المدن ووجوه الأشخاص، وعلى هذا فاني أرى — تمشياً مع نظريتك — أنني إذا فكرت في أسوار بابل، أو خطر لي وجه «هومير»، ظهر في مخي طيف ما مر بمخاطري، ولهذا فان من الميسور لنا أن نعرف كل شيء نبتغي معرفته، مادمننا لا نجد شيئاً نعجز عن التفكير في أمره، وعلى هذا فليس ثمة طيف يتسلل من الخارج إلى نفوسنا أثناء النوم، كما أنه لا وجود لأطياف تسبح في الهواء إطلاقاً، وفي الحق إنني لم أصادف أحداً من الناس يتحدث بمثل هذا الاتزان الذي يبدو في حديث ديمقريطس:

«إن النفس (البشرية) لها من قوتها وطبيعتها ما يجعلها نشيطة إبان اليقظة، لا لأن شيئاً خارجياً يحملها على ذلك، بل يسبب ما فطرت عليه من قدرة على الحركة الذاتية والسرعة التي لا يتصورها العقل^(١). وعندما توازر النفس أعضاء الجسم وحواسه الخمس، تُعظم قوى إدراكها الحسي وينشط تفكيرها

(١) هذا الرأي نفسه الذي شرحه شيفرون أيضاً في (C. M. 21. 78 Tusc. 1. 43.)

قد سلم به قدماء الفلاسفة بوجه عام.

ويبقى فيها وتزداد الثقة بها ، ولكن عندما يعوزها هذا الغون الخفى (١) ويتبدل الجسم إبان النوم ، تتحرك النفس بذاتها ، وهكذا تهفو الرؤيا حولها ، وتمارس النفس نشاطها ، ويلوح أنها تسمع الأصوات وترى الكثير من الأشياء . وفي وسعك أن تكون على يقين من أن النفس عندما يدركها الضعف ويصيبها الارتخاء ، ترى مثل هذه الصور ، وتسمع مثل هذه الأصوات بطرق يشيع فيها الاضطراب ، وتمثل في صور شتى . وفلا تظن - بوجه خاص - أن آثار ما يعرى في يقظتنا من أعمال ، وما يطوف بعقلنا من خواطر ، تتحرك في باطن النفس وتنتقل ، فن ذلك أني حين كنت في المنفى كان « ماريوس » لا يكاد يفارق خاطري ، فقد كنت أذكر الشجاعة والجلد العظيم الذي اغتصم به في تحمل ما أصابه من بلايا شديدة الوطأة ، وهذا - فيما أظن - هو الذي من أجله كان « ماريوس » يطوف بخاطري كلما عقد الكرى أجناني .

٦٨ - أما عن رؤياك فانها قد وقعت لك عند ما كنت مهموما بالتفكير في أمرى (٢) ، ثم تراءت لك حين خرجت من النهر فجأة ، فان في نفس كل منا تكمن « آثار من خواطر اليقظة » ، ولكن هذه الآثار قد طرأت على صورتها الأصلية زيادات وإضافات ، كما ترى في رؤياى عن معبد الذكرى لماريوس ، ورؤياك التي تبدى فيها الجواد الذي كنت أمتطى صهوته ، وقد غاص في الماء ثم طفا وعاد إلى الظهور ، ولكن أنتحسب من الممكن لعبوز

(١) إن الفكرة التي يفرضها هنا فكرة شائعة للغاية ، ومن الممكن القول بأنها تشبه أحدث النظريات في هذا الصدد ، وخلصتها أن اضطرابنا إلى أن نعمل أثناء اليقظة عملاً معيناً ، أو تواجه بعض المسائل بطريقة خاصة ، يضع هذا الخيالنا نطاقاً معيناً لا يتجاوزه ، وليس في وسعنا أن نستمر مع خيالنا غير مكترئين لما نسميه بالحقيقة ، إلا إذا استهدفتنا لكل أنواع المخاطر ، لأن مصلحتنا التي تفرض علينا العناية بجسمنا وحفظه في حال سليمة ، والتي تقضى باستخدام أعضائنا لسد حاجتنا ، تقضى بأن نحمز من عواقب الأسترسال في الخيال ، وتقوم بدور هام في إدراكنا الحسية ، أما في أثناء النوم فاننا لانصبأ بالحس وحقائقه ، ونستمر مع الخيال أنى ذهب ، وهنا ندع الكلمة للأستاذ برجسون (جارنييه) .

(٢) حين كان شيمرون في منماه (لويب) :

شمطاء قد بلغت من الخبل الحد الذي يجعلها تؤمن بالأحلام ، أن تستمر في إيمانها هذا ، متى ثبت لها أحيانا - لحسن الحظ أو المصادفة - أن هذه الأحلام باطلة ؟

ولكن فلنعرض للحديث عن رؤيا الاسكندر عن الثعبان الذي تكلم ، قد تكون القصة صحيحة ، وقد تكون مختلفة من بدايتها إلى نهايتها ، وفي كلتا الحالتين لا تعتبر هذه القصة شيئاً معجزاً ، لأن الإسكندر لم يسمع صوت الثعبان وهو يتكلم ، ولكن ظن وهما أنه سمعه ، وقد خال - وهذا أعظم الأمور مثاراً للغرابة ، أن الثعبان قد تكلم وهو يحمل الجذع في فمه ..! ولكن ليس من شيء غريب على الإنسان حين يكون في حلم . ثم إذا كانت هذه الرؤيا الصادقة المليئة بالحياة والمعاني ، قد وقعت للإسكندر ، فاني أميل إلى توجيه هذا السؤال إليك : لماذا لم ير رؤيا شبيهة بها بعد ؟ ولماذا يرى الآخرون في منامهم كثيراً من أشباه هذه الرؤيا ؟

أما عن أحلامي فإني إذا استثنت الرؤيا التي رأيت فيها ماريوس ، لا أجد في ذاكرتي حلاً أستطيع استعادته ، ففكر إذن ، كم من ليلة في حياتي الطويلة قد قضيتها عبثاً !! وهذا فوق أني قد أوقفت في الوقت الراهن دراساتي الليلية نظراً إلى اضطراب شتوني العامة ، وأضفت ، على عكس ما ألفت من قبل ، فترات قصيرة المدى أنام فيها بعد الظهر ، ولكنني رغم كل هذا الوقت الذي أقضيه نائماً ، لم أتلق في الرؤيا نبوءة واحدة - أجل ، ولا نبوءة واحدة على التحقيق تنصب على الأحداث الجسام التي تدور الآن رحاها (١) . وفي الحق إنني - فيما يخيل إليّ - لم أر رؤيا إلا حينما كان الحكماء في السوق العامة ، ومجلس الشيوخ في داره .

السك في قيام عمارة طبيعية بين نبوءات الرؤيا ومفاتيح الأسياء :

٦٩ - ومن حيث إننا وصلنا الآن إلى القسم الثاني من موضوعنا الراهن ،

(١) يشير إلى الشعب والاضطراب الذي أعقب مصرع قيصر (لويب) .

هل ثمة مثل هذه العلاقة الطبيعية^(١) وهي أن العثور على كنز نتيجة لازمة لظهور بيضة في رؤيا؟ من المحقق أن الأطباء يعرفون - استناداً إلى أعراض معينة - بداية المرض ويدركون استفحاله ، والمظنون أنهم يستطيعون أن يعتمدوا على بعض ضروب الأحلام^(٢) في الاهتداء إلى دلالات معينة ، كتلك التي تنبئ عن صحة المريض ، أو عما إذا كان الجسم مليئاً بالسوائل أو فارغ منها ، ولكن أية علاقة طبيعية تلك التي تربط بين الرؤيا من ناحية ، والكنوز وراث الأجداد والمصلحة العامة والانتصار في الميادين وما يشبه هذا من أمور كثيرة من ناحية أخرى؟

يقال إن أحد الناس قد قذف حصى أثناء حلم تخلله جماع ، وأنا أستطيع في مثل هذه الحالة أن أتبين العلاقة التي تربط بين الحلم ونتيجته ، لأن الرؤيا التي تمثلت للنائم كانت بحيث تجعل من البين أن ما وقع له ، مردّه إلى أسباب طبيعية لا إلى هذيان يطوف بخاطره^(٣) .

ولكن بأي قانون من قوانين الطبيعة تلقى « سيمونيدس » هذه الرؤيا التي أمرته بأن يبحر ؟ أو ما هي العلاقة التي تقوم بين قوانين الطبيعة وبين حلم « الكيادس » الذي بدا فيه قبيل مماته بقليل - فيما يقول التاريخ - مكتسباً

(١) التي تقوم بين الأحلام والأشياء كما تظهر في الرؤيا . قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الثاني (لويب) .

(٢) كان الطب القديم يسلم بالأحلام التكهنية التي تحذر الحالم من المرض الذي قد يتعرض له بعد قليل من الزمن ، وكان أبقراط Hippocrate يقول إن النفس تتنبأ بالحالات المرضية التي تعترى الجسم . وكان جالينوس Galien يؤكد أن الحلم يكشف لنا عن استعداد المرء للتعرض لصنف معين من الأمراض . وفي اعتقادنا أن الطب الحديث لا يستبعد هذه الفكرة ، وهو يقصرها على حالات معينة في نطاق ضيق (جارنييه) . أنظر شرح هذه الفكرة في كتابنا « الأحلام » ص ٦٨ و ١٤٣ و ٥٣ - ٥٤ و ٧٣ - ٧٤ وفي كتابنا « التنبؤ بالنيب » ص ٨٨ .

(٣) تسلم الترجمة بتفسير Hottinger De Div. p. 541 والمراد هنا أن الحلم السالف كان نتيجة وليس سبباً فيما تقول لويب ، وهو رأى اتفق عليه جبهة المحدثين من علماء النفس ، وإن كان رجال الدين من المسلمين قد ذهبوا إلى أنه من الشيطان .

رواء خليلته ، ولما قتل أخيراً وطرح في الشارع بجثته ، وسجيت من غير أن تقر في مشواها ، وأغفل الناس أمرها إلى عهد كبير ، غطت هذه الخليفة بجثته برداتها ؟ فهل تقول إن هذه الرؤيا ترجع إلى أسباب طبيعية تنهل بالقضاء الذي اعتراه ، أو تقول إن المصادفة كانت سبباً أدى إلى ظهور الشبح والحادثة التي تلتها معاً ؟

اختلاف المعبرين في تأويل الرؤيا الواحدة :

٧٠ - ثم أليس صحيحاً أن حدس معبري الأحلام أدلّ على فطنة أصحابه ، منه على قيام علاقة بين الأحلام وقوانين الطبيعة ؟ ونقول على سبيل المثال إن عداء رأى في منامه أنه يتأهب للاشتراك في الألعاب الأولمبية ، وأنه كان يركب مركبة تجرها أربعة خيول ، فمضى في الصباح إلى معبر أحلام ليستشير في أمر هذه الرؤيا ، فقال له المعبر : « إن الفوز حليفك ، فإن هذا أمر تشير إليه سرعة الخيول وقوتها » . فذهب إلى « أنتيفون » (١) ، فقال له : « إنك خاسر لا محالة ، ألسنت ترى أربعة تعدو أمامك ؟ »

فلنعداء آخر - فإن كتب « كريستوس » و « أنتياتر » حافلة بمثل هذه الأحلام - فلنعد إلى الحديث عن العداء : أنبأ عداء معبر أحلام بأنه رأى في منامه أنه تحول إلى نسر ، فقال له المعبر : « النصر ينظر لك ، فليس أمرع من الذسر بين الطيور ، فاستشار هذا العداء « أنتيفون » ، كذلك ، فقال له : « ألسنت ترى أيها الساذج أنك متنبوه بالخسران ؟ فإن هذا الظائر يطارد على الدوام غيره من الطيور ويسوقه أمامه ، ويتخلف على الدوام عنها جميعاً » . وقد كانت إحدى الزوجات تتوق إلى أن ترزق طفلاً ، وساورها الشك في حملها ، فرأت في منامها أن رحمها قد ختم عليه ، ولما قصت رؤياها على معبر

(١) كان كاهناً معاصراً لسقراط ، وقد تخصص في تمييز الرؤيا . وكان في هذا الميدان حجة غير منازع . وظل على هذا حتى زمن بطليموس الأول Ptolemée Soter إذ ظهر طبيب يسمى « هيروفائل » Hierophilie فابشكر آراء جديدة ، (جارية) .

أحلام . قال لها : « إن الحمل مستحيل والرحم مختوم عليه ، ولكن معبراً آخر قد قال لها : « إنك حامل ، إذ ليس من المألوف أن يحتم على الشيء الفارغ ! » وإذن فما هو الفن الذي تهباً لمعبرى الأحلام ؟ وهل تراه أكثر من أداة يستخدم فيها المرء ذكاهه في خداع غيره من الناس ؟ وهذه الأمثلة التي أسلفتها — بالإضافة إلى ما قدمه الرواقيون من أمثلة لا عديد لها — لا تبرهن على شيء أياً ما كان ، إلا على حذق أولئك الذين يستندون إلى دقيق المشابهات ، لكي يستنتجوا منها نتائج تختلف من حين إلى حين ، إن هناك دلالات معينة يراها الأطباء في حالة النبض وتردد النفس وغير ذلك من أعراض بجملة ، يستندون إليها في التنبؤ بالمرض . وعند ما يرى أدلاء السفن سمك الأخطبوط يثب في البحر ، أو الدلافين تلوذ بنفسها إلى ميناء ، يعتقدون بأن زوبعة توشك أن تشور . يرى المرء في مثل هذه الحالات آيات يمكن ردها إلى الأسباب الطبيعية ، وتفسيرها تفسيراً عقلياً ، وليس يصدق هذا البتة على الأحلام التي أسلفنا الحديث عنها منذ حين (١) .

السك في قيام التعبير على المشاهدة العملية :

٧١ — الآن قد باننا في بحث الأحلام النقطة الأخيرة (٢) ، التي استبقيناها للمناقشة ، والتي تجادل الآن فيها قائلاً :

« ظهر فن التعبير بعد ملاحظة الأحلام مدة طويلة من الزمان ، وتسجيل النتائج التي أدت إليها هذه الملاحظات ، . أحقاً هذا ؟ وإذن فمن الممكن — فيما يلوح لي — أن « نلاحظ الأحلام ، ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن هذا ؟ فإن الأحلام تتنوع تنوعاً لا حد له ، والمرء لا يستطيع بتاتاً أن يتصور شيئاً — بالغاً ما بلغ تناقضه وتعقده وشذوذه — لا يحلم المرء

(١) لعل هذا هو الذي حمل بعض مفكرى الاسلام على أن يردوا تأويل الأعلام إلى الفتح الإلهي مع الفطنة والذكاء — قارن كتابنا « الأحلام » ص ١٧٨ .

(٢) أى من النقط الثلاث التي ذكرناها في الفقرة الستين من الكتاب الثاني (لوبي) .

به ، فكيف إذن يكون من الممكن لنا أن نتذكر هذه الرؤى التي لا يحصيها العدد ، والتي تتغير على الدوام أبدا ، أو أن نلاحظ النتائج التي تعقبها ونسجلها ؟ لقد سجل علماء الهيئة حركات الكواكب السيارة ، فكشفوا بذلك عما للنجوم من مسالك منظمة — لم يفكروا فيها من قبل — ولكن نبئني — إن استطعت الى ذلك سبيلا — ما هو الطريق المنظم الذي تلتزمه الأحلام في جريانها ، وما هي العلاقة المنسقة التي تقوم بين الأحلام والحوادث التي تعقبها ؟ وبأية وسيلة يمكن التمييز بين الرؤيا الصادقة والحلم الباطل ؟ مادام الحلم الواحد يستتبع عند شخص نتائج بعينها ، وعند شخص آخر يستلزم نتائج أخرى ؟ وما دمننا نرى أن الحلم الواحد الذي يقع لفرد واحد لا يستتبع على الدوام نتيجة واحدة ؟ وقد جرت العادة ألا نصدق كذبا حتى حين يقول صدقا ، ولكن الشيء الذي يثير دهشتي هو أن حلما واحدا إذا صدق ، فإن أصدقائك الرواقين يثقون بقيمة هذا الحلم في مجال التكهن بالغيب ، رغم أنه حلم واحد من عدة أحلام ، أو هم بالأحرى يعتمدون على رؤيا صادقة واحدة في إقرار أحلام باطلة أخرى لا يحصيها العدد.

قياس التعبير على الحدس ببرر الشك في نتائج : قياس التعبير على الحدس ببرر الشك في نتائج :

وإذن فاذا لم يكن الله هو الذي خلق الأحلام ، وإذا لم تكن ثمة علاقة بينها وبين قوانين الطبيعة ، ثم إذا لم يكن من الممكن أن يقام فن التكهن بالغيب عن طريق الملاحظة ، فانا لا نستطيع تبعا لهذا أن نثق في الرؤيا إطلاقا ، وإن هذا ليزداد وضوحا بوجه خاص إذا لاحظنا أن هؤلاء الذين تترامى لهم ، ولا يستطيعون أن يستنبطوا منها نبوءات ، وأن هؤلاء الذين يؤولونها يعتمدون على الحدس ولا يستندون الى الطبيعة ، وأن المصادفة قد انتهت بعد أجيال لا يكاد يحصيها العدد ، الى معجزات أبعد على الدهشة وأعظم إثارة للعجب من تلك التي انتهت اليها الأحلام ، وألا شيء — آخر الأمر — أكثر مدعاة

للكشك والقلق من الحدث الذي قد لا يؤدي إلى نتائج تتغير فحسب ، بل قد يؤدي في بعض الأحيان إلى نتائج متناقضة .

رفضه التسليم بأساليب التكهن باعتبارها خرافة :

٧٢ - واذن فلنرفض التسليم بالأحلام كطريقة من طرق التدبؤ بالغييب ، كما رفضنا التسليم بغيرها من طرق ، ولنقل في صراحة : إن الخرافة التي ذاعت بين الشعوب ذبوعا واسع المدى ، قد استغلت الضعف الإنساني وهيمنت على أكثر العقول البشرية . وقد أبنت عن هذا الرأي في البحث الذي وضعته حول « طبيعة الآلهة » (١) ، وجعلت التدايل على صحته الغرض الرئيسي من بحثنا الراهن ، فأكبر الظن أني أؤدي خدمة جليلة لنفسى ولأهل وطنى معا ، إذا استطعت أن أجتث الخرافة من جذورها ، ولكنى أريد أن تفهم في وضوح وتميز أن القضاء على الخرافة ليس تحطيا لكيان الدين ، لأنى أعتبر من الحكمة أن نحتفظ برسوم أجدادنا ، وأن نتمسك بشعائهم الدينية وطقوسهم المقدسة ، فإن النظام الذى يتبدى في رحاب السماء ، والجمال الذى يشيع في فضاء الكون ، يضطرني إلى الاعتراف بوجود كائن أبدي يسمو فوق شتى الكائنات ، ويستحق من نبي البشر التقدير والإكرام .

ومن ثم فإن واجبنا كما يقضى بأن نبسط نفوذ الدين الصحيح الذى

(١) في المقررة الثامنة والعشرين من الكتاب الثانى من « طبيعة الآلهة » لشيرون يميز أحد المتحدثين وهو يتكلم عن إلهيات الرواقين بين الخرافة التي تعتبر ضعفا وبين الدين الذى يجعل المرء خليقا بالتقدير والثواب . ولكن شيرون يميل هنا الى القول برأى يشبه رأى الذى يعب عنه « كوتا » Cotta في الكتاب الثالث من « طبيعة الآلهة » وشيرون فوق أنه « شك » Sceptique فإنه يخدم العرف الجارى المألوف ، وهو يؤكد عقب هذا وجود كائن علوى يدين له الناس بالاعجاب والاحلال ، مستندا في رأيه هذا الى الدليل الذى قيل عن الملل النائية أو الملل الآلهية الطبيعية (جارنييه) .

يتصل بمعرفة الطيعة اتصالاً وثيقاً (١) ، فإنه يقضى كذلك بأن تقطع جذوع الخرافة اقتلاعاً ، فانك إن أيدت التسليم بالخرافة ، جدت في إثراك ولاحتقتك وتبعنتك أنى كنت ، إنها تصحبك حين تنصت إلى رنى أو تستجيب إلى قال أو تقدم القرابين لإله ، أو تراقب سبج الطيور في سماءها ، أو تلتمس مشورة نجم أو عراف ، أو ترى السماء ترعد أو تبرق أو ترسل الصواعق ، أو حين يقع ما يسمونه خارقاً ، ولما كان بعض هذه الشواهد يكاد يظهر بالضرورة دواماً ، فان المرء الذى يؤمن بها لا يضمن لنفسه دوام استقرار العقل وهدوته .

إنه النوم ملاذ من كل همّ ونصب ، ولسكنه صار بالفعل مصدواً للهموم والمخاوف . وفي الحق لقد كان من الممكن أن نستخف بالأحلام ونستبين بأمرها ، ولا نوليها مثل هذا الاهتمام ، لو أن الفلاسفة لم يشملوها برعايتهم ، ولست أقصد صبغار الفلاسفة ، ولكنى أقصد أولئك الذين وهبوا الذكاء الوقاد ، وأوتوا القدرة على أن يدركوا النتائج المنطقية التى تترتب على هذا أو لا تترتب عليه ، أولئك الذين يكادون يعتبرون معصومين من النقص والخطأ ، وفي الحق لو أن كارنيادس ، لم يقاوم غطرسهم ، لكان من المحتمل أن يقر في أذهان الناس في هذا العصر أنهم وحدهم الفلاسفة ، ولما كنت قد خصصت

(١) إن الفكرة التى يعبر عنها شيشرون هنا وهى اتفاق الدين مع المعرفة العلمية غير واضحة الى حد ما ، لأننا لانعرف على وجه الدقة تلك المعتقدات التى كان يعتنقها المؤلف ، الا أننا نستطيع أن نقول اجمالاً انها تشبه ما كان يسمى في القرن الثامن عشر وفي كثير من كتب الفلسفة : الدين الطبيعى وهو الذى لا يقر الوحى ، ومن المؤكد أن المذهب الطبيعى الالهى Deïsme عند الانجليز قد أفاد كثيراً من شيشرون ، وذلك منذ عهد هربرت شربورى الذى يرجع كتابه De Veritate prout distinguatur de revelatione الى عام ١٦٢٤ . ونرى بيانات شائقة تتصل بهذا الموضوع في كتاب Zieřinski وهو Cicero inn Wandel der Jahrhunderto ولستنا نجمل الاعجاب الذى كان يديه فولتير لشيشرون ، وفولتير من أتباع المذهب الطبيعى الالهى عند الانجليز (جارنييه) .

هؤلاء بمعظم ما أثرت من جدل عنيف، فإني أصرح بأن هذا لا يرجع إلى
أنى أنطوى لهم على نوع من الاحتقار، بل مرده على عكس هذا إلى أنى أراهم
يذودون عن آرائهم بأعظم دقة وأكبر مهارة، وذلك فوق أن من خواص
أهل الأكااديمية، ألا يقدموا للناس نتائج اهدوا إليها، بل يستصوبون النتائج
التي تلوح لهم أدنى ما تكون إلى الحق، ويقارنون بين الأدلة ويعلنون كل
ما يمكن أن يقال في تأييد الرأى دون أن يؤكدوا رأيا لهم، ويتركون للسامع
مطلق الحرية في إبداء رأيه وإصدار حكمه، وهذه الطريقة نفسها — ونقول
عرضا إنا ورثناها عن سقراط — هي التي أنوى التزامها في مناقشاتنا المقبلة،
ما استطعت إلى ذلك سبيلا — إن كان هذا يروقك يا عزيزى كوتنوس .
فقال كوتنوس : « ليس أحب إلى من ذلك » .

وبهذا انتهى الحديث بيننا فنهضنا ؟

كتب للمؤلف

١ - ترجمة :

- ١ - علم الغيب في العالم القديم : قامت بنشره مكتبة الآداب عام ١٩٤٦ (وقد قدمت الترجمة مع التعليق عليها ملحقاً لرسالة الدكتوراه (للأحلام) التي جازت الامتحان بمرتبة الشرف الممتازة) .
- ٢ - تراث الاسلام : لجنة الجامعيين لنشر العلم عام ١٩٣٦ (ترجم فيه المؤلف الجزء الذي وضعه ا. جيوم عن « الفلسفة والألهيات »)
- ٣ - تاريخ علم الأخلاق : وضعه هنري سدجويك أستاذ الفلسفة الخلقية في جامعة كامبردج - وستصدر الترجمة العربية في جزئين قريباً

ب - تأليفاً :

- ٤ - التنبؤ بالغيب عند مفكري الاسلام : صدرت في سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية عام ١٩٤٥
- ٥ - الأحلام - دراسة مقارنة . قامت بنشره مكتبة الآداب عام ١٩٤٥ (رسالة الدكتوراه المشار إليها سابقاً)
- ٦ - الشعراني - إمام التصوف في عصره : صدرت في سلسلة أعلام الاسلام عام ١٩٤٥
- ٧ - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة : لجنة الجامعيين لنشر العلم عام ١٩٣٦ ، وقامت باعادة طبعه مكتبة الآداب وظهرت الطبعة الثانية عام ١٩٤٦
- ٨ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني : تحت الطبع بمكتبة الآداب (بحث جاز امتحان الماجستير بمرتبة الشرف)
- ٩ - قصة النزاع بين الدين والفلسفة : يطبع قريباً

To: www.al-mostafa.com